العالم الإسلامى

في العصر العباسى

(١٣٢ - ٦٥٦هـ)

محاضرات

ألقيت على طلبة الدراسات العليا التاريخية

بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

تأليف

دكتور/ مصطفى محمد رمضان

رئيس قسم التاريخ بكلية الدراسات العليا بالجامعة

الإسلامية بالمدينة المنورة سابقًا

وأستاذ ورئيس قسم التاريخ والحضارة بكلية اللغة

العربية بالقاهرة

المقدمة

في سنة ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦م) دعتني الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بالسعودية للعمل بها أستاذاً في الدراسات العليا التاريخية وأسندت إليّ تدريس تاريخ الدولة العباسية فتناولتها بالدراسة على مدى سنوات الإعارة الخمس التي كانت عامرة بالبحث والتمحيص لأنها أخذت وقتي كله بالإضافة إلى أنها أسندت إليّ رئاسة قسم الدراسات العليا التاريخية. ولما كنت قد فارقت مكتبتي بالقاهرة فقد نزلت واشتريت مكتبة أخرى عامرة بالمصادر والمراجع لأني أحب أن يكون الكتاب ملك يميني ولا أستعيره.

وكان من بين الكتب التي ساعدتني على كتابة هذه المحاضرات كتاب «**تاريخ الأمم والملوك**» للطبري، و«**الكامل في التاريخ** لابن الأثير» و«**العبر وديوان المبتدأ والخبر**» لابن خلدون، و«**البداية والنهاية**» لابن كثير، و«**فتوح البلدان**» للبلاذري، و«**تاريخ الخلفاء**» للسيوطي، و«**مروج الذهب**» للمسعودي، و«**العقد الفريد**» لابن عبد ربه، و«**الفخري**» لابن طباطبا، و«**سياسة نامة**» لنظام الملك، و«**جمهرة أنساب العرب**» لابن حزم، و«**معجم البلدان**» لياقوت الحموي، و«**النجوم الزاهرة**» لأبي المحاسن، و«**الوزراء والكتاب**» للجهشياري، و«**وفيات الأعيان**» لابن خلكان، و«**تاريخ بغداد**» للخطيب البغدادي، و«**يتيمة الدهر**» للثعالبي، و«**الأنساب**» للسمعاني، و«**نفح الطيب**» للمقّري، و«**الأحكام السلطانية**» للماوردي، و«**الفرق بين الفرق**» لعبد القادر البغدادي، و«**الملل والنحل**» للشهرستاني.

ومن المراجع الحديثة «**العالم الإسلامي في العصر العباسي**» للدكتور حسن محمود ود. أحمد الشريف، وهو من الكتب التي استفدت منها كثيراً، و«**فجر الإسلام**» و«**ضحى الإسلام**» و«**ظهر الإسلام**» لأحمد أمين، و«**محاضرات الشيخ الخضري في الدولة العباسية**» وهو من الكتب الجيدة، وأطلس التاريخ الإسلامي للدكتور حسين

مؤنس، و«**تاريخ الإسلام السياسي**» لحسن إبراهيم، و«**التاريخ الإسلامي العام**» لعلي إبراهيم و«**أصول الباطنية**» لبرنارد لويس، و«**العلاقات العربية السياسية في عهد البويهيين**» لحامد غنيم، و«**التاريخ العباسي والأندلسي**» للعبادي، و«**تاريخ المغرب العربي**» لسعد زغلول عبد الحميد، و«**أخبار القرامطة**» و «**تاريخ العرب والإسلام**» لسهيل نكار، و«**تاريخ الدعوة الإسماعيلية**» و«**الحسن الصباح**» و«**القرامطة**» لمصطفى غالب وهو من الذين اطلعوا على كُتب أسرار الباطنية، و«**موسوعة التاريخ الإسلامي**» لأحمد شلبي، و«**الحدود الإسلامية البيزنطية**» لفتحي عثمان، و«**الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي**» لموريس لومبار، و«**رسائل الجاحظ**» لعبد السلام هارون. وغيرها من الكتب المشار إليها في هوامش المحاضرات. وهذه المحاضرات تشتمل على قسمين :

في القسم الأول :

تناولت المحاضرات الدولة العباسية من قيامها حتى سقوطها على يد المغول سنة ٦٥٦هـ فذكرنا أنها تنسب إلى العباس بن عبد المطلب على الرغم من أن العباس لم تتجه إليه الأنظار (طوال حياته حتى توفي سنة ٣٢هـ) لكي يكون خليفة للمسلمين لأنه لم يكن من السابقين إلى الإسلام ومن ثم لم يرشح للخلافة هو ولا أولاده من بعده.

وأول من فكر في الخلافة من العباسيين محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وكان يعيش في الحُمَيْمة وهي قرية في بادية الشام، وكان محمد هذا له طموح سياسي وأكثر نشاطًا من العلويين، وأكثر تطلعًا منهم إلى النفوذ والسلطان، وقد ساعدته الظروف أن أبا هاشم بن محمد بن الحنفية حفيد علي بن أبي طالب لما أحس بدنو أجله قصد محمداً بن علي بالحُمَيْمة وأفضى إليه بأسرار الدعوة العلوية التي كانت تقدمت في بلاد فارس.

وكان محمد بن علي بعيد النظر يتحرك بالحيطة والحذر فطلب من الدعاة أن تكون الدعوة للرضا من آل البيت دون تسمية أحد خوفًا على نفسه

ويكون نشطهم في الكوفة لأنها مهد التشيع ثم بعد ذلك في خراسان حيث يستغلون في موالي الفرس حالة النقمة التي كانت موجودة لديهم على الدولة الأموية لموقفها من الموالي، فكانت أرضاً صالحة لبذر عوامل الثورة .

فقد كان موالي الفرس يبحثون عن المساواة والحرية فوعدهم دعاة العباسيين بذلك فوضعوا أنفسهم تحت تصرف العباسيين وكان أبو مسلم الخراساني قائداً بارزاً لهذه القوة النامية التي كانت تنتهز الفرص للوثوب على الدولة الأموية .

وقامت الدولة العباسية بسيوفهم، واعتمد خلفاء العباسيين عليهم في إقامة الدولة، وشكوا في العرب، وهذا هو إبراهيم بن محمد بن علي العباسي المشهور بالإمام يقول لقائده الفارسي أبو مسلم الخراساني «إنك رجل من أهل البيت ... اتهم ربيعة في أمرهم، وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار، واقتل من شككت فيه، وإن استطعت ألا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل» .

ووصل الفرس على يد العباسيين إلى أرقى المناصب كقيادة الجيش والوزارة وقضوا على التميز الذي كان للعرب أيام الأمويين، وقد استحوذ الفرس على هذه المناصب أيضاً في ظل الدويلات التي نشأت في الفترة العباسية ولها نوع من الاستقلال مثل : الدولة الطاهرية والدولة السامانية والغزنوية والبويهية والسلجوقية وغيرها من الدول .

وتطلع الفرس لأكثر من هذا وبدأوا في العمل على الإضرار بمصالح الدولة العباسية بمساعدة الخارجين عليها سراً وذلك مثل تعاطفهم مع الثوار العلويين والشيعة والزنادقة، وحاول الوزراء الفرس إدارة الدولة بنفس النظام الذي كانت تدار به الدولة الساسانية، فاحتجب الخليفة عن الرعية، واتخذ الحاجب، وألزم هؤلاء الموظفون الداخل على الخليفة أن ينحني أمامه وهذا التقليد من تقاليد ملوك الفرس ولم يكن موجوداً في العصر الأموي، وألزموا الداخل على الخليفة ألا يبدأ بمحادثة الخليفة إلا إذا بدأه الخليفة بالحديث

وإلا ظل صامتًا، ولم يكن هذا من تقاليد العرب في العصر الأموي.

ولما بدأ الخلفاء العباسيون يعانون من استبداد القواد والوزراء كأبي مسلم الخراساني والبرامكة وآل سهل وغيرهم وبدأوا في حماية أنفسهم والخلافة بالتخلص منهم بدأت تظهر ردود الفعل الفارسية الغاضبة من حركات الزندقة والخرمية التي نشرت الفرق الإباحية في كل مكان وهي كلها معارضة للدولة العباسية كالراوندية والخرمية وغيرها.

وكان لانتصار المأمون بسيوف الفرس أثره السيئ على الجانب العربي وقامت ثورات عربية في كل مكان منها (ثورة أبي السرايا) بالكوفة سنة ٢٠٠هـ ومنها (ثورة نصر بن شبث العقيلي) في شمال الشام، و(في مصر قامت ثورة بين عرب الشمال وعرب الجنوب) ثم في النهاية في وجه عبد الله ابن طاهر والي مصر الفارسي وهذا الوضع أوصل العرب في الدولة العباسية إلى وضع سيئ للغاية جعل المأمون يسخر منهم، فقد ذكر الطبري في رواية له عن محمد بن علي ابن صالح السرخسي فقال: «تعرض رجل للمأمون بالشام مرارًا، فقال له: يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان فقال: أكثرت عليَّ يا أخا الشام، والله ما أنزلت قيسًا عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتني قط، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من أشياعه، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شاريًا، أعْزُبْ عني فعل الله بك!»(١).

وفي نهاية عصر المأمون اتضحت عدم فاعلية قوات الجيش وأنها غير قادرة على تحقيق النصر للدولة لأنها قوات متناحرة غير مخلصة من بقايا العرب المحطمين وبقايا الفرس غير المخلصين الغاضبين.

واتضح أيضًا أن الدولة في حاجة إلى دماء جديدة تدعم قوة الجيش

(١) الطبري، ج٨، ص ٦٥٢، وابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

وتعيد حيويته وهذا ما دعا الدولة للاستعانة بالأتراك على نطاق واسع، فكان الأتراك هم الذين حققوا النصر بتماسكهم وقوتهم في ساحات القتال أيام المعتصم ضد جيش بابك الخرمي سنة ٢٢٢هـ وبذلك استطاعت الدولة العباسية مقاومة النفوذ الفارسي بالأتراك الذين احتلوا مكان الصدارة في القيادة والبلاط على حساب كل من العرب والفرس ويبدأ بذلك عهد نفوذ الأتراك.

وابتداء من قيام الدولة السامانية سنة ٢٠٥هـ أخذت ظاهرة التتريك في الاتساع وكثر الأتراك في كل مكان بعد أن فتح المسلمون الحدود على منطقتهم التي كانت مغلقة أيام الدولة الساسانية وانساحوا غربًا في سيل لا ينقطع وكأنما كانت السماء تمطر تركًا على حد وصف بعض المؤرخين، وكان السامانيون يستقبلونهم وينظمون دخولهم بعد اعتناقهم للإسلام.

وكان تأثير الأتراك السيئ في حياة البغداديين سببًا في نقل العاصمة مؤقتًا من بغداد إلى سامرا سنة ٢٢١هـ.

وفي عهد الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢هـ) رأى العرب أنهم عندما بعدوا تمامًا عن الجيش الإسلامي لم يقبلوا أن يعيشوا في قهر بالعراق فعاد معظمهم إلى جزيرة العرب وقاموا بحركات إغارة وقطع طريق وفرضوا إرادتهم في المدينة ومكة وغيرها من مدن الحجاز وكان هدفهم مناوأة الدولة العباسية التي قدمت العجم على العرب مما سبب انقطاع الطريق ونشر الخوف في هذه الأماكن بعد أن نعم الناس فيها زمنًا طويلاً بالأمن والأمان منذ صدر الإسلام حتى عصر الواثق.

وجرد الواثق جيوش الأتراك لقهر عرب الجزيرة المتمردين فقتلت منهم أعدادًا كبيرة وأسرت البعض الآخر وحملتهم معها إلى سامرا ولا شك أن أخذ العرب أسرى بالآلاف في يد الأتراك من المشاهد المؤلمة التي أثرت في نفسية العرب وكان هدف الأتراك منها قهر شخصية العرب ومن أجل هذا وضع العرب أنفسهم في خدمة أي حركة مناوئة للدولة العباسية ،

فاشترك بنو سليم وبنو هلال مع القرامطة، وبعد ذلك رحبوا بالفاطميين، وهذا مما ساعد على الفرقة في العالم الإسلامي.

وعلى العرب يقع جانب كبير من المسئولية في إنهاء سلطتهم ومشاركتهم في شئون الدولة العباسية، والمسئولية تشمل الراعي والرعية، وأعني بالراعي الخليفة العباسي الذي فرط في جمع شتات هذه القوة التي سبق أن حققت بتماسكها العزة والمنعة للإسلام على مدى أكثر من قرنين من الزمان، والخليفة العباسي راعي وهو مسئول عن رعيته، وبقدر ما أتاح الفرصة للعناصر الأخرى للمشاركة في أوضاع الدولة لتحقيق المساواة التي كانوا يطلبونها، كان عليه أن يحافظ على الكيان العربي والقوة العربية التي هي الأصل وما عداها هي الفرع، وكان عليه أن يوجه هذه القوة إلى ساحات القتال مع أعداء الإسلام.

وأما الرعية فهم العرب جميعًا الذين تنازعوا واختلفوا إلى عرب شمال وعرب جنوب وشامية ومضرية، وربيعية، والمضرية إلى قرشية وغير قرشية، والقرشية إلى أموية وهاشمية، والهاشمية إلى علوية وعباسية، والعلوية إلى فرق لا تحصى من الشيعة الزيدية والإمامية والإسماعيلية وهلم جرا إلى غير ذلك من الخلافات التي قضى عليها الإسلام ونبه على خطورتها والتي تؤدي إلى الفشل **﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾**[١] ومن منطلق قوله تعالى: **﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾**[٢] وقوله تعالى: **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾**[٣].

وعندما توفي الواثق سنة ٢٣٢هـ كان «وصيف» القائد التركي قد أضحى من القوة بمكان بحيث يستطيع أن يرفع إلى كرسي الخلافة الرجل

(١) الأنفال: آية ٤٦ سورة ٨.
(٢) الأنفال: آية ٥٣ سورة ٨.
(٣) الرعد: آية ١١ سورة ١٣.

الذي يرتضيه هو، فعين للخلافة صبيًا صغيرًا هو جعفر بن المعتصم الملقب بالمتوكل .

ويتفق المؤرخون أنه بموت الواثق ينتهي العصر الذهبي للدولة العباسية الذي استمر قرنًا من الزمان من ١٣٢ - ٢٣٢هـ وبتولي المتوكل يبدأ عصر جديد للخلافة يتسم بسيطرة الأتراك سيطرة كاملة على شئون الخلافة وفيه تضاءلت سلطة الخلفاء العباسيين إلى أبعد الحدود .

ويمكن أن نقسم العصر العباسي الثاني إلى عدة عصور :

أولاً : عصر سيطرة الأتراك على الخلفاء في بغداد وسامرا ويبدأ من ٢٣٢هـ وينتهي في سنة ٣٣٤هـ .

ثانيًا : عصر سيطرة أمراء البويهيين وهم من الديلم ويبدأ من دخولهم بغداد سنة ٣٣٤هـ وينتهي في سنة ٤٤٧هـ .

ثالثًا : **العصر السلجوقي** : ويبدأ بدخول الأتراك السلاجقة بغداد بعد القضاء على النفوذ البويهي سنة ٤٤٧هـ ويستمر حتى دخول المغول بغداد سنة ٦٥٦هـ .

وكان العالم الإسلامي في مطلع القرن الخامس الهجري بمثابة صرح تقوض بناؤه بالانقسام شرقًا وغربًا فكانت تتنازعه قوى مختلفة، وتتزعمه ثلاث خلافات : **(العباسية في بغداد)** و**(الفاطمية في القاهرة)** و**(الأموية في الأندلس)**.

وكانت الخلافة العباسية في بغداد قد غلب عليها النفوذ البويهي الشيعي الذي أضعف جبهة الدفاع عن العالم الإسلامي على الحدود البيزنطية ولم يقم البويهيون بعمل شيء في هذا المجال، وزادت في نهاية فترتهم المنازعات المذهبية بين الشيعة والسنة في العراق وأصبحت تهد كيان الدولة، وتشغلها عن الأخطار المحيطة بها.

وزاد في هذه المنازعات مؤامرات الدولة الفاطمية التي أحدثت في

العراق والشام والمغرب اضطرابات مذهبية عنيفة بين السنة والشيعة .

كما كانت الخلافة الأموية في الأندلس قد آل أمرها في هذه الفترة إلى التفكك إلى دويلات ضعيفة متنازعة عرفت بالطوائف أو الفرق، مما أغرى الأسبان ومن ورائهم المسيحيون في أوربا بالتحفز والهجوم على المسلمين في الأندلس.

وكان العالم الإسلامي في حاجة ماسة إلى حركة إنقاذ تلم شعثه وتقوي أطرافه وثغوره أمام الطامعين فيه، وتحققت له هذه الأمنية حين جاءته من وراء حدوده شرقًا وغربيًا عناصر فتية مليئة بفتوة البداوة وعنفوانها .

فمن أقصى المشرق جاءته موجات الأتراك السلاجقة السنيين الذين دحروا البيزنطيين والبويهيين وتغلبوا على البيزنطيين في آسيا الصغرى وحولوها إلى تركستان جديدة اتخذها موطنًا لهم ودعموا سيادة المذهب السني وخلفاء العباسيين.

ومن أقصى المغرب جاءته عناصر مغربية فتية من صحراء شنقيط المغربية (موريتانيا) وهم البربر الملثمين أو المرابطين المتحمسين للإسلام الذين وحدوا المغرب كله وعبروا إلى الأندلس فأنقذوها من براثن الأسبان وردوا المسيحيين المتربصين بها على أعقابهم ووحدوا الأندلس من جديد تحت نفوذهم وأجلوا سقوط الأندلس عدة قرون.

وما لبث شمل السلاجقة أن تفرق بسبب الحرب الأهلية بين أفراد البيت السلجوقي، فأعطت هذه الحرب الفرصة لأعداء الإسلام للهجوم على أطرافه كالصليبيين في الشام الذين استولوا على أنطاكية سنة ٤٩١هـ والرهاسنة ٤٩٢هـ وبيت المقدس ٤٩٢هـ وكونوا بها إمارات صليبية استمرت نحو قرنين من الزمان.

كل هذا والسلاجقة مشغولون بحروبهم مع بعضهم فتحولوا من التماسك إلى الفرقة ومن الجهاد إلى الصراع الداخلي ففشلوا وذهبت

ريحهم وخرجوا من دور القوة إلى دور الضعف ودخلوا في طور الانقسام الذي تجرأ فيه أعداء الإسلام على ثغور الشام، وبذلك يعلمنا التاريخ أن الحروب الداخلية الأهلية كانت وبالاً على العالم الإسلامي وهي مؤشر لأعداء الإسلام للهجوم عليه.

وقامت دول الأتابكة على أنقاض دولة السلاجقة وهم من قواد السلاجقة وعلى يد أحد قوادهم وهو (**نور الدين محمود**) قامت حركة نشطة قضت على الخلافة الفاطمية وعادت مصر إلى أحضان أهل السنة وقامت على أثر ذلك دولة (**صلاح الدين الأيوبي**) الذي هزم الصليبيين في الشام بعد توحيده لمنطقة الشام ومصر.

وفي المشرق قامت دولة خوارزم شاه التي لم تسطع أن تسد مسد السلاجقة في صد العناصر الشرقية التركية والمغولية، ولم يلبث ذلك السد العظيم أن انفتح مَغْلَقُه وتحركت الأمم التتارية المغولية (**وهم أقارب الجنس التركي**) كأنها السيل العرم لا يصده عن مقصده شيء وأزاحوا أمامهم كل من يعارضهم أو يقف في سبيلهم وذلك في أوائل القرن السابع الهجري فقضوا على دولة خوارزم شاه التي انشغلت بحرب الخلافة العباسية .

وما لبث المغول أن اقتحموا العراق ودخلوا بغداد بقيادة هولاكو في وحشية مدمرة متعطشة للدم واسقطوا الخلافة العباسية وداسوا التراث الإسلامي بأقدامهم، في سنة ٦٥٦هـ وقتلوا آخر خليفة عباسي في بغداد وهو (**المستعصم**) (٦٤٠ - ٦٥٦هـ) .

واحتل المغول سوريا وزحفوا على مصر، لكن مصر أوقفت المد المغولي عام ٨٥٨هـ (١٢٦٠م) على يد المماليك في مصر بقيادة القائد المملوكي سيف الدين قطز في معركة (**عين جالوت**) قرب الناصرة بفلسطين، وتمكن المماليك بذلك من إيقاف الزحف المغولي وانقذوا ما تبقى من الحضارة الإسلامية في مصر والمغرب من عبث المغول .

وكانت غارات المغول أفظع كارثة حلت بالعالم الإسلامي بل بالإنسانية كما قرر ذلك المؤرخ ابن الأثير في لهجة باكية مؤثرة في معرض كتابته عن أحداث سنة ٦١٧هـ وهو الذي لم يشاهد سقوط بغداد لأنه توفي سنة ٦٣٠هـ وعلى الرغم من ذلك فإنه يقول :

«لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها فأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فياليت أمي لم تلدني وياليتني متُّ قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا»(١).

ومن أخطر النتائج على الصعيد الفارسي هي أن الحرب الخفية التي كانت مستعرة في إيران وما وراءها بين العربية والفارسية قد انتهت بفعل الاجتياح المغولي لصالح اللغة الفارسية، فقد طمس المغول جميع مراكز الإشعاع العربية التي دعمها نظام الملك وثبتوا مع الأيام الطابع الفارسي ونقلوه معهم إلى مناطق أخرى كالصين والهند وشرقي أوربا، فالمغول شعب بلا خلفية ثقافية أو حضارية متميزة فاستعاروا حضارتهم من التجربة الفارسية الإسلامية.

وإذا كان المغول قد غلبوا العالم الإسلامي عسكريًا فإن المسلمين قد غلبوهم حضاريًا وعقائديًا، فقد تلقف المغول الإسلام وخدموه بعدما أذلوه، لكن هذا أخذ وقتًا طويلاً وجهدًا من دعاة المسلمين. إنها قصة الصراع بين الضلالة والهدى وبين البداوة والحضارة وبي الوثنية والوحدانية قصة صمد فيها الإسلام أمام وثنية البداوة، وكانت مثار إعجاب لمؤرخي الغرب، فالمؤرخ الإنجليزي توماس أرنولد يقول :

«لم يكن بد من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى وأطلال مجده التالد، كما استطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين

(١) عز الدين بن الأثير، ج٩، ص ٣٢٩، حوادث سنة ٦١٧هـ.

والمتبربرين ويحملهم على اعتناقه، ويرجع الفضل في ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين»[١].

وفي القسم الثاني من هذه المحاضرات نتناول الحركات الانفصالية في العالم الإسلامي في العصر العباسي.

فقد أدى ضعف الحكومة المركزية في بغداد واستبداد الأتراك بها إلى قيام حركات انفصالية في كثير من النواحي بالمشرق والمغرب وسنتناول هذه الحركات الانفصالية مبتدئين بالمغرب الإسلامي طبقًا للتتابع الزمني لظهورها، فهي من حيث تتابعها الزمني قد بدأت في المغرب قبل أن تبدأ في المشرق، وليس ذلك لأن ظهور هذه الروح قد بدأت في المغرب قبل المشرق، وإنما لأن عاملاً آخر أظهرها مبكرًا في المغرب ذلك هو عامل المعارضة التي قامت في وجه الدولة العباسية منذ قيامها.

ونستطيع أن نقول إنه عندما شاعت الحركات الانفصالية في كل مكان في الدولة العباسية وتغلب الأتراك والبويهيون على الخلفاء في بغداد فإن الدولة العباسية تكون قد خسرت سلطانها وهيبتها قبل انقراضها بزمن طويل باستثناء بعض الفترات التي حاول بعض الخلفاء فيها إعادة الهيبة للدولة مثل أيام المعتضد والمسترشد والراشد والراضي.

ولعل السبب الرئيسي في ذلك راجع إلى تخلي الدولة عن العنصر العربي وإبعاده نهائيًا عن القيادة والصدارة، وهو العنصر الذي حقق للإسلام النصر والعزة، فهو عنصر مؤسس ومكون للدولة وبجهوده تمت الفتوح الإسلامية على أيام الخلفاء الراشدين والأمويين، فلما تم إبعاده وجد العباسيون أنفسهم مكشوفين منفردين أمام الأعاجم الطامحين فكان من السهل على هؤلاء الأعاجم الضغط على الخلفاء لأن القوة والعصبية أصبحت لهم دون العرب فاستبدوا بالدولة، وكانوا حديثي عهد بالإسلام، والمبادئ

(١) توماس أرنولد، *الدعوة إلى الإسلام*، ترجمة حسن إبراهيم، ص ٢٥٠.

الإسامية الخاصة بالوحدة والاعتصام بحبل الله لم تكن قوية في أذهانهم، ومن ثم لم يتمسكوا بوحدة الدولة .

ومن ناحية أخرى فإن المعارضة العربية في الجزيرة العربية ساعدت كل خارج على الدولة العباسية وشجعتهم انتقامًا من الدولة التي أهملت العرب وهذا ما شاهدناه في حركة القرامطة والفاطميين والشيعة باليمن.

وفي ختام تقديمنا هذا نود أن نوضح أننا لن نستطيع أن نحصي جميع الحركات الاستقلالية والانفصالية في العالم الإسلامي في العصر العباسي، وإنما سنتناول أهم هذه الحركات، لأن تناولها كلها يحتاج إلى كثير من المجلدات .

هذا والله من وراء القصد يهدي ويعين وهو ولينا نعم المولى ونعم النصير .

أ.د. مصطفى رمضان

القسم الأول

الباب الأول

في نشأة الدولة العباسية

تنتسب الدولة العباسية إلى العباس بن عبد المطلب عم الرسول عليه الصلاة والسلام المتوفي سنة ٣٢هـ في خلافة عثمان بن عفان، ولم تكن له صلة بهذه الدولة التي نشأت باسمه فيما بعد سنة ١٣٢هـ واستمرت حتى سقطت على يد المغول سنة ٦٥٦هـ، وبقى بيتهم بعد ذلك له اسم الخلافة في مصر حتى سنة ٩٢٣هـ عندما قضى عليها الأتراك العثمانيون بعد تغلبهم على سلاطين المماليك في الشام ومصر، ونقلوا الخلافة إلى اسلامبول يتقلدها سلاطين آل عثمان.

ويروي ابن خلدون في المقدمة أن العباس نفسه طلب من علي بن أبي طالب والرسول يحتضر أن يدخل ويسأله فيمن يكون الأمر من بعده فرفض عليٌّ الدخول على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسؤاله وقال : «لو منعنا إياها لا نتولاها إلى يوم القيامة»[1] ويبدو أن عليًا كان يدرك أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن يحب أن يكون هذا الأمر لآل البيت لأن الرسول كثيرًا ما كان يزجر آل البيت ويقول : يا فاطمة لا أغن عنك من الله شيئًا، يا عباس لا أغن عنك من الله شيئًا، يا بني هاشم لا يأتيني الناس بالأعمال وتأتونني بالأنساب، وكان علي يدرك أن استخلاف أبي بكر على المسلمين في الصلاة في مرض الرسول أمر يدل دلالة واضحة على أهلية أبي بكر الصديق للخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأول من فكر في الخلافة بعد ذلك لبني العباس هو محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس وهو والد الثلاثة الذين قامت على جهودهم تأسيس الدولة العباسية وهم : إبراهيم الإمام وأبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور وكان هؤلاء الثلاثة يعيشون مع جدهم علي في الحُمَيْمة[2] ببادية الشام،

---

(١) المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، ص ٦١٥ الجزء الثاني.

(٢) الحُمَيْمة بلفظ تصغير الحمَّة بلد من أعمال عمَّان في أطراف الشام وهي على الطريق بين دمشق والمدينة المنورة. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ٣٠٧.

وكان قد أقطعة الوليد بن عبد الملك هذه القرية سنة ٩٥هـ وكانت وفاته بها سنة ١١٧هـ وقيل إن الذي أنزله فيها هو عبد الملك بن مروان.

وكان علي بن عبد الله بن عباس عظيم القدر عند أهل الحجاز، وهو أصغر ولد أبيه وأكثرهم صلاة، وكان يُدعى بالسجاد لذلك، وكان بليغًا وسيمًا مفرطًا في الطول، إذا طاف حول الكعبة كأنما الناس حوله مشاة وهو راكب من طوله، وتعرض في حياته لاضطهاد الأمويين، فقد ضربه الوليد بن عبد الملك بالسياط لأنه تزوج لبابة بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وكانت زوجة لعبد الملك بن مروان فطلقها لأنها كانت تكره العيش معه لأنه أبخر، وقال الوليد له : إنما تتزوج بأمهات الخلفاء لتضع منهن، فقال علي : إنما أرادت الخروج من هذا البلد وأنا ابن عمها فتزوجتها لأكون لها محرَمًا، وذكر الطبري أن الوليد بن عبد الملك أخرج عليًا من دمشق على أثر هذا وألزمه بالإقامة الجبرية في الحميمة سنة ٩٥هـ وولد له بها نيف وعشرون ولدًا عدا البنات[١] أقواهم محمد بن علي فقد كان ذا عقل راجح ورأي صائب وتفكير سليم.

فكر محمد بن علي في مصير أولئك الذين احتكوا بالأمويين عسكريًا من آل البيت ورأى فشلهم ومصرعهم على يدهم أمثال : الحسين بن علي (٦١هـ) وعبد الله بن الزبير (٧٣هـ) وغيرهما من شيعة آل البيت، وهداه تفكيره إلى أن نقل السلطان من بيت إلى بيت إنما يكون بالدعوة أولاً وإعداد أفكار الأمة لهذا النقل ولا يكون الاعتماد على العواطف وحدها التي ثبت أنها لا تغني فتيلاً في ساحات الوغى عند الالتحام العسكري وإنما يجب أن يكون هناك قوة عسكرية ضخمة تحمي هذه الدعوة.

ولكي يصل محمد بن علي إلى هدفه كون جمعية سرية[٢]مقرها الحُمَيْمة

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص ٢٧٤ - ٢٧٨.

(٢) ويقال إن السبب في انتقال الخلافة إلى بني العباس أن أبا هاشم بن محمد بن الحنفية (محمد بن علي بن أبي طالب) لما حانت منيته كان مقيمًا بالحميمة عند بني عمه فأدلى إلى علي هذا وأولاده =

وطلب من أنصاره أن يؤلفوا منهم دعاة يدعون الناس إلى ولاية أهل البيت دون تسمية أحد خوفًا من بطش بني أمية وكان بداية الدعوة في مطلع القرن الثاني الهجري وخطط لهذه الدعوة من الحُميمة، واختار ميدانًا لها في البداية الكوفة، ثم بعد ذلك في مرحلة لاحقة في خراسان[1] وذلك لأن الكوفة هي مهد التشيع ولأن خراسان تفهم فكرة التشيع لآل البيت بسهولة لأنها نقل الخلافة إلى بيت النبي وذلك قريب من توارث الملك عندهم في أسرة واحدة لا يجوز نقله منها، وهو ما يعرف عندهم بالحق المقدس للملوك الذي كان سائدًا في بلاد فارس أيام حكم آل ساسان[2] ويعرف هذا الحق عند الإنجليز بـ (The Divine Right of Kings) وهو من المبادئ التي سادت العام طويلاً والتي كانت تسود أوربا إلى عهد قريب.

ومن ناحية أخرى فإن الفرس في نفوسهم شيء من الأمويين لتعصبهم للجنس العربي في جميع شئون الدولة، واختار محمد بن علي من الدعاة إثنى عشر نقيبًا يدعون لآل البيت وهم كما ذكرهم ابن الأثير :

١ - سليمان بن كثير الخزاعي.

٢ - لاهـز بن قريـظ التميمي.

٣ - قحطبة بن شبيب الطـائي.

٤ - موسى بن كعب التميـمي.

= بالخلافة وأوصى أولياءه به فصارت الشيعة الكيسانية في جانب علي بن عبد الله بن عباس. انظر الخضري، الدولة العباسية، ص ١٣ وابن الأثير، ج٤، ص ١٥٩.

(١) كلمة خراسان : مركبة من (خور) بمعنى شمس و(أسان) بمعنى شروق أي شروق الشمس أو المشرق كما كان يعرف، وكانت خراسان تشمل البلاد الآسيوية الممتدة بين نهر جيجون وفارس إلى سجستان جنوبيًا وهي تشمل الآن معظم إيران وأفغانستان وتركمانستان، انظر : أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص ١٤٩.

(٢) حكمت الدولة الساسانية بلاد فارس قبل الإسلام واستمرت من ٢٢٦ - ٦٥١حين تسلمها المسلمون وحكموها بولاتهم، أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ٩٨ - ٩٩.

٥ - خالد بن إبراهيم الشيباني .
٦ - القاسم بن مجاشع التميمي .
٧ - عمرو بن أعين مولى خزاعة .
٨ - شبل بن طهمان الهروي مولى بني حنيفة .
٩ - عمران بن إسماعيل أبو النجم مولى آل أبي معيط .
١٠ - مالك بن الهيثم الخزاعي .
١١ - طلحة بن زريق الخزاعي .
١٢ - عيسى بن أعين مولى خزاعة .

واختار سبعين رجلاً يأتمرون بأمر هؤلاء النقباء وكتب إليهم محمد بن علي كتابًا ليكون لهم مثالاً وسيرة يسيرون بها[1] ويلاحظ أن اختيار النقباء الإثنى عشر والسبعين رجلاً قدوة بالرسول عليه الصلاة والسلام وما فعله في بيعة العقبة الثانية مع الأنصار وتفاؤلاً بالانتصار كما انتصر الرسول من قبل .

وظل هؤلاء الدعاة يعملون من سنة ١٠٠هـ إلى سنة ١٣٢هـ وهي السنة التي بويع فيها لأول خليفة عباسي وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس المكنى بأبي العباس والملقب بالسفاح .

وظلت الدعوة من سنة ١٠٠هـ إلى سنة ١٢٧هـ يقوم بها الدعاة سرًا في هيئة تجار وحجاج إلى أن جمعوا حولهم الأنصار، وكثيرًا ما كان ينكل بهم إذا كشف أمرهم، وخاصة على يد أسد بن عبد الله القسري[2] والي خراسان الذي فتك بكثير من دعاة العباسيين .

ولما انشق البيت الأموي على نفسه [بخروج (**يزيد بن الوليد بن عبد الملك**) على ابن عمه (**الوليد بن يزيد بن عبد الملك**)] أتاح هذا الانشقاق الفرصة أمام دعاة العباسيين وحركتهم لكي تقوى وتقضي على

(١) ابن الأثير، ج٤، ص ١٥٩ .
(٢) أسد بن عبد الله القسري قحطاني من اليمن ولد ونشأ في دمشق وولاه أخوه خالد الذي كان واليًا على العراق من طرف هشام بن عبد الملك ولاه على خراسان سنة ١٠٨هـ .

دعائم الدولة الأموية لأن الانشقاق في البيوت المالكة يحدث بالتالي انشقاقًا في قوة الدولة فلا تصمد أمام عدوها، كما ظهر الانشقاق بين العرب اليمانية وعرب الشمال(١) مما أضعف الدولة وكان لاتحاد هذين الفرعين أثره الطيب في فترة الفتوح الإسلامية وعندما بدأ الانشقاق أضعف ذلك الجنس العربي بصفة عامة مما أتاح الفرصة أمام الأجناس الأخرى لكي تلعب دورًا في تاريخ الإسلام والمسلمين وعلى الأخص الجنس الفارسي في بداية العصر العباسي.

وحدثت عدة تطورات سياسية واقتصادية واجتماعية في إيران استفادت منها الدعوة العباسية، فقد بدأ الفرس يتطلعون إلى تحقيق شخصيتهم بعد أن حققوا مكاسب كثيرة سبب اشتغالهم بالصناعات التي كان يأنف منها العرب، وهاجر الموالي إلى كثير من المدن العربية في العراق والشام وأنشأوا أحياء جديدة حولها لخدمة الأسر العربية الثرية في النواحي الفنية والصناعية(٢) وقد اكتسب هؤلاء المهاجرون أرباحًا ضخمة عن هذا الطريق.

وقضى الفتح الإسلامي للعراق وفارس على النظام الطبقي القديم وكانت نتيجة هذا تحرير ملايين من البشر من طبقات العمال والصناع والفلاحين، وهم أفراد الطبقة التي كانت تسمى طبقة العمال المدنيين، وكانت هذه الطبقة قبل الإسلام تعيش في جو من القهر الاجتماعي والاقتصادية فتحررت على يد الإسلام وبدأت تظهر منها طبقة وسطى تسكن المدن وتحرز الثروة والثقافة الإسلامية، وسرعان ما ظهر منهم علماء كبار في ميادين الفقه والأدب واللغة والتاريخ، وبدأ هؤلاء يبحثون عن المساواة والحرية وهذه الطبقة الجديدة كانت عمود الثورة العباسية، وسوف تلعب دورًا في التاريخ العباسي.

---

(١) وحزب بني أمية وحزب بني هاشم.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٧٩، حسن محمود وأحمد الشريف، العالم الإسلام في العصر العباسي، ص ٤٣ - ٤٥.

وكان أبو مسلم الخراساني قائدًا بارزًا لهذه القوة النامية قوة الموالي الذين ظهروا على سطح الحياة الإسلامية، وآلت إليهم مقاليد الأمور[1].

لذلك كان الموالي ينتهزون كل فرصة ليكيدوا للدولة الأموية وظاهروا كل خارج على الدولة الأموية، ولم تكن حركاتهم منظمة، لكن عندما بدأت الدعوة العباسية واحتضن دعاة العباسيين حركة الموالي واحتضنوهم بدأ نجمهم في الظهور.

وعادت إلى العرب دعاوي الجاهلية فأفسدت الاعتصام بحبل الله ونزلت فيهم الفرقة، ونسوا قول الله تبارك وتعالى :

﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا، ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ....﴾ وما زال داء الفرقة هذا يفعل فعله إلى يومنا هذا لصالح أعداء العرب والمسلمين.

في الوقت الذي انشق فيه حزب بني أمية على نفسه وضعف بدأ حزب (**بني هاشم يقوى**) ويتحد للقضاء على بني أمية، وساعد على هذا حصافة محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الذي لم يظهر في بداية الدعوة أنها للعباسيين وإنما جعلها لآل البيت بصفة عامة دون تسمية أحد فظلت العلاقة بين العباسيين والعلويين إبان الدعوة تقوم على وحدة الهدف بين العباسيين والعلويين ضد خصمهما المشترك إلى أن دعت الضرورة لإظهارة الحقيقة.

ففي سنة ١٢٥هـ توفي الإمام محمد بن علي العباسي وعهد بالأمر من بعده لابنه إبراهيم، وما كاد إبراهيم يتولى الأمر بعد وفاة والده حتى تغيرت مسيرة الدعوة، فقد اتصل بإبراهيم الإمام شاب خراساني عاهده على خدمة الدعوة وهو : (**أبو مسلم الخراساني**)* الذي كان

(١) حسن محمود وزميله، العالم الإسلامي، ص ٥١.

* أبو مسلم : اسمه عبد الرحمن بن مسلم، وقيل كان اسمه عثمان أو إبراهيم بن عثمان بن يسار والذي غيراسمه هو الإمام بن محمد بن علي حتى يتم لهم الأمر فغيره إلى عبد الرحمن، وهو من =

يتصف بالشجاعة والإقدام، وقد تسلم أبو مسلم الخراساني زمام الأمور في خراسان، فذهب إليها والحرب مشتعلة فيها بين اليمانية والمضرية، [وكانت اليمانية بقيادة (**أسد بن عبد الله القسري**)[١]، والمضرية بقيادة (**نصر ابن سيار**)[٢]].

ومما قال إبراهيم الإمام لأبي مسلم: «إنك رجل من أهل البيت أحفظ وصيتي، انظر هذا الحي **من اليمن** فالزمهم واسكن بين أظهرهم فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، واتهم **ربيعة** في أمرهم، وأما **مضر** فإنهم العدو القريب الدار، واقتل من شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله، ولا تخالف هذا الشيخ - يعني سليمان بن كثير - ولا تعص وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني»[٣].

واستطاع (**أبو مسلم**) أن يضرب كل فريق بالآخر، إلى أن تغلبت اليمنية على المضرية، وحاربوا الدولة الأموية وناصروا الدعوة العباسية، فاستولى أبو مسلم على مرو وما يتبعها من الأقاليم بمساعدة اليمنية ثم تخلص منهم في النهاية.

ووقع في يد (**مروان بن محمد**)[٤] آخر خلفاء الأمويين كتاب إبراهيم

= قرية من قرى (مرو) بخراسان تسمى سنجرد وقيل من قرية تسمى ماخُوان [وفيات الأعيان، ج٣، ص ١٤٥] على ثلاثة فراسخ من مرو، وكان أبوه يجلب إلى الكوفة بعض المواشي وعلى يد أبو مسلم انتقلت الحركة العباسية في خراسان من السرية إلى العلن.

(١) توفي أسد بن عبد الله في ربيع الأول سنة ١٢٠هـ بمدينة بلخ [ابن الأثير، ج٤، ص ٢٣٤].

(٢) تولى (نصر) على خراسان سنة ١٢٠هـ بعد وفاة (أسد بن عبد الله)، ولما تولى قال رجل من اليمانية: ما رأيت عصبية مثل هذا، فلم يستعمل على مدى أربع سنين إلا مضرياً» (ابن الأثير، ج٤، ص ٢٣٩].

(٣) ابن الأثير، ج٤، ص ٢٩٥.

(٤) مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، ويلقب بالجعدي نسبة إلى مؤدبة (الجعد بن درهم) وهو أول من قال بخلق القرآن أيام خلافة هشام بن عبد الملك فأرسله إلى خالد القسري أمير العراق وأمره =

ابن محمد العباسي الإمام إلى أبي مسلم الخراساني يقول له فيه : « أن يُشَدِّد الوطأة على كل من يتكلم العربية وفهمها البعض أن يقتل كل من يتكلم العربية في خراسان» والعبارة التي وردت في ابن الأثير هي : «وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله[1]» والعبارة في الطبري «يأمره بقتل كل من يتكلم بالعربية » .

ولما وقع هذا الكتاب في يد **(مروان بن محمد)** أرسل على وجه السرعة إلى عامله في دمشق أن يقبض على إبراهيم بن محمد ويأتيه به ففعل، ولما أحس إبراهيم بما يراد به عرف نهايته وأوصى أخاه أبا العباس وعهد إليه بالأمر من بعده وطلب منهم أن يخرجوا إلى الكوفة .

وحبس رجال مروان إبراهيم الإمام في سجن حران ولم يزل به إلى أن مات سنة ١٣١هـ ويقال إنه سُقي سمًا، أما أهل بيته، فقد وصلوا إلى الكوفة وتسلمهم **(أبو سلمة الخلال)**[2] قائد العباسيين بالكوفة، فأنزلهم في إحدى دور الكوفة وكتم أمرهم عن سائر الناس أربعين ليلة وأراد أن يحصر السلطات في يديه وأن يكون هو الحاكم الفعلي للدولة والخليفة يملك ولا يحكم، ولهذا السبب أخر أبو سلمة إعلان الخلافة بعد احتلال الكوفة .

وضغط عليه أبو مسلم لإعلان الخلافة ولاختيار أحد أفراد الأسرة

= بقتله فقتله بعد أن تردد فى ذلك سنة ١٢٥ هـ ويقال لمروان بن محمد أيضاً : مروان الحمار لأنه كان لا يكل من الحرب ولا يجف له لبد فى محاربة الخارجين عليه ، ويقال أصبر من حمار ويقول ابن الأثير فى موضع آخر : وكان مروان يلقب بالجعدى لأنه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه فى القول بخلق القرآن والقدر وغير ذلك ، وكان الناس يسبون مروان بنسبته إليه [ج٤ ، ص٣٣٢-٣٣٣]

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ج٤ ، ص٢٩٥ والطبرى ، ج٧ ، ص٤٢٢ .

(٢) وهو أول من تلقب بالوزير فى الدولة الإسلامية ، فقد كان يعرف بوزير آل محمد وأصله مولى (لبنى الحارث بن كعب) ، وكان سمحاً كريماً مطعاماً كثير البذل مشغولاً بالسلاح والدواب فصيحاً عالماً بالأخبار والأشعار والسير حاضر الحجة ذا يسار ومروءة [الخضرى ، الدولة العباسية ، ص٧٠-٧١] وجاء فى العقد الفريد أن اسمه (حفص بن سليمان) .

العباسية وهنا كان من المفروض أن يختار أبو جعفر المنصور لأنه كان أكبر إخوانه سنًا وأقواهم شخصية، ولكن أبا سلمة اختار أبا العباس لأنه كان مريضًا ضعيفًا وقبل شروطه، لكن ما حدث أنه بعد ما استلم أبو العباس الحكم وقف أبو جعفر وراء العرش وحرك أبو جعفر الجيش ضد الحزب وتم اغتيال أبي سلمة في وضح النهار بعد خروجه من عنبر الخليفة، فتمكن الخليفة من تسلم السلطة وحصرها في نفسه.

وبقي الصراع بين الخليفة والوزارة التي أبقت عليها الخلافة ويلاحظ أن كل الوزراء انحدروا من أصلاب بعض كبار دعاة الحزب العباسي.

ويُقال إن أبا سلمة لما سبر أحوالهم وعرف نيتهم في حصر الأمر في العباسيين دون الهاشميين عزم على العدول عنهم إلى بني علي وراسل ثلاثة من أعيانهم وهم (**جعفر الصادق**) و(**عمر الأشوف**) بن زين العابدين و(**عبد الله المحض**) بن حسن بن حسن، فامتنعوا عنه لأنهم لا علم لهم ولا علاقة لهم به، ولما أحس بعض القواد بأمر أبي سلمة يقال أنهم أحبطوا ما أراده وذهبوا إلى الكوفة، فقابلوا أبا العباس وسلموا عليه بالخلافة، ودخل بعدهم أبو سلمة ففعل كما فعلوا، فهاجمه أحد القواد (**وهو أبو حميد**) وقال له على رغم أنفك فقال له أبو العباس : صه، وأمر أبا سلمة بالعود إلى معسكره.

أقبل الناس والقواد العباسيون يوم الجمعة ١٣ من ربيع الأول سنة ١٣٢هـ على أبي العباس يسلمون عليه بالخلافة، فخرج أبو العباس وصلى بالناس في مسجد الكوفة وخطب في الناس فذكر قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر فضل آل البيت في الإسلام وأحقيتهم في الخلافة، وأشار إلى وثوب بني أمية على الخلافة والاستئثار بها بالقوة وظلمهم حتى انتقم الله منهم.

ثم خاطب (**أهل الكوفة**) بقوله : «يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عنه تحامل أهل

الجور عليكم حتى أدركتم زماننا وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا»[١].

ووعدهم بزيادة أعطياتهم مائة درهم، وقال لهم : [استعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المتيح[٢]] ولهذا لقب بالسفاح وكانت به وعكة ألزمته الجلوس على المنبر ساكنًا وصعد عمه (**داود بن علي**) وكان من أفصح بني العباس فخطب الناس خطبة أخرى فتحها بقول فيه تجاوز حين قال : «واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم عليه السلام»[٣].

ثم جلس أبو جعفر المنصور أخو السفاح يأخذ البيعة من الناس في المسجد، واتخذ العباسيون السواد شعارًا لأعلامهم∆.

موقعة الزاب الفاصلة : فلما علم (**مروان بن محمد**) بما حدث وكان في حران[٤] أقبل على العراق ومعه قوة عظيمة من فرسان العرب يقدرهم ابن الأثير بنحو مائة وعشرين ألفًا، فزحف بهم إلى شمال العراق عند نهر (**الزاب الأعلى**) بين الموصل وأربل، وهو أحد روافد نهر دجلة في الشرق، فاستعد أبو العباس لذلك فأرسل عمه (**عبد الله بن علي**) لمقابلة هذا الجيش، فتقابل الجمعان في معركة حاسمة بدأت المعركة في ٢ من جمادى الآخرة وانتهت في ١١ جمادى الآخرة سنة ١٣٢ اشتد فيها القتال بين الطرفين وحاول مروان بن محمد في اللحظات الحاسمة من المعركة أن يغري رجاله بالأموال التي كانت في حوزته فأمر بإخراجها فأخرجت وقال للناس : «اصبروا وقاتلوا فهذه الأموال لكم» ولكن هذا العمل أحدث هرجًا

(١) ابن الأثير، ج٤، ص ٣٢٤، والخضري، ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢) في الطبري (والثائر المبير).

(٣) ابن الأثير، ج٤، ص ٣٢٦.

(٤) حران في شمال الشام وهي قصبة ديار مضر وهي على الطريق بين الموصل والشام وكانت منازل الصابئة وهم الحرانيون.

∆ وكان البياض شعاراً لأعلام الأمويين (الطبري، ج٧، ص ٤٤٣ - ٤٤٤) .

كبيرًا في صفوف رجاله، لأن بعض المحاربين مالوا إلى هذا المال يصيبون منه، وتركوا القتال، فأرسل مروان إلى ابنه عبد الله يأمره بقتل من أخذ من المال. فلما مال عبد الله عليهم قالوا : «الهزيمة الهزيمة» وولوا الأدبار فانهزم مروان، وانهزم جيشه وكان من غرق يومئذ أكثر ممن قتل ومما ساعد على الهزيمة أيضًا، أن أكبر القواد وهو (**يزيد بن عمر ابن هبيرة**) ومعه كتلة ضخمة من فزارة وربيعة. اختلف مع مروان بن محمد وكان لا ينفذ أوامره أثناء المعركة. وكان يطلق عليه شيخ العرب(١).

وانتصر العباسيون وهرب مروان إلى حران، وغنم العباسيون من المعركة مغانم كثيرة، ويذكر السيوطي : «وبهذه المعركة استرد الفرس مكانتهم كمحاربين [وبالغ بعضهم فقال بأنها رد على القادسية(٢)] ويذكر المسعودي في رواية له أن مروان بن محمد كان قد عزم على أن يلجأ إلى بلاد الروم لولا أن رده عن ذلك إسماعيل بن عبد الله القشيري(٣).

وتابعت القوات العباسية زحفها خلف فلول القوات الأموية وقد انسحب مروان متوجهًا من حران إلى حمص ودمشق ومر بالأردن وفلسطين ثم دخل مصر.

وعين أبو العباس عمه (**صالح بن علي**) قائدًا لملاحقة مروان بن محمد في مصر، فزحف إليها بقواته، ولحق بمروان في قرية بوصير من أعمال الفيوم، فقتله في ليلة الأحد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ١٣٢هـ وانتهت بذلك الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية.

وقد بقيت قوة لا يستهان بها مع (**يزيد بن عمر بن هبيرة**)(٤) الذي

---

(١) ابن الأثير، ج٤، ص ٣٢٧ - ٣٢٨.

(٢) تاريخ الخلفاء، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٣) مروج الذهب، ج٣، ص ٢٦٤.

(٤) (يزيد بن عمر بن هبيرة) من فزارة وفزارة من غطفان من قيس عيلان من مضر فهو عدناني، وقد حاربوا بغا في حوادث سنة ٢٣١هـ، ٢٣٢هـ أيام الواثق. وكان سخيًا جسيمًا طويلاً أكولاً شجاعًا =

لاذ بها بعد هزيمته إلى واسط ولم يقبل أن يمضي مع مروان بن محمد لأنه كان لا ينفذ أوامره أثناء المعركة فخشي على نفسه منه وتحصن بواسط وكان قوام قواته من **(القبائل العربية)** وكان معه **(معن بن زائدة الشيباني)**(١) في جماعة من ربيعة وقد وقع الخلاف بينهم. وكان أبو سلمة قد أرسل إليهم الجيوش فوقعت بينهما عدة وقائع ولم تستطع القوات أن تنال منه لمهارتهم، ولما طال أمرهم أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر على الجيش فاشتد القتال وظلوا هكذا أحد عشر شهراً.

ولما وصل خبر مقتل مروان إلى ابن هبيرة طلب الصلح وطلب الأمان بمن معه فأعطاه السفاح أماناً بإمضائه، وكان رأي أبي جعفر الوفاء له بما أعطاه، وكان السفاح لا يقطع أمراً دون أبي مسلم، فكتب أبو مسلم إلى السفاح يقول له : (إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد)، وأن لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة(٢)» وبعد أن خرج ابن هبيرة إلى أبي جعفر وجالسه وحادثه عدة أيام أمر بقتله وقتل معه عدة من رؤس قواده ما عدا **(معن بن زائدة الشيباني)** الذي تمكن من الفرار فيما بعد. وكان هذا الحادث واحداً من حوادث الغدر في الدولة العباسية، وتتابعت بعد ذلك أمثال هذه الحوادث حتى أصبحت أمراً مألوفاً في عهدهم.

ولا شك أن الغدر بابن هبيرة وتفريق جيشه على هذا النحو كان خسارة

= به حسد (ابن خلكان) ذو شخصية قوية طاغية على من معه، وكان والياً على العراق من قبل مروان بن محمد، وعرض على أبي حنيفة ولاية القضاء فأبى فضربه بالسياط، وكان الغرض من هذا العرض معرفة مقدار ولائه للدولة، فإن العلماء كانوا يمتنعون أن يتولوا عملاً لدولة لا يحبونها لألا يكون ذلك تأييداً لها [الخضري، تاريخ التشريع الإسلامي، ص ١٦٩].

(١) معن بن زائدة الشيباني : من بني شيبان وهم بطن من بكر بن وائل من ربيعة، وبنو شيبان أغلب زعماء الخوارج منهم.

(٢) الخضري، الدولة العباسية، ص ٢٩ وكان أبو جعفر يقول : لا يعزملك هذا فيه. وابن خلكان، ج٦، ص ٣١٦، والطبري، ج٧، ص ٤٥٤.

كبيرة في الجانب العربي بينما زادت قوات الجانب الفارسي مما سيكون له أكبر الأثر في إضعاف الجانب العربي.

موقف العباسيين من بقايا الأمويين:

استبشر الناس في أول أمرهم بالدولة العباسية وتطلعوا بأمل كبير إلى الدولة الجديدة التي وعدت أن تعيد الأمور إلى ما كانت عليه أيام الخلفاء الراشدين، وكان العباسيون قد ركزوا في دعوتهم على عدة شعارات لتقريب الناس إليهم، **كالمساواة** بين الشعوب وأنه لا فرق لعربي على غيره، **وكذلك الدعوة للرضا من آل البيت، وكذلك الدعوة إلى الإصلاح واتخاذ الكتاب والسنة أساسًا لحكم المسلمين.**

ولكن بمجرد أن تولى أبو العباس الأمر حدثت عملية انتقام رهيبة من بقايا الأمويين المسالمين على الرغم من أنه أعلن صفحه العام عنهم وأمنهم على حياتهم، فانخدع الأمويون وظهروا من مكامنهم. وكان الذي طلب هذا الأمان لهم هو (**سليمان بن علي**) عم السفاح[١]، فيروي ابن عبد ربه في العقد الفريد أن (**الغمر* بن يزيد بن عبد الملك**) قدم على أبي العباس السفاح في ثمانين رجلاً من بني أمية لاذنين به فجالسهم بعض الوقت وذكرهم بماضيهم، وكاد يعفو عنهم لولا ما قاله أحد الشعراء وهو (**سيف بن ميمون**) :

لا يغرنك ما ترى من رجال * إن تحت الضلوع داء دويًا
فضع السيف وارفع السوط حتى * لا ترى فوق ظهرها أمويًا[٢]

وكان لهذا الشعر وغيره تأثير قوي في إشعال نار العداء ضد بني أمية، وتذكير العباسيين بالماضي وإثارة العصبية فما كان من أبي العباس إلا

---

(١) ابن الأثير، ج٤، ص ٣٣٤.

* وقيل إنه سليمان بن هشام بن عبد الملك «ابن الأثير، ج٤، ص ٣٣٣».

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج٤، ص ٤٨٥ – ٤٨٧.

أن أمر بقتلهم[١] جميعًا وإلقائهم في صحراء الأنبار.

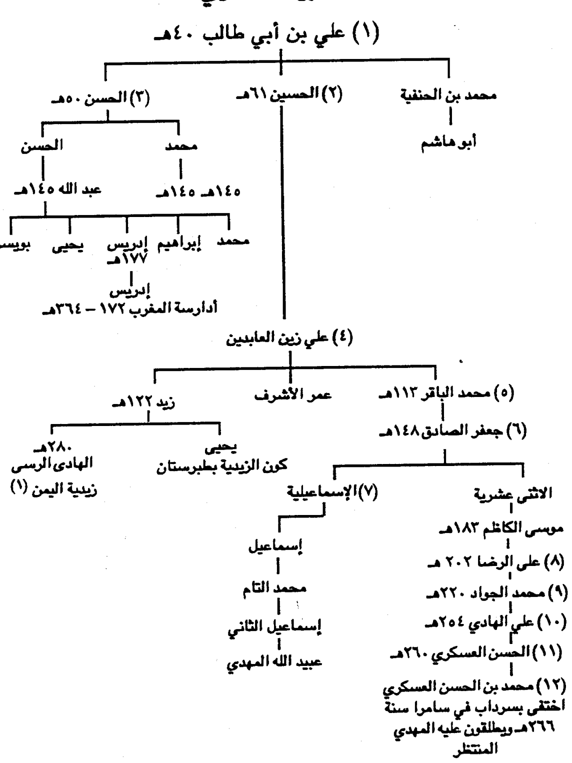
ويذكر ابن الأثير أن (**عبد الله بن علي**) عم السفاح أمر بنبش قبور بني أمية في دمشق وأحرق رفاتهم ومثل بهم، وبالغ العباسيون في التنكيل ببني أمية وعولوا على استئصال شأفتهم فتعقبهم أبو جعفر وأعمامه في البصرة والكوفة والشام ومصر، ولم يفلت من أبناء الأمويين أحد إلا من هرب إلى الأندلس واستولى العباسيون على أموالهم وأملاكهم، وكان العفو أقرب للتقوى ولهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة عندما عفا عن أهل مكة، وقال : أذهبوا فأنتم الطلقاء.

ومع هذه التصفية الشديدة للأمويين فقد بقي بعضهم يقوم بحركات تمرد، وأكثر حركات الأمويين على العباسيين كانت من قبل الأسرة السفيانية، التي تخلت عن السلطة منذ تولت الأسرة المروانية وانصرف أفرادها إلى الأعمال الخاصة، وكانت ضربات العباسيين عند تصفية الدولة الأموية موجهة إلى الأسرة المروانية التي كانت بيدها السلطة، وبقي السفيانيون فقاموا بحركات ضد العباسيين، وعرفت كل حركة لهم باسم السفيانية[٢]. وانتقل المروانيون الذين نجوا من العباسيين إلى الأندلس، كما سنذكر ذلك فيما بعد .

(١) ابن الأثير، ج٤، ص ٣٣٣.

(٢) محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، ج٦، الدولة العباسية، ص ١٠.

البيت العلوي



---

(١) ابن خلدون، العبر، ج٤، ص ١٤٢ وصل إلى اليمن سنة ٢٨٠هـ أول كبار أئمة الزيدية وهو الهادي يحيى حفيد القاسم الرسي الحسيني المتوفي ٢٤٦هـ وهو المشهور باسم الهادي إلى الحق، وقد وضع هذا الإمام أساس دولة شيعية زيدية لم يلبث أمر الثائرين الإسماعيليين أن تهاوى أمامه، وقام أمر الدولة الزيدية سنة ٣٠٢هـ. (حسين مؤنس - أطلس التاريخ الإسلامي) ص ٢٠٧.

موقف العباسيين من العلويين:

أما بالنسبة لموقف العباسيين من العلويين، فإنه لما ولي أبو العباس السفاح الخلافة قدم عليه شيخ العلويين يومئذ وهو **(عبد الله بن الحسن)** ابن الحسن بن علي بن أبي طالب فأكرمه، ثم قال له : أطلب ما تريد، فطلب منه ألف ألف درهم قائلاً : إني لم أرها قط فأعطاها إياه، ويقال إنه استقرضها من بعض الصيارفة لأنه لم يكن في بيت المال في هذا الوقت المبكر شيء ومنحه بعض الجواهر من متروكات بني أمية، فعاد من عنده ووزع هذه المنح على العلويين بالمدينة، ففرحوا بها وعظم سرورهم، غير أن عبد الله بن الحسن لم يكن راضيًا في قرارة نفسه عما حدث من العباسيين لاقتناصهم الحكم لأنفسهم دون العلويين.

فقال **(عبد الله بن الحسن)** لأهله : أفرحتم؟ قالوا وما لنا لا نفرح بما كان محجوبًا عنا بأيدي بني مروان حتى أتى الله بقرابتنا وبني عمنا فأصاروها إلينا، قال لهم : أفرضيتم أن تنالوا هذا من تحت أيد قوم آخرين؟

فكانت هذه كلمات معبرة تمامًا عما يحس به شيخ العلويين من ألم ولوعة بسبب ضياع الفرصة منهم إلى بني العباس. وقد نقل جواسيس أبي العباس هذا الكلام إليه فبدأت الجفوة تحدث بين الطرفين، وزادت الأمور شرًا .

وعندما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة بعد وفاة أخيه أبي العباس بعث أبو جعفر بعطاء أهل المدينة، وتفقد عامل العباسيين بالمدينة بني هاشم ومن تخلف منهم فوجد أنه لم يتخلف عن العطاء إلا محمد وإبراهيم إبني عبد الله ابن الحسن فسأل عنهما وكان ذلك في سنة ١٣٩هـ فأصدر أبو جعفر أوامره بالبحث عنهما، حتى عرف أنهما اختفيا بالمدينة واتصلا بأنصارهما في خراسان والعراق وبدأ العلويون بذلك يعدون للخروج على العباسيين ومن هنا بدأ أبو جعفر يتحفز للنيل منهم.

وقد حاول أبو جعفر من جانبه إصلاح العلاقات فبعث إلى عبد الله بن

الحسن برسائل صادرة منه ومن ابنيه إلى رجال من أنصارهم بخراسان يستدعيهم إليه، وكانت قد وقعت هذه الرسائل في يد المنصور، وأشفع هذه الرسائل برسالة منه إلى عبد الله قال فيها :

«إني أتيت برسولك والكتب التي معه فرددتها إليك بطوابعها كراهية أطلع منها على ما يغير لك قلبي، فلا تَدْعُ إلى التقاطع بعد التواصل، ولا إلى الفرقة بعد الاجتماع وأظهر لي ابنيك فإنهما سيصيران بحيث تحب من الولاية والقرابة وتعظيم الشرف».

فكتب إليه عبد الله يتنصل من هذه الكتب ويذكر له أنها من عدو أراد إيقاع الفرقة بينهما، ولكن أبا جعفر تأكد بما لا يدع مجالاً للشك بأنه متورط في ذلك فكتب إليه رسالة أخرى شديدة اللهجة يقول له فيها :

أريد حياته ويريد قتلي * عَذيرَكَ مِنْ خليلك من مُراد(١)

وطلب منه أن يتدارك الأمور قبل فواتها وتفاقمها، فلم يتراجع عبد الله فدس إليه أبو جعفر من عَرَف كثيراً من أخباره، وكادت الحرب تقع في المدينة لولا أن تداركها أبو جعفر بحيلته، وحاول تفريق الناس عن العلويين بمنحهم كثيراً من العطاء، فسكنت عواطف من يقفون مع آل البيت ولم يتحرك أحد منهم، ومن هنا بدأت العلاقات بين الطرفين تنتقل من سيئ إلى أسوأ(٢)، حيث قبض على إثني عشر رجلاً من آل البيت وأمر بحبسهم.

ولما انصرف أبو جعفر إلى العراق خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة وأخذ البيعة لنفسه وأعلن صراحة عداءه للمنصور وبايعه أهل مكة وذلك في سنة ١٤٥هـ(٣).

فكتب إليه أبو جعفر كتابًا هامًا نورد نصه فيما يلي :

«من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله إنما جزاء الذين

(١) هذا البيت من قصيدة لعمرو بن معد يكرب، انظر العقد الفريد، ج١، ص ١٢٠ - ١٢١.

(٢) المصدر السابق، ج٥، ص ٧٤ - ٨٠.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص ٣٠٦.

يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يُصلبوا أو تُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم» ولك عليَّ عهد الله وميثاقه وذمة الله وذمة نبيه، إن أنتما أتيتما وتبتما ورجعتما من قبل أن أقدر عليكما وأن يقع بيني وبينكما سفك الدماء، أن أؤمنكما وجميع ولدكما ومن شايعكما وتابعكما على دمائكم وأموالكم، وأوسعكم ما أصبتم من دم أو مال، وأعطيكما ألف ألف درهم لكل واحد منكما، وما سألتما من الحوائج وأبوئكما من البلاد حيث شئتما، وأطلق من الحبس جميع ولد أبيكما ثم لا أتعقب واحداً منكما بذنب سلف منه أبداً. فلا تشمِّت بك وبنا عدونا من قريش، فإن أحببت أن تتوثق من نفسك بما عرضت عليك، فوجِّه إليّ من أحببت ليأخذ لك من الأمان والعهود والمواثيق ما تأمن وتطمئن إليه إن شاء الله والسلام»[١].

فرد عليه (**محمد بن عبد الله**) برسالة لقب نفسه فيها بأمير المؤمنين وعرض على أبو جعفر الأمان كأنه خارج عليه مثل ما عرض وقال : «فإن الحق معنا وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا وخرجتم إليه بشيعتنا وحظيتم بفضلنا» وأورد فيه كثيراً من الأدلة على حقه في ميراث هذا الأمر دون بني العباس إلى أن خلص في قوله : «وأنا أولى بالأمر منك وأوفى بالعهد، لأنك لا تعط من العهد أكثر مما أعطيت رجالاً قبلي. فأي الأمانات تعطيني أمان ابن هبيرة، أو أمان عمك عبد الله بن علي، أو أمان أبي مسلم؟ والسلام»[٢].

فرد عليه المنصور بكتاب فند فيه ما قال من أحقيته بالأمر دونه، ولم تتطور الأمور بسرعة إلا عندما قبض المنصور على والده عبد الله وكثيراً من العلويين، وأرسل محمد أخاه إبراهيم إلى البصرة فاجتمع الناس إليه وسار إلى دار الإمارة، فسلم إليه (**سفيان بن محمد بن المهلب**) والي

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه، ج٥، ص ٧٩.

(٢) المصدر السابق، ج٥، ص ٧٩ – ٨١.

العباسيين (**البصرة**) من غير قتال وبدأ يتوسع شرقًا في الأهواز وشمالاً في واسط.

وكان محمد بن عبد الله كما وصفه المؤرخون[1] «من سادات بني هاشم ورجالهم فضلاً وشرفًا وعلمًا» وكان متحليًا بالصفات الحميدة والخصال الكريمة فذاع صيته وعظم احترام الناس له، وكان زاهدًا وناسكًا لذلك سمي بالنفس الزكية، ولم يكن يميل إلى سفك الدماء والظلم وإنما اشتهر بحبه للعفو[2].

وتجمع أهل المدينة حوله بعد إفتاء (**الإمام مالك ت١٧٩**) لهم ببطلان بيعة المنصور لأن الناس بايعوا مكرهين وليس على مستكره بيعة وبدأ يحدث الناس بحديث «ليس على مستكره طلاق» واتخاذ الناس من هذا الحديث حجة لبطلان بيعة المنصور.

ولقد تعرض الإمام مالك للأذى بسبب هذا الموقف، ونهاه المنصور أن يحدث بهذا الحديث، ودس إليه من يسأل عنه فحدث به على رؤس الناس، فقبض عليه والي المدينة في سنة [١٤٦]هـ ذكر ابن الجوزي في «شذرات العقود» في سنة ١٤٧هـ : وفيها ضُرب مالك بن أنس سبعين سوطًا لأجل فتوى لم توافق غرض السلطان. [ابن خلكان وفيات، ج٤، ص ١٣٧] وهو (جعفر بن سليمان)* وضربه بالسياط وانخلع كتفه[3] فلم يزل بعد ذلك الضرب في علو ورفعة، وكأنما كانت تلك السياط حُليًا تحلّى بها [ج٤، ص ١٣٧] ابن خلكان.

وعلى الرغم من أن المنصور تبرأ من هذا العمل وألقى تبعته على والي المدينة، فإن هذا الحادث جعل لمالك بن أنس ومذهبه المالكي مكانة مرموقة

(١) ابن طبا طبا، الفخري، ص ١٦٥ - ١٦٦.

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، ج٢، ص ١٢٨.

(٣) محمود أبو زهرة، مالك، ص ٥٦ - ٦١ وانظر مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، ج٢، ص ٦١٠.

* هو جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس بن عم المنصور.

في بلاد المغرب والأندلس التي تقف في صف المعارضة للعباسيين، فعندما سمع عبد الرحمن الداخل عن مواقف مالك ضد العباسيين أمر بتعميمي مذهبه في شتى بقاع الأندلس وتعيين القضاة من علماء هذا المذهب.

كذلك يروى أن إدريس بن عبد الله أخو محمد النفس الزكية الذي فر من المنصور إلى المغرب الأقصى وأسس هناك دولة الأدارسة (١٧٢ - ٣٦٤هـ) علق على حادثة الإمام مالك بقوله : «نحن أحق باتباع مذهبه وقراءة كتابه الموطأ، وأمر بذلك في جميع عمالته[1].

وأعد المنصور جيشًا [في سنة ١٤٥هـ] بقيادة ابن أخيه (**عيسى بن موسى**) ووجهه إلى المدينة، وأوصاه : «إن ظفرت بمحمد فأغمد سيفك وابذل الأمان، ومن لقيك من آل أبي طالب فاكتب إليّ اسمه ومن لم يلقك فاقبض ماله» وكان (**جعفر الصادق**) تغيب عنه فقبض ماله[2].

أما محمد فإنه اختار البقاء بالمدينة والحرب بها، وكان معه جماعة من بني سليم وعليهم رئيسهم (**جابر بن أنس**) وكان من رأيه الخروج من المدينة وأعاد محمد خندق رسول الله عليه الصلاة والسلام وبدأ الحفر بنفسه وحفر الناس معه، وكان قد جمع الناس وأخذ عليهم الميثاق وحصرهم لا يخرجون من المدينة، وترمز الناس من هذا الحجز، فخيرهم في الخروج أو الإقامة فخرج كثير منهم بأهاليهم إلى الجبال وبقي محمد في شرذمة يسيرة من أنصاره .

وأرسل (**عيسى بن موسى**) إلى محمد يخبره أن المنصور قد أمنه وأهله، فرد عليه محمد : «إني والله ما أنا منصرف عن هذا الأمر حتى ألقى الله عليه» فقال عيسى ليس بيننا وبينه إلا القتال واحتجوا عليه بأن جده علي بن أبي طالب قاتل من خرجوا عليه ونكثوا بيعته، وهكذا غدت أول معركة بين المسلمين قدوة يحتج بها من يجرد سلاحه ضد المعارضين له.

---

(١) انظر : علي عبد الواحد وافي، المجتمع العربي، ص ٧١ - ٧٤، وأحمد مختار العبادي في التاريخ العباسي والأندلس، ص ٥٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ٨.

وزحف عيسى بن موسى برجاله على الخندق وأقاموا عليه الأبواب للتعدية، وزحزحوا عنه أصحاب محمد وعبروا عليها فجازوا الخندق وقاتلوا من ورائه، وكان قد تفرق الناس عن محمد ولم يعد معه سوى ٣٠٠ رجل يزيدون قليلاً، فقال لأصحابه نحن الآن بعدد أهل بدر فقاتل محمد بهم حتى قتل وأخذوا رأسه وأرسلت إلى المنصور* بالكوفة، وكان قتله في الرابع عشر من رمضان سنة ١٤٥هـ(١).

وغضب المنصور على أهل المدينة فقطع عنها الميرة التي تأتي إليها عن طريق البحر(٢) من ميناء ينبع فاضمحل شأنها أكثر مما كانت عليه من قبل أيام الأمويين وهكذا كانت هذه الضربة لأهل المدينة ثاني ضربة ألمت بأهلها بصفة خاصة وبأهل الحجاز بصفة عامة، بعد (معركة الحرة) في العصر الأموي، وكان لها تأثير قوي في الحد من طموح أهل الحجاز، والقضاء على آمالهم ولم يعد لهم من الأمر شيء بعد أن كانوا هم أهل الحل والعقد في الدولة الإسلامية ولا يقضى الأمر دونهم. ولذلك سيفكر العلويون في اختيار أماكن أخرى لمساعدتهم مثلما فعل العباسيون من قبل.

موقف إبراهيم بن عبد الله بالبصرة :

بعد مقتل محمد بن عبد الله ظهر أخوه إبراهيم (**بالبصرة**) وكان المنصور يبحث عنه وطلبه أشد الطلب وكثر جمعه فاستولى على واسط والأهواز وقبض على والي البصرة وسجنه ووجد في بيت مالهما ألف ألف* درهم قوي بها، وكان يهزم القوات التي يرسلها المنصور إليه، فلم يزل (**بالبصرة**) حتى أتاه نعي أخيه محمد فتأثر بذلك موقفه العسكري.

---

(١) ابن الأثير، ج٥، ص ١١ . (٢) المصدر السابق نفس المكان .

* أول رأس مسلم حمل في الإسلام من بلد إلى بلد هي رأس (عمرو بن الجموح) من بني كعب له صحبة، كان ممن أجلب على عثمان رضي الله عنه وكان في شيعة علي، وقتل أيام معاوية [جمهرة أنساب العرب لابن حزم، ص ٢٣٨] .

* مليون من الدراهم (ألف ألف درهم) .

وكان موقف المنصور أشد سوءًا من موقف إبراهيم، وكان المنصور قد وزع جيشه، فكان مع ابنه المهدي بالري ثلاثون ألفًا، ومع محمد بن الأشعث بإفريقيا أربعون ألفًا، والباقون مع عيسى بن موسى بالحجاز، وقال المنصور والله ما أدري كيف أصنع وما في عسكري إلا القليل من الرجال، والله لئن سلمت من هذه لا يفارق عسكري ثلاثون ألفًا، وكتب إلى عيسى بن موسى يأمره بالعودة مسرعًا، فأتاه الكتاب وقد أحرم بعمرة فتركها وعاد(١). وكتب إلى ابنه المهدي يأمره بإنفاذ بعض القوات إليه، وكان المنصور يخشى من أهل **(الكوفة)** أن يخرجوا عليه وفيهم مائة ألف يتربصون به، وأرسل بعضهم إلى إبراهيم يطلبون منه المسير إليهم ليقفوا معه غير أنه رفض ولكنه غير رأيه بعد ذلك.

وأرسل المنصور إلى **(إبراهيم)** عيسى بن موسى في خمسة عشر ألف جمعهم بعد لأي وتقابل بهم مع قوات إبراهيم و قد خرجت في طريقها إلى الكوفة بعد أن مال في نهاية الأمر أن يتوجه إلى الكوفة عند مكان يسمى **(بَاخَمْرا)**(٢) وهو من الكوفة على سبعة عشر فرسخًا*.

فتقاتل الفريقان وهزم إبراهيم وقتل في ٢٥ ذي القعدة من نفس السنة التي توفي فيها أخوه محمد، وعلى أثر هذا الانتصار قويت قبضة العباسيين على أهل الحجاز وتفرق أهل البيت في كثير من البلدان الإسلامية(٣).

ولعل سبب فشل ثورة محمد وأخيه إبراهيم ترجع إلى قوة شخصية أبي جعفر المنصور وقدرته على المناورة، واختيار قواده بدقة، وفعالية هؤلاء القواد وكثرة آلاتهم الحربية كما ترجع أيضًا إلى أن محمد بن عبد الله ظن

---

(١) ابن الأثير، ج٥، ص ١٧.

(٢) بَاخَمْرا : موضع بين الكوفة وواسط وهو إلى الكوفة أقرب على سبعة عشر فرسخًا منها، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص ٣١٦.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص ٣٠٨.

* الفرسخ يساوي ٥ كم ويساوي ٣ أميال.

خيرًا بكثرة أتباعه وكثرة قواته وعندما جد الجد تفرقوا عنه، وكان أبو جعفر هو الذي يوهمه بذلك عن طريق جواسيسه.

كما أخطأ محمد في اتخاذ المدينة مركزًا حربيًا له وذلك لفقرها، وعدم تنظيم قواته لجهله بفنون الحرب هو وأخوه، بالإضافة إلى أن المنصور استطاع أن يوقع بهما الواحد بعد الآخر وكان باستطاعتهما الخروج في وقت واحد ليرهقا الجيوش العباسية وتجميع قواتهما في صعيد واحد فتقوى بذلك جبهتهما، ولكنهما بتفريقهما في الخروج أهديا المنصور فرصة طيبة للانفراد بكل واحد منهما بعد الآخر.

ويلاحظ أنهما اعتماد على عواطف الناس غير المحاربين وهذا لا يُجدي في ميدان الصراع ولا يُغني فتيلاً في المعارك الفاصلة فأصحاب العواطف المجردين من السلاح عندما يجد الجَدُّ يتفرقون خوفًا على مصيرهم وترتعد فرائضهم فرقا من المعارك، وربما كانت هذه الملاحظة تشمل غالبية الحركات العلوية التي لم تعمل حسابًا للقوة القاهرة التي تحسم الخلافات السياسية بفضل القوى العسكرية.

وعندما أعد العلويون لهذا الأمر عدته نجح بعضهم في تكوين دويلات مثل الأدارسة في المغرب والزيدية في طبرستان واليمن والفاطميين في المغرب ومصر، فإن كلا منهم تحالف مع قوات عسكرية تتكفل بنصرته عندما يجد الجد في ساحات المعارك العسكرية الحاسمة للنزاع بين الطرفين.

موقف العباسيين ممن ساهموا في قيام الدولة :

كانت مواقف العباسيين وعلى الأخص السفاح والمنصور ممن ساهموا في قيام الدولة العباسية مواقف سيئة للغاية وذلك كموقفهم من أبي سلمة الخلال(١) وسليمان بن كثير، وأبي مسلم الخرساني ويختلف المؤرخون حول

---

(١) قيل في نسبته (الخلال) أنه نسب إلى الخلّ، وقال ثعلب عن ابن الأعرابي : إنه نسب إلى خِلَلِ السيوف وهي الجفون وذكر أن العرب تسمي من يعملها الخَلاَّل [الجهشْياري، الوزراء والكتاب، ص٨٣ - ٨٤].

الدوافع التي أملت عليهم أن يتخلصوا من هؤلاء القادة، فيسجلون أسباباً مباشرة للتخلص منهم وهي في نظرنا كلها أسباب واهية وعوامل مساعدة.

فقد نسبوا إلى أبي سلمة الخلال أنه كان يريد تحويل الخلافة عنهم إلى آل علي بن أبي طالب كما سبق أن أشرنا، ولقد تغير أبو العباس وساورته الشكوك في أبي سلمة ولكنه ترك أبا سلمة يشرف على كل الأمور في المعسكر كما سلف، وإن كان قد تحول عن عسكره في (**حمام أعين**) إلى المدينة الهاشمية فنزل بها، وهي متنكر لأبي سلمة وكتب إلى أبي مسلم يعلمه رأيه فيه وما أشيع عنه من الخيانة فكتب إليه أبو مسلم بقوله : إن كان أمير المؤمنين اطلع على ذلك منه فليقتله.

فقال (**داود بن علي**) للسفاح : لا تفعل يا أمير المؤمنين فيحتج بها أبو مسلم عليك وأهل خراسان الذين معك أصحابه وحاله فيهم حاله، ولكن أكتب إلى أبي مسلم فليبعث إليه من يقتله، فكتب إليه، فبعث أبو مسلم (**مروان بن أنس الضبي**) لقتله فقتله غيلة بعد أن أمنه الخليفة وجالسه، وأشاعوا أن الخوارج قتلوه[1].

واتهم (**سليمان بن كثير**) بنفس التهمة التي اتهم بها أبو سلمة وكلف السفاح أبا مسلم بقتله أيضاً وقيل لم يكلفه، فأحضر أبو مسلم سليمان بن كثير وقال له : أتحفظ قول الإمام (**إبراهيم**) لي من اتهمته فاقتله؟ قال نعم قال : فإني قد اتهمتك، قال : أنشدك الله، قال : لا تناشدني الله فأنت منطو على غش الإمام، وأمر بضرب عنقه[2].

وهكذ قتل هذان الرجلان بعد استقرار الأمر بمجرد تهمة لم تظهر للناس صحتها، ولو ظهرت لقتلا علناً، ولم يكن العباسيون في حاجة إلى القتل غيلة وسراً، لأن الخيانة العظمى إذا ثبتت عليهما فيكون قتلهما علناً زجراً لغيرهما وتأميناً للدولة من الخائنين. والإسلام دين العلانية في سلمه وحربه،

---

(١) ابن الأثير، ج٤، ص ٣٣٦.

(٢) ابن الأثير، ج٤، ص ٣٣٦، والطبري ج٧، ص ٤٥٠.

في تعامل المسلمين مع بعضهم ومع أعدائهم.

قال تعالى :

﴿وإما نخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾.

أي يجب ألا يغدر بهم كما يريدون هم أن يغدروا به، بل عليه أن يعلن لهم أن التفاهم معهم قد انتهى فليأخذوا حِذْرهم كما يأخذ هو حِذْره.

وجاء الدور على (**أبي مسلم الخرساني**) سيف الدولة العباسية الذي أوكل إليه السفاح بالتخلص من الرجلين السابقين.

ولقد اختلف السفاح مع المنصور بشأن التخلص من أبي مسلم في البداية خوفًا من نفوذه في خراسان [لا وفاءً له على خدمة الدولة] وظل السفاح خائفًا من ذلك حتى توفي وترك مهمة التخلص من أبي مسلم لأخيه وخليفته أبي جعفر المنصور، وكان أبو جعفر يأخذ على أبي مسلم سلطانه النافذ وطغيانه، ويأخذ عليه أنه كان لا يحترمه، فقد حج معه سنة ١٣٦هـ والمنصور أمير الحج، وكان أبو مسلم يظهر من قوته وكرمه في الطريق ما يزيد في حرج أبي جعفر، وأبدى أبو مسلم اشمئزازه لأن السفاح عين أخاه أميرًا على الموسم في نفس العام الذي يحج فيه أبو مسلم فقال لبعض خاصته : «أما وجد أبو جعفر عامًا يحج فيه غير هذا» فكان واضحًا من هذا أنه لا يريد أحدًا يظهر عليه في الموسم.

وكان يكتب إلى أبي جعفر قبل خلافته ويبدأ بنفسه، وذات مرة دخل أبو مسلم على السفاح وكان عنده أبو جعفر فأدى أبو مسلم التحية للسفاح وأهمل أبا جعفر فلفت نظره السفاح ومع ذلك لم يحيي المنصور قائلاً: هذا مقام يؤدى فيه واجبك وحدك يا أمير المؤمنين !! وكان أبو مسلم قد استخف بأبي جعفر عندما قدم عليه وهو بنيسابور، فلما رجع أبو جعفر إلى أبي العباس أخبره بما كان من استخفافه به[1].

---

(١) الطبري، ج٧، ص٤٦٨.

وقال له : يا أمير المؤمنين أطعني وأقتل أبا مسلم، فوالله أن في رأسه لغدرة، فقال : يا أخي قد عرفت بلاءه وما كان منه، عزمت عليك إلا كففت عن هذا، قال له أبو جعفر : أخاف والله إن لم تتغدّه اليوم يتعشاك غداً(١).

فكانت تلك المواقف لها تأثيرها السيئ في نفسية المنصور، فعزم على التخلص منه غير أنه أجل هذا إلى حين التخلص من عمه عبد الله بن علي بسيف أبي مسلم.

وكان (**عبد الله بن علي**) قد رفض بيعة المنصور عندما دعاه إليها عيسى ابن موسى، ودعا إلى نفسه من كان معه من الجنود من أهل الشام وغيرهم فبايعوه، وزعم أن السفاح جعل الخلافة من بعده لمن انتدب لقتال مروان بن محمد وتصفية جيشه بالشام، فلما بلغ المنصور ذلك كتب إليه يقول :

سأجعل نفسي منك حيث جعلتها * وللدهـر أيـام لهـن عواقـب

وأرسل إليه أبا مسلم لحربه فسار إلى حران، وكان عبد الله قد جمع حوله جند أهل الشام من العرب وأهل الجزيرة وبعضهم من أهل خراسان، فخاف من أهل خراسان أن ينحازوا إلى أبي مسلم فيقال إنه قتلهم وكانت عدتهم سبعة عشر ألفًا، وربما كان هذا العدد مبالغًا فيه «ولكنه على كل حال قتل منهم عدداً كبيراً فضعضع من قوته وجلل نفسه من العار ما لا يمحوه الزمان باعتدائه الفظيع على جزء عظيم من جنده لم يظهر لهم جرم»(٢).

ودارت الحرب بين الفريقين عند (**نصيبين**) واستمرت ستة أشهر بينهما سجال وكانت القوة الراجحة في أهل الشام ثم دارت الدائرة على جيش عبد الله في النهاية بفضل مهارة أبي مسلم ودهائه الحربي وتمرسه في الحروب، وعند ذلك فر عبد الله في نفر من خواصه إلى البصرة ملتجأ إلى أخيه (**سليمان بن علي**)(٣) عم المنصور، وكان هذا فعل لا يليق بشرف بني

(١) نفس المكان، الطبري. (٢) الخضري، الدولة العباسية، ص ٥٤ - ٥٥.
(٣) وكان سليمان بن علي واليًا على البصرة.

هاشم وعلو اسمهم في ميادين القتال، فإنهم كانوا يرون الفرار عاراً لا تحتمله أنفسهم الأبية فإما ظفر أو قتل، ومع أن أحد قواده نهاه عن الفرار وقال له : أرى أن تصبر وتقاتل حتى تموت فإن الفرار قبيح بمثلك، وذكره بأنه عابه على مروان بن محمد فقال [قبح الله مروان جزع من الموت ففر] فلم يعبأ بهذا التذكير وفر إلى العراق تاركًا معسكره لأبي مسلم فأمن الناس ولم يقتل أحدًا غير أن هزيمة جيش الشام على هذا النحو كانت خسارة لم يتجمع بعدها أبدًا، وهذه الخسارة في الجانب العربي لم تعوض بعد ذلك ولم يصف الجو بين العرب والعباسيين، وزادت كفة الجانب الفارسي.

أما عبد الله فإنه ظل عند أخيه سليمان فترة إلى أن أخذ له أمانًا من أبي جعفر كتبه بطريقة محكمة (**عبد الله بن المقفع**)(١) كاتب سليمان فلما قرأه المنصور سأل عن كاتبه فقالوا له : ابن المقفع فأسرها له في نفسه وقال أنا موافق على هذا الأمان إذا وقع نظري على عبد الله فأتى سليمان ومعه أخوه عبد الله إلى المنصور فمنع الحرس عبد الله ودخل سليمان، واقتادوا عبد الله إلى السجن، وبهذه الحيلة تحلل المنصور من الأمان ولم ينفذه لأنه لم تقع عينه فعلاً على عبد الله كما اشترط وظل عبد الله في السجن إلى أن مات فيه سنة ١٤٧هـ.

وجاء الدور على (**أبي مسلم الخرساني**) الذي أوكل إليه السفاح والمنصور القضاء على الرجال السابقين ودارت عليه الدائرة، ومن ظلم الناس لغيره سلطهم الله عليه في النهاية، والجزاء من جنس العمل ولا يظلم ربك أحدًا، كما سلف أن ذكرنا.

وحدثت حادثة أوقعت الريبة في قلب أبي مسلم ذلك أنه بعد انتصار أبي مسلم على عبد الله بن علي أرسل المنصور من قبله رسولاً لإحصاء الغنائم، فكاد أبو مسلم يقتله وقال : «أوتمن على الدماء ولا أوتمن على الأموال» فعاد الرسول وأخبر المنصور بذلك.

(١) كتب ابن المقفع الأمان وشدد فيه ومن بين ما قال : «ومتى غَدَرَ أمير المؤمنين بعمه عبد الله بن علي فنساؤه طوالق، ودوابه حُبُس، وعبيده أحرار، والمسلمون في حل من بيعته» [ابن خلكان، ج٢، ص١٥].

وسار أبو مسلم عن طريق الجزيرة يريد خراسان متجنبًا العراق، فسار المنصور من الأنبار إلى المدائن لمحاصرته وأرسل إليه يقول : «إني قد وليتك مصر والشام فهي خير لك من خراسان فوجّه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام حتى تكون بقرب أمير المؤمنين فإن أحب لقاءك أتيت من قريب» فلما قرأ أبو مسلم هذا الكتاب قال غاضبًا : هو يوليني الشام ومصر، وخراسان لي، وصمم على المضي إلى خراسان وكتب إلى المنصور يقول :

«إنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو إلا مكنه الله منه وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان : إن أخوف ما يكون الوزراء، إذا سكنت الدهماء، فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء لك بعهدك ما وفيت، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة فإن أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيدك، فإن أبيت إلا أن تعط نفسك إرادتها، نقضتُ ما أبرمتُ من عهدك ضنًا بنفسي»[1].

وكتب المنصور إلى خليفة أبي مسلم على جند خراسان يعطيه إمارتها ما عاش ولا شيء أكبر من ذلك يقطع صلته بأبي مسلم فكتب إليه حين بلغته الأخبار بقرب مجيئه إلى خراسان : «إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه» وبذلك يكون أبو جعفر قد حاصره أشد حصار فلم يعد أمامه سوى المثول أمامه وليكن ما يكون.

وكان المنصور مصممًا على قتل أبي مسلم ولكن اجتهد أن يكون الرجل آمنًا، لا يحس بشيء من الجفاء، فلما قارب أبو مسلم المدائن أمر المنصور الناس وبني هاشم باستقباله، فلما دخل على المنصور رحب به وعانقه فأمره بأن ينصرف ويزيل وعثاء السفر ويستريح هذه الليلة، وانتظر فيه الفرص والغوائل.

فلما جاء الغد أمر عثمان بن نهيك رئيس الشرطة فجاء بأربعة رجال من

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ١١١.

الحرس وأمرهم أن يكونوا خلف الرواق فإذا هو صفق خرجوا فقتلوا أبا مسلم، ثم دعاه فدخل عليه فأقبل يحدثه، ومن تمام تدبير المنصور أنه سأله عن سيفين أخذهما من متاع عبد الله بن علي، فقال أبو مسلم هذا أحدهما وكان معه فقال له المنصور أرنيه فناوله إياه فهزه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه، وإنما فعل ذلك ليأمن على نفسه أن يفتك به أبو مسلم إذا أحس بالشر ثم صار يسأله عن أشياء أخذها عليه، وأخيراً سأله عن سبب قصده خراسان مراغماً، فقال أبو مسلم معتزاً بنفسه : دع هذا فما أصبحت أخاف أحداً إلا الله، فصفق حينئذ المنصور بيديه فخرج أولئك الحرس الأربعة فاعتوروه بسيوفهم حتى ذهبت روحه، أما جنده فإن المنصور فرق عليهم جوائز مالية ألهتهم عن التفكير في شيء، ثم أرسل إلى قواده جوائز أكثر حتى رضوا(١).

وعلى الرغم من حذر أبي مسلم إلا أنه لا يغني حذر عن قدر وتم اغتياله على يد المنصور في قصره، **وبذلك نرى أن هؤلاء الرجال الذين خدموا الدولة كان دافع العباسيين الأساسي للتخلص منهم هو الخوف من سطوتهم وهو عامل سياسي لا تمليه الأخلاق ولا الوفاء بالعهد وإنما تمليه المصالح السياسية التي تقول للحاكم : «من زرعك هو الوحيد القادر على خلعك فاخلعه قبل أن يفعل ذلك».**

ويلاحظ أن أبا مسلم أخذ بنفس القاعدة التي كان يقتل بها الناس وهي الريبة في الإخلاص، ولذلك لا يكون قتله محلاً للاستغراب. ومما قاله المنصور في أبي مسلم بعد قتله :

زَعَمْتَ أن الدين لا ينقضـي * فاستوف بالكيل أبا مجـرم
سُقِيتَ كأساً كنت تسقي بها * أمرَّ في الحلق من العلقـم

(١) الحضري، الدولة العباسية، ص ٥٨ – ٥٩.

غير أن عملية التخلص من هؤلاء القادة أحدثت ذعرًا في البلاط العباسي ويرى بعض المؤرخين أن مقتل أبي مسلم كان من العوامل التي عملت على بذر بذور التفرقة وإذكاء العنصرية بين العرب والفرس طوال العصر العباسي الأول[1] وأحدثت قدوة سيئة في نكث العهود واغتيال كل من تخش صولته حتى أنه لم يسلم من ذلك بعض أفراد البيت العباسي وأجلهم خدمة في قيام الدولة وهو (**عبد الله بن علي**).

وهكذا أكلت الثورة رجالها كما يقولون كما هي طبيعة الثورات وصفا الجو لأبي جعفر، وعلى الرغم من هذه الدماء التي أريقت في بداية عصر الدولة إلا أن خلفاءها الأوائل كانوا على جانب كبير من الكفاءة والمقدرة السياسية، ولهذا بنوا الدولة، وعلى الأخص (**أبو جعفر المنصور**) فإننا لا نستطيع أن نبخسه حقه ونتأخر عن الاعتراف بأنه كان حاسمًا كثير الدهاء بعيد الغور، وكان من نوابغ الرجال الذين أسسوا الدول بقوة وعزيمة وسياسة، ويشهد له خصومه بهذه المقدرة، فيقول عنه يزيد بن عمر بن هبيرة :

«ما رأيت رجلاً في حرب أو سلم أمكر ولا أشد تيقظًا من المنصور، لقد حاصرني تسعة شهور، ومعي فرسان العرب فجهدنا كل الجهد لننال من عسكره شيئًا فما قدرنا لشدة ضبطه لعسكره وكثرة يقظته، ولقد حصرني وما في رأسي شعرة بيضاء ، ثم انقضى ذلك وما في رأسي شعرة سوداء»[2].

ومن عظيم دهاء المنصور وحسن تخلصه من المواقف الحرجة ما حاور به ابن هبيرة في رواية ابن خلكان، أنه لما طال حصار أبي جعفر لابن هبيرة قال أبو جعفر : ابن هبيرة يخندق على نفسه مثل النساء، فبلغ ابن هبيرة ذلك فأرسل إليه : أنت القائل كذا؟ إبرز إليّ لترى وطلب مبارزته، فما كان من المنصور إلا أن أرسل إليه متخلصًا من هذا الطلب : «ما أجد لك ولي مثلا

---

(١) سهيل زكار، تاريخ العرب والإسلام، ص ٢٤٥.

(٢) ابن طبا طبا، الفخري، ص ١٣٦ - ١٣٧.

إلا كأسد لقى خنزيراً فقال له الخنزير : بارزني، فقال الأسد ما أنت لي بكفؤ فإن بارزتك فنالني منك سوء كان عاراً، وإن قتلتك قتلت خنزيراً فلم أحصل على حمد، ولا في قتلك فخر، فقال الخنزير : لئن لم تبارزني لأعرفن السباع أنك جبنت عني، فقال الأسد : احتمال عار كذبك أيسر من تلطيخ براثني بدمك(١).

وهذه المحاورة تدل على الحيلة والدهاء من جانب المنصور في التخلص من المواقف الشديدة والحرجة، وتمت عملية التخلص من ابن هبيرة في النهاية بالغدر كما سلف أن ذكرنا، غير أن التخلص منه بالغدر فرق جنده ولم يطمئنوا إلى العباسيين وكلهم من فرسان العرب، فكانت خسارة لا تعوض في الجانب العربي تضاف إلى خسارة جيش الشام ربح على حسابها الموالي في الدولة العباسية.

عاصمة الدولة العباسية :

كانت عاصمة الدولة الإسلامية أيام الرسول عليه الصلاة والسلام هي (**المدينة المنورة**)، واستمرت في عصر الخلفاء الراشدين، وعندما بدأت الفتنة الكبرى وبدأ علي بن أبي طالب يحارب الخارجين عليه نزل (**الكوفة**)، وجعل فيها مركزاً حربياً له إلى أن توفي بها سنة ٤٠هـ.

وكانت (**الكوفة**) و(**البصرة**) منذ إنشائهما عبارة عن معسكرين كبيرين للقوات الإسلامية تنزل بهما القبائل العربية قريباً من البادية وأماكن الاستنفار للحرب، وقريباً من المرعى لإبلهم وماشيتهم في البادية التي تتفق مع طبيعة العرب الأصلية والتي لا تحدها حواجز طبيعية مثل البحار والأنهار فيسهل فيها ومنها الكر والفر.

وعندما تولى معاوية سنة ٤١هـ كان قد وطد نفوذه بالشام فاتخذ من (دمشق) عاصمة للخلافة الأموية، وكان لهذا تأثيره في (**المدينة المنورة**)

(١) وفيات الأعيان، ج٦، ص٣١٨.

عاصمة الإسلام الأولى، فقد تضاءلت أهميتها في العصر الأموي، كما كان له تأثيره في ضياع زعامة الحجاز وخروج عاصمة الدولة منه.

ولما تولى العباسيون الخلافة سنة ١٣٢هـ نظروا مليًا في شأن عاصمة دولتهم، وكانت عملية إنشاء عاصمة جديدة للدولة العباسية من المشاكل التي عاشتها الدولة من عام ١٣٢ حتى ١٤٥هـ ووضعها السفاح والمنصور على بساط الحديث.

والعاصمة سميت بذلك لأنها تعصم الحاكم والدولة وقت الحروب والأزمات، ولهذا تحرص الدول على اختيار أمنع الأماكن وأقواها وأوسطها للمنافع والمرافق لكي تكون عاصمة لها.

والعباسيون نزلوا **(بالكوفة)** بادئ ذي بدء عندما تمت لهم الغلبة على الأمويين وأخذوا البيعة من الناس بمسجد الكوفة، ولكنهم لم يطمئنوا إليها على أيام أبي العباس السفاح لطبيعتها المتقلبة وتشيعها وكثرة الطامعين بها وعلى الأخص من شيعة العلويين وغيرهم من أهل الأهواء الذين لا يستقر لهم قرار وطبيعتها القبلية فكل قبيلة لها حي[1] بها فهي مجمع الأخلاط من الناس ولذلك أسرع العباسيون بالانتقال منها مؤقتًا إلى **(الحيرة)** على مقربة مها من الجنوب[2].

ونزل أبو العباس في بداية حكمه في ضاحية من ضواحي الكوفة تسمى

---

(١) وكان لأهل اليمن نصفها الشرقي ولعرب الشمال نصفها الغربي وهو أقل وكان أهل اليمن عند نزولهم لأول مرة اثنى عشر ألفًا، وعرب الشمال ثمانية آلاف [البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٣٩ - ٣٤٠] وبلغ المقاتلون من أهل الكوفة على أيام زياد بن أبيه ستون ألفًا والبصرة ثمانون ألفًا. وذرية كل الاثنين ١٢٠ ألفًا [ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٥، ص ٨] ويروي البلاذري أن الكوفة على أيام زياد كان مقاتليها ستون ألفًا وعيالهم ثمانون ألفًا (عائلاتهم) وفترة زيادة (٥٠ - ٥٣هـ) وهي فترة تولي زياد ولاية الكوفة بعد وفاة المغيرة ابن شعبة سنة ٥٠هـ إلى وفاة زياد سنة ٥٣هـ، أما البصرة فيذكر البلاذري أن تعدادها صار على أيام زياد وهي (من ٤٥ - ٥٣هـ) ٠٠٠ر٨٠ من المقاتلين، وعيالهم (٠٠٠ر١٢٠ نسمة) [البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤٢٩].

(٢) الحيرة : على ثلاثة أميال من الكوفة (سبعة كليو مترات جنوب الكوفة لسترنج ص ١٠٢) وقد ورثت الكوفة مكانتها وخلت الحيرة من الأهل بعد بناء الكوفة سنة ١٧هـ وكانت عاصمة ملوك العرب المناذرة.

(حمام أعْيَن) على ثلاثة فراسخ منها، وجعل منها معسكرًا لجنده وتنسب إلى أعْيَن مولى سعد بن أبي وقاص فأقام بها السفاح عدة أشهر خوفًا من الاستقرار بالكوفة، ثم ارتحل عنها ونزل **(بقصر ابن هبيرة)** شمال الكوفة على نهر الفرات وزاد في هذه المنطقة وأحدث فيها أبنية وسماها **(الهاشمية)**، فكان الناس ينسبونها إلى ابن هبيرة على العادة، فقال : ما أرى ذكر ابن هبيرة يسقط عنها ففارقها وبنى بحيالها المدينة الهاشمية نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف[1].

ثم اختار أبو العباس مدينة (الأنبار سنة ١٣٤هـ) وفي الطبري أنه كان نزل بالحيرة وتحول إلى الأنبار سنة ١٣٤هـ نقلاً عن الواقدي [الطبري ج٧، ص ٤٦٤] وفي رواية أخرى أن الذي بنى هاشمية الكوفة هو المنصور وليس أبو العباس، أما أبو العباس فعمر هاشمية الأنبار [حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي، ج٢، ص ٣٦٢] وهي في الأصل مدينة فارسية، وتقع على الضفة الشرقية لنهر الفرات، وبينها وبين بغداد عشرة فراسخ[2] وهي في مكان حصين عنده يخرج من الفرات نهر كبير يتجه إلى دجلة أُطلق عليه فيما بعد نهر عيسى[3] وبنى بها ضاحية جديدة سماها أيضًا **(الهاشمية)**، وعلى ذلك فهناك **(هاشمية بالكوفة)** وأخرى **(بالأنبار)**، ومن هنا جاء الخلط بينهما، وكان الخليفة العباسي قبل إنشاء بغداد يتنقل

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، نشر صلاح الدين المنجد، ص ٣٥١.

(٢) الفرسخ = ٣ أميال والميل = ١٦٠٩ر٣٤ متر يصبح الفرسخ = ٨٢٨ر٤ كيلو مترًا والبريد = ١٢ ميلاً ويساوي ٤ فراسخ. الجريب المربع = ١٠ قصبات × ١٠ قصبات = ١٥٩٢ مترًا مربعًا.

القصبة = ستة أذرع (الذراع = ٥٩ $\frac{1}{6}$ سم) = ٥٥ر٣ مترًا

ذراع البريد وهي الذراع الشرعية = ٨٧٥ر٤٩ سم

قال بطليموس في الماجستي : الميل ثلاثة آلاف ذراع بذراع الملك والذراع ثلاثة أشبار والشبر ست وثلاثون إصبعًا والإصبع خمس شعيرات مضمومات بطول بعضها إلى بعض، وقيل الميل ٢٣٣٣ خطوة وأما أهل اللغة فالميل عندهم مدى البصر ومنتهاه [ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص ٣٦].

(٣) هو عيسى بن موسى بن عم المنصور أو هو عيسى بن علي عمه، انظر بلدان الخلافة الشرقية، كي لسترنج، ص ٩٢.

بينهما، وربما كان ذلك لدواعي الأمن، وقد توفي السفاح بهاشمية الأنبار(١)، ونزل المنصور بهاشمية الأنبار واستقر بها وزاد في بنائها إلى أن بنى بغداد عند الطرف الآخر من نهر عيسى حيث يصب في نهر دجلة كعاصمة للخلافة العباسية فانتقل إليها.

بناء بغداد :

بدأ أبو جعفر المنصور في تخطيط مدينة بغداد سنة ١٤٥هـ وكان مكانها **(موضع بستان)** وقيل **(موضع سوق)** قديم أو **(مدينة قديمة)** بها سوق للفرس على الناحية الغربية لنهر دجلة وهي في شمال **«المدائن»** عاصمة الفرس قبل الإسلام على بعد سبعة فراسخ، وقد تلاشى المنصور في موقع بغداد كل العيوب التي للبصرة والكوفة، وتقع في أحضان نهر دجلة، وقال عندما شاهد موقعها لأول مرة : «إنها موقع عظيم لمعسكر حربي».

أما اسم بغداد فالخطيب البغدادي يقول إن بغداد من أصل فارسي مكون من : **(بغ)** ومعناها صنم، و **(داد)** ومعناها أعطاني، فيكون معناها : **(أعطاني الصنم)**، وقيل تفسيرها بالعربية **«بستان رجل»** فبغ بستان وداد رجل [الخطيب، تاريخ بغداد، ج١، ص ٦٠]، ثم يقول : والفقهاء يكرهون هذا الاسم من أجل هذا. والمنصور لم يطلق على مدينته الجديدة هذا الاسم المكروه وإنما سماها **(دار السلام)** أو مدينة السلام تفاؤلاً ولأن دجلة كان يقال لها وادي السلام، وإنما غلب عليها اسم بغداد على الرغم من هذه الكراهية وكانت النقود المسكوكة فيها تحمل اسم دار السلام.

وكانت الدول منذ القدم تختار لعواصمها أماكن قديمة في أحضان **الأنهار** أو **الخلجان** أو **البحار** أو **الجبال** وذلك مثل **المدائن**(٢) **ومنف**

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٥١ ورمزية الأطرقجي، بناء بغداد، ص ٣١ والأنبار تقع غربي بغداد على بعد ٦٥ كم منها فوق الفلوجة بخمسة كيلو مترات وكانت عامرة أيام العباسيين وأصبحت اليوم قرية فيها أطلال [البلاذري، فتوح البلدان، تعليق بالفهرس ص ٦٨٩] والأنبار كلمة فارسية تعني السوق أو مخزن الغلال وهي بهذا المعنى كانت معروفة في مصر، [التاريخ الإسلامي العام، علي إبراهيم حسن، ص ٣٣٩].

(٢) وتقع المدائن على أضيق نقطة بين دجلة والفرات وتقع على جانبي نهر دجلة وبها إيوان كسرى في الجانب الشرقي، انظر لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥١ - ٥٢ والفرسخ حوالي ٥ كم وسبعة فراسخ = ٣٥ كم.

في مصر القديمة على نهر النيل[١] التي أخذت الفسطاط والقاهرة فيما بعد مكانتها. **وبيزنطة التي ورثت القسطنطينية واسلامبول**[٢] مكانتها فيما بعد، ولندن على نهر التيمس، وباريس على نهر السين وغيرها من العواصم.

ولقد عاب ابن خلدون على العرب طريقة بنائهم لكل من البصرة والكوفة والقيروان، وقال بأنهم لم يراعوا في اختطاطهم إلا مرعى إبلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن ولم تكن لها مادة تمد عمرانها من بعدهم[٣]».

ويشترط ابن خلدون لأماكن اختيار مثل هذه المدن «أن يراعى فيها دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق».

أما (**مكان بغداد**) فإنه يتمتع بكثير من المميزات التي يشترطها ابن خلدون فهو يتوسط الأماكن المأهولة والحضارية في العراق ويرث موضع (**المدائن**) القديمة عاصمة آل ساسان (٢٢٦ - ٦٥٢م)، وفي مكان تتوافر فيه وسائل الحياة وضرورات المعيشة كالمياه والمحاصيل الزراعية وسهولة المواصلات المائية والبرية، وفي موقع حصين يسهل الدفاع عنه أمام المهاجمين فدجلة من الشرق والفرات من الغرب فكأن دجلة والفرات خنادق طبيعية بالإضافة إلى بعض الأنهار الصغيرة في الشمال والجنوب ويسهل تزويد المدينة بالواردات من دجلة والفرات من الخليج العربي (**الفارسي**) والجزيرة وأرمينية والشام وما حولها[٤].

وقد أمر المنصور بتخطيطها على شكل مدور، وجعل لها

(١) تاريخ بغداد، ج١، ص ٥٨ - ٥٩، ٦٠ وقيل معنى بغداد بستان رجل، وقال لسترنج في معجمه بغ= الله وداد = تأسست، فيكون معناها : أسسها الله.

(٢) وشاع عنها أسماء أخرى كالزوراء والمدورة. لأن الأبواب الداخلية مزورة عن الأبواب الخارجية أي ليست على سمتها، وقيل لازورار نهر دجلة عند مروره بها، وقيل لانحراف محاريبها بالمساجد.

(٣) مقدمة ابن خلدون، ج٢، ص ٨٧٠.

(٤) الطبري، ج٩، ص ٢٣٨ - ٢٤٠.

سورين(١) أحدهما داخلي والآخر خارجي ويفصل بينهما ١٦٠ ذراعًا ثم يوجد أمام السور الخارجي خندق يجري فيه الماء من نهر صغير متفرع من دجلة يسمى (كرخايا) وقطر المدينة ٢٢٠٠ ذراع(٢). (أي الخط الذي يقطع الدائرة).

وللمدينة أربعة أبواب : **باب خراسان** في الشمال الشرقي ويقع على نهر دجلة، **وباب الشام** في الشمال الغربي **وباب البصرة** في الجنوب الشرقي **وباب الكوفة** في الجنوب الغربي، وبنى المنصور له قصرًا في وسط المدينة ومسجدًا جامعًا، ودار للحرس وأخرى للشرطة وجعل حول ذلك قصورًا لأولاده وبقية الأمراء، وكبار رجال الدولة ثم دواوين الحكومة ودور الأهالي تتخللها الأسواق، واستعمل في بنائها اللبن والآجر.

وقيل إن المنصور لما شرع في بناء بغداد عهد إلى أبي حنيفة بعدِّ الطوب والإشراف على البناء، وابتكر طريقة سريعة وسهلة لعد قوالب اللبن بالقصبة، فإن كان طول الطوبة ٤٠ سنتيمترًا مثلاً في ٢٠ سنتيمترًا مكنه أن يعرف عدد القوالب بسرعة وفي زمن أقل بكثير من الزمن الذي يأخذه الطوابين العاديين في عد القوالب واحدًا واحدًا فأفاد الطوابين بذلك.

ويرجع السبب في اختيار أبي حنيفة لهذا العمل أن المنصور أراده على القضاء فأبى أبو حنيفة، فقال له لا بد أن تعمل لي عملاً واختار له هذا العمل الشاق فرضي به الإمام خوفًا من أن يكلفه بالعمل في القضاء وهذا ورعًا وخوفًا من الله أن يظلم أحدًا.

ويذكر ياقوت أن نفقة بناء بغداد وصلت إلى (١٨ مليون دينار) وقيل غير ذلك(٣).

---

(١) كان السور الداخلي أعلى من الخارجي وعرضه من الأساس خمسين ذراعًا ومن أعلاه عشرين ذراعًا، وجعل في البناء القصب والخشب لتقويته (ابن الأثير، ج٥، ص ٢١).

(٢) الذراع المعماري ٧٥ سنتيمتر، والذراع العادي ٦٩ سنتيمتر. والذراع الشرعية ٤٩ سم : فيكون محيط بغداد (٦٩٠٨ ذراع) وذلك بضرب القطر ٢٢٠٠ × ١٤ر٣ = ٦٩٠٨ ذراع.

(٣) يذكر ابن الأثير أن النفقة وصلت إلى أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهمًا، (ج٥، ص ٢١).

وعندما تم بناؤها انتقل إليها العلماء من كل البلدان إلى أن صارت مهدًا للحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية، بما لا تدانيها مدينة إسلامية أخرى حتى خرابها على يد المغول.

وكره العرب الإقامة في بغداد واعتبروها سجنًا، وأوسعوها ذمًا بشعرهم ويروي الخطيب البغدادي كثيرًا من أشعارهم في هذا المجال في كتابه :

فمنها قول أحمد بن يحيى المعروف بثعلب :

ترحل فما بغداد دار إقامة * ولا عند من أضحى ببغداد طائل
محل ملوك سمنهم في أديمهم * فكُلُّهُمْ من حلية المجد عاطل

ومنها قول أبي بكر المخزومي :

إقرأ سلامًا على نجد وساكنه * وحاضر باللوي إن كان أو بادي
سلام مغترب بغداد منزله * إن أنجد الناس لم يهمم بإنجاد

وقال آخر :

ألا يا غراب البين مالك واقفًا * ببغداد لا تجلو وأنت صحيح
فقال غراب البين وانهل دَمْعُهُ * نقضي لبانات لنا ونروح
ألا إنما بغداد سجن إقامة * أراحك من سجن العذاب مريح(١)

وإنما قال العرب عنها كذلك لأنهم كانوا يشعرون بالحصار في داخلها، فكان العباسيون إذا طلبوا إنسانًا في بغداد أمروا بإغلاق جميع الأبواب، ويتم القبض عليه بسرعة، ولهذا كانوا يشعرون بأنهم محاصرون في داخلها وكأنها سجن كبير بخلاف الكوفة والبصرة التي كانت تتلاءم طبيعتيهما مع العرب من حيث الحرية وسهولة اتصالهما بالبادية.

ومع مرور الزمن ضاقت بغداد بأهلها حتى في عهد المنصور لأنه لم يراع فيها التوسع العمراني، فبنى المنصور له قصرًا خارجها وهو **(قصر الخلد)** سنة ١٥٧هـ، وأقطع رجاله القطائع خارج أسوار المدينة وعرفت كل

(١) تاريخ بغداد، ج١، ص ٦٠ - ٦١.

قطيعة باسم من بناها، وسرعان ما اتسعت قطائع بغداد، وزاد إقبال الناس على سكناها، وكانت هذه القطائع كالضواحي[1] لبغداد وأهم ما يلاحظ في بناء بغداد أنها ألغت التجمعات القبلية والعنصرية التي كانت بالكوفة والبصرة والفسطاط فهذه المدن الأولى وزعت أحياؤها على القبائل وعرب الشمال وعرب الجنوب أما بغداد فقد خلت من هذا التوزيع، ومن هنا كانت مدينة لكل المسلمين دون تفرقة بين العرب والموالي.

ولما زاحم السوقة الناس في بغداد أمر المنصور ببناء الكرخ لهم، وهو مكان يجمع الأسواق في الناحية الجنوبية الغربية من بغداد وبدأ في تنظيف بغداد، وزراعة الحدائق بها مكان الأسواق القديمة.

وبنى المهدي بن المنصور في الجانب الشرقي من دجلة (**الرصافة**) وهي بغداد الشرقية التي عرفت بالجمال والأبهة، وكانت في الأصل معسكرات للجيش، وتم بناؤها أيام المهدي سنة ١٥٩هـ.

وبمضي الزمن غلب اسم الكرخ على الناحية الغربية من بغداد كلها مع المدينة القديمة في غرب دجلة، واسم الرصافة على الناحية الشرقية من بغداد في شرقي دجلة.

وفي سنة ٢٢١هـ نقل المعتصم مقر الخلافة إلى سامرا فضؤل شأن بغداد في عهد سبعة من الخلفاء، وفي سنة ٢٧٩هـ هجر الخلفاء سامرا وعادوا إلى بغداد الشرقية التي كانت قد استجد فيها كثير من القصور وورثت مكانة المدورة في الجانب الغربي التي ازدادت خرابًا، وأقام الخلفاء في الجانب الشرقي خلال القرون الأربعة التالية حتى الغزو المغولي دون أن يتحولوا عنه[2].

---

(١) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٠ - ٥١.

(٢) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٠ - ٥١.

(البيت العباسي)

الخلفاء في العصر العباسي الأول

العباس ٣٢هـ

عبد الله ٦٨هـ

علي ١١٧هـ

عبد الله | داود | محمد ١٢٥هـ | سليمان | صالح | عيسى

إبراهيم ١٣٠هـ | (٢) المنصور | (١) السفاح ١٣٦هـ

إبراهيم | (٥) الرشيد | المنصور | (٤) الهادي

(٦) الأمين | (٧) المأمون | (٨) المعتصم | القاسم (المؤتمن)

محمد | (٩) الواثق | (١٠) المتوكل

(١٢) المستعين | (١٤) المهدي

(١١) المستنصر | (١٣) المعتز | (١٥) المعتمد | الموفق

ابن المعتز | المفوض | (١٦) المعتضد

تطور الأوضاع في الدولة الإسلامية

بسبب انتقال العاصمة من الشام إلى العراق

عندما كانت عاصمة الدولة الإسلامية في دمشق كان اهتمام الدولة ببلاد الشام ومنطقة الحدود مع الدولة الرومانية الشرقية **(البيزنطية)** ومنطقة شرق البحر المتوسط، وكان نشاط الدولة الأموية في هذا الاتجاه نشاط فتح وغزو منظم لمناطق الحدود الرومانية، وحملات متكررة على عاصمة الدولة الرومانية من أجل فتحها، وكان للدولة الأموية أسطول بحري نشط في الموانى المصرية والشامية، وكانت الدولة الأموية تحاول أن تجعل من البحر المتوسط بحيرة إسلامية، ولذلك كانت قبضتها قوية على المناطق الغربية في الدولة كمصر والمغرب والأندلس.

أما عندما انتقلت العاصمة من الشام إلى العراق بدأ اهتمام العباسيين كله ينصب إلى الشرق حيث سيطروا سيطرة كاملة على إقليم التركستان وبدأ الأتراك يدخلون في دين الله أفواجا ويدخلون كجنود في خدمة الدولة العباسية، وبدأ يتأثر بهم عالم الإسلام على مدى تاريخهم الطويل الذي امتد حتى نهاية الدولة العثمانية في العصر الحديث.

ومن ناحية أخرى استطاع العباسيون صد الخطر الصيني وأقاموا علاقات مع الصين، وتم للعباسيين التوسع في السند ونمت بحرية إسلامية في المحيط الهندي والخليج العربي ولكنها لم تكن مثل بحرية البحر المتوسط على أيام الأمويين حيث كان الغالب عليها الطابع التجاري، وغدت البصرة من أهم الموانى العالمية تتجمع فيها تجارة الشرق، وتخرج منها الرحلات البحرية التجارية إلى موانى الشرق كله، وعلى الأخص جنوب شرق آسيا وشرق أفريقيا. وعلى يد هؤلاء التجار انتشر الإسلام في بلاد جنوب شرقي آسيا بالوسائل السلمية.

وكان لامتداد النفوذ الإسلامي إلى الشرق الأقصى أثره في إتاحة الفرصة أمام الحاصلات والسلع. ونتج عن هذا رواج اقتصادي كبير

استفادت منه شعوب العالم الإسلامي.

أما فيما يتعلق بأوضاع الجبهة الغربية في الدولة الإسلامية وهي جبهة البحر المتوسط والحدود الرومانية، فإنه حدث استرخاء عسكري في هذه الجبهة في منطقة الحدود في شمال الشام وشمال غرب الجزيرة العراقية حيث أصبحت الحرب فيها للإغارة الموسمية فقط التي تسمى الصوافي والشواتي في إقليم العواصم والثغور وتضاءل أسطول الدولة وقل نشاطه في البحر المتوسط. وبالتالي ضعفت قبضة الدولة العباسية على بلاد المغرب العربي وبدأت بلاده تخرج من قبضتها إقليمًا بعد إقليم لأن المعارضة العلوية وغيرها لاذت به ووجدت فيه مجالاً خصبًا وأذنًا صاغية لبث دعواتها وتكوين دولها مثل الأدارسة والفاطميين والأمويين بالأندلس.

ومن [**ناحية الثقافة**] فإن الأبواب فتحت أمام التأثيرات الشرقية بصفة عامة والفارسية منها بصفة خاصة، فقد كان يسكن العراق أمم مختلفة تداولت عليه وخلفت فيه مدنياتها وثقافاتها، فقد كان يسكنه قبيل الفتح الإسلامي بقايا من الأمم القديمة مثل :

الكلدانيين والسريانيين، وكان يسكنه العرب من ربيعة، وكان يقيم به المناذرة الذين أسسوا ملك الحيرة، وكانت مدنية الفرس غالبة عليه لأن الدولة الساسانية الفارسية كانت آخر من حكمه قبل الإسلام (٢٢٦ - ٦٥٢هـ) وظل في أيديهم زمنًا طويلاً إلى أن فتحه المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب، وكانت تقع به عاصمة الساسانيين وهي (**المدائن**)، وعلى ذلك فكان العراق مصطبغًا بالصبغة الفارسية، فلما قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس، واتخذت عاصمتها به كان أمرًا طبيعيًا أن يكون للفرس نفوذ كبير في المناصب الإدارية والعسكرية وفي مجال الثقافة، فقد كان منهم الوزارة والكتاب كالبرامكة وآل سهل وغيرهم، وكان منهم العلماء والأدباء الذين أخذوا ينقلون إلى العربية تراث آبائهم من تاريخ وأدب وعلم ونظم وتقاليد.

وبدأت التقاليد الفارسية تدخل في مجالس الخلفاء، فحتى آخر عصر

بني أمية كان في استطاعة الداخل على الخليفة أن يبدأ بالكلام في شكواه مشافهة وعلانية، أما في العصر العباسي فقد أدخل الكتاب والوزراء الفرس التقاليد الفارسية وذلك بإلزام الداخل على الخليفة بأن يكتب شكواه أو طلبه(١) في ورقة تعرض على الخليفة أو من ينوبه أولاً(٢)، وليس له أن يبدأ الخليفة بكلام حتى يبادره الخليفة بنفسه، فإذا لم يبادره الخليفة فليس له الحق في أن يتحدث رافعًا شكواه.

وكان هذا كله على حساب الوجود العربي فبدأت الدولة يقل اهتمامها بالعرب في الجيش والإدارة وفي شتى شئونها وبدأ الفرس يزاحمون العرب في شتى الميادين. وبدأ العرب يعارضون هذه الأوضاع وتوجست الدولة العباسية خيفة منهم.

وبدأ رجال الدولة من الفرس يحتفلون بعيد النَّوْرُوز الذي تبدأ به السنة الفارسية في ٢١ من مارس من كل عام ويسمى أحيانًا بعيد الربيع، وحرفت كما يقول الفيروز أبادي في القاموس إلى نيروز وأصبحت نيروز معربة لكلمة نَوْرُوز. وكان الفرس يقدمون في هذا اليوم وما زالوا الحلوى، فقد كانت أحيانًا تقدم في أيام الخلفاء الراشدين تقدمها موالي الفرس، فقد قدمت الحلوى في هذا العيد إلى علي بن أبي طالب فسأل عن السبب في تقديمها والمناسبة فقالوا للنيروز، فقال: نيرزُنا كل يوم، وحتى لو صحت هذه الرواية التي ذكرها الفيروز أبادي فإن الاحتفال بهذا العيد في عصر الراشدين والأمويين كان فرديًا عبارة عن حالات فردية، أما في العصر العباسي فقد أصبح رسميًا.

---

(١) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج١، ص ١٨٧، ١٨٨.

(٢) ذكر أبو حامد الغزالي في كتابه (نصيحة الملوك)، أن عمر بن العزيز كان ينظر ليلاً في قصص الرعية وروزنامجاتهم في ضوء السراج، ص ٧٣. طبعة مكتبة الجندي بالقاهرة، تحقيق الشيخ محمد مصطفى أبو العلا، بدون تاريخ.

الباب الثاني

خلفاء العصر العباسي الأول

خلفاء العصر العباسي الأول:

لم تتغير أوضاع الخلفاء العباسيين في العصر العباسي الأول عما في أيام الخلفاء الأمويين من ناحية عصبية الملك فالحكم كان على أيامهم ملكًا عضوضًا وليس هناك مجال لمشورة أحد فالخليفة هو المستبد بكل أوضاع الدولة على نحو ما كان على أيام الخلفاء الأمويين.

السفاح : وكان أول الخلفاء العباسيين (**أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس**) الملقب بالسفاح (١٣٢ - ١٣٦هـ) وقد شغل السفاح في عهده القصير بتصفية خصوم الدولة، وتثبيت دعائمها ولم يمهله أجله لكي يبني وتظهر عبقريته في هذا المجال، وكان يشرك معه في الرأي أفراد البيت العباسي، وكبار قواده كأبي مسلم الخراساني.

ولم يكن لديه وقت ينفقه في غير شئون الدولة، وكان يحب أن يجلس بعض الوقت إلى عقلاء الرجال ويسمر معهم وكان يقول: «إنما العجب ممن يترك أن يزداد علمًا، ويختار أن يزداد جهلاً. فقال له أبو بكر الهُذَالي : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟ قال: يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك، ويدخل إلى امرأة أو جارية، فلا يزال يسمع سخفًا ويروي نقصًا»(١).

وكان كغيره من الخلفاء في استقبال الشعراء، وقبول نفاقهم الشعري له ومنحهم عليه المنح الطائلة التي لا يستحقونها من بيت مال المسلمين، وهو في هذا يختلف عن أخيه أبي جعفر المنصور الذي كان يَضِنُّ أن ينفق مال المسلمين في هذا المجال السيئ كما سنذكر فيما بعد وابتعد أبو العباس عن الانغماس في حياة الترف والإكثار من الجواري في قصره للتمتع بهن، وإنما كانت طبيعة الرجل وجديته وانشغاله ببناء الدولة وعدم وجود وقت لديه لإنفاقه في هذا العبث هو الذي أبعده عن هذا الجو.

(١) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٢٧٨.

وعرف عنه أنه اكتفى في حياته بزوجة واحدة على الرغم من إطناب بعض جلساء السوء له في جمال الجواري والمتعة التي تحصل للشخص بمباشرتهم [فيذكر المسعودي حديثًا طريفًا عن أبي العباس في هذا المجال، فقد كان أبو العباس متزوجًا **(بأم سلمة المخزومية)**، وكانت معه قبل الخلافة، وكانت على جانب كبير من الجمال والذكاء ورجاحة العقل وقوة الشخصية، وقد حدث يومًا أن أحد جلساء السفاح واسمه **(خالد بن صفوان)** حدثه بحديث عن النساء والجواري فقال له : يا أمير المؤمنين، إني فكرت في أمرك، وسعة ملكك وقد ملّكْت نفسك امرأة واحدة، فإن مَرِضَتْ مَرِضتَ وإن غابت غِبْتَ، وحرمت نفسك التلذذ باستظراف الجواري ومعرفة أخبار حالاتهن والتمتع بما تشتهي منهن، فإن منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء، وإن منهن البضة البيضاء، والعتيقة الأدماء، والدقيقة السمراء، والبربرية العجزاء من مولدات المدينة تفتن بمحادثتها، وتلذ بخلوتها، وأين أمير المؤمنين من بنات الأحرار والنظر إلى ما عندهن وحسن الحديث منهن؟ ولو رأيت يا أمير المؤمنين الطويلة البيضاء والسمراء اللعساء، والصفراء العجزاء، والمولدات من البَصْريات والكوفيات، ذوات الألسن العذبة، والقدود المفهفهة، والأوساط المخصرة، والأصداغ المزَرْفَنة، والعيون المكحلة والثدي المحققة وحسن زيهن وزينتهن وشكلهن، لرأيت شيئًا حسنًا» وجعل خالد يجيد في الوصف، ويكثر في الاطناب بحلاوة لفظه، وجودة وصفه، فلما فرغ كلامه قال له أبو العباس : ويحك يا خالد !! ما صك مسامعي والله قط كلام أحسن مما سمعته منك، أعد عليَّ كلامك فقد وقع مني موقعًا، فأعاد عليه كلامه ثم انصرف(١).

وعلى الرغم من أن أبا العباس أبدى إعجابه وانشراحه بهذا الكلام إلا أن **(خالد بن صفوان)** لم يحدث له خير في تلك الليلة، ذلك أن أم سلمة عرفت من زوجها ما قاله ابن صفوان، وتسبب هذا القول في أرق ألم

(١) المسعودي، المصدر السابق، ج٣، ص ٢٧٥ - ٢٧٨.

بالخليفة في ليلته، فأوكلت به أم سلمة جماعة من أعوانها وأمرتهم ألا يتركوا منه عضواً صحيحاً، وعلى كل حال فلم تكن يقظة أم سلمة هي السبب في عدم اهتمام السفاح بالجواري، وإنما طبيعة الرجل وجديته هي التي ابعدته عن هذا كما سبق وأن أشرنا.

والواقع أن كثرة الجواري في البلاط الأموي وبعد ذلك في البلاط العباسي ترتب عليها مفاسد كان لها الأثر الكبير في ضعف الأمة وسقوطها في وهدة التخلف فيما بعد، ونقلت العداوة بين الزوجات والجاريات الكثيرات إلى أولادهن حتى تعذر معها تهذيبهن، ونشأ عن كثرة عدد النساء في قصور الخلفاء أنه لا يصفو ذهن أحدهم للإصلاح والنظر في شئون الأمة، لأنه ضعيف بسبب غرقه في الملذات(١).

وكان من مميزات السفاح ومن بعده المنصور البعد عن هذا الجو الذي كان سبباً في ضعف الدولة الأموية، وهذا ما مكن السفاح وأبو جعفر من تأسيس ملك قوي البنيان وانصرفا إلى أمور الدولة بكل الطاقات لديهما، وكان على ذلك رجال الدولة وقوادها على أيامهما، والناس على دين ملوكهم كما يقولون، فهذا هو أبو مسلم الخراساني يُرْوى عنه ابن خلكان أنه كان جاداً في حياته إلى أبعد الحدود لم يُرَ ضاحكاً ولا مازحاً إلا في وقته، ولم يكن يعرف حياة الجواري [بل كان غير طبيعي في البعد عن النساء، فكان لا يأتي النساء في السنة إلا مرة واحدة، ويقول: «الجماع جنون ويكفي أن يجن في السنة مرة(٢)].

وسوف نرى فيما بعد خلفاء العباسيين عندما انحرفوا إلى حياة الترف والملذات ضاعت ملكاتهم وأصبحوا في أيدي عبيدهم وجواريهم، وانحرف رجالهم تبعاً لانحرافهم.

أما فيما يتعلق بمشكلة ولاية العهد فقد سار العباسيون على النمط

---

(١) تاريخ الإمام محمد عبده، ج١، ص ٩٣٥.

(٢) وفيات الأعيان، ج٢، ص ١٤٨.

الذي سار عليه الأمويون من قبلهم وهو عقد الولاية لأكثر من واحد من الأبناء والأخوة، ولم يأخذوا درساً مما حدث للأمويين من مشاكل بسبب هذا الموضوع، فقد ولي السفاح عهده لرجلين : هما أخوه أبو جعفر المنصور ومن بعده ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد وكانت هذه التولية هي التي أثارت عمه عبد الله بن علي، وخرج على أبي جعفر بجيشه بعد وفاة السفاح، وسببت كثيراً من الحروب وسفك الدماء كما سبق أن ذكرنا.

أبو جعفر المنصور:

أما أبو جعفر (**المنصور**) (١٣٦ - ١٥٨هـ) فقد طال عهده واستمرت خلافته ٢٢ سنة تمكن فيها من تثبيت قواعد الملك للعباسيين وظهرت عبقريته أثناء الأحداث والوقائع التي وقعت في عصره وقد واجه عمه عبد الله بن علي عندما تمرد على طاعته وتغب عليه كما واجه خروج محمد بن عبد الله ابن الحسن وأخيه إبراهيم وخرج من هذه الثورة منتصراً كما سبق شرحه، وتخلص في النهاية من نفوذ أبي مسلم الخراساني، وتم قتله على يديه وصفا له الجو، ويعتبر المؤسس الحقيقي للدولة العباسية.

ويجمع المؤرخون على أن شخصية أبي جعفر المنصور كانت قوية إلى أبعد الحدود، وأنه كان واسع الحيلة، ويروون عنه أنه كان إذا خرج إلى مجلسه تغير لونه واحمرت عيناه وانقلبت جميع أوصافه، وكان يقول لأولاده : «يا بنيَّ إذا رأيتموني قد لبست ثيابي وخرجت إلى المجلس فلا يَدْنُوَنَّ أحد مني مخافة أن أزعجه وأخيفه»(١).

وكان أبو جعفر حريصاً على أن تظل الخلافة في عقبه على الرغم من وجود ابن أخيه (**عيسى بن موسى**) بن محمد في ولاية عهده على النحو الذي قرره السفاح من قبل، فلما شب ابنه محمد المهدي أخذ يعمل على تعيينه ولياً للعهد بعد عيسى بن موسى، وكان المنصور في سنينه الأولى يستعين بعيسى بن موسى في التغلب على الثورات، ويلقي به في كثير من

(١) ابن طباطبا، الفخري، ص ١٣٥ - ١٣٦.

الحروب فيدفع به عن نفسه، وعندما ثار العلويون بالحجاز والعراق قال المنصور لعيسى : والله ما يراد إلا أنا وأنت، فإما أن تذهب لقتالهم أو أذهب أنا، وكان عيسى يتقبل هذا بروح المدافع عن مصلحته لأن الأمور ستؤل إليه بعد المنصور، ولكن المنصور كان على ما يبدو يريد التخلص منه، ولما استقام الملك له عز عليه أن يلي بعده ابن أخيه من بعده ليرث هذا الملك العريض الذي أرسى قواعده بمجهوده، وهو لا يدري ولا يضمن ماذا سيفعل بابنه فيما بعد.

وفاوض المنصور **(عيسى بن موسى)** في خلع نفسه فأبى وقال : يا أمير المؤمنين كيف أضع الأيمان التي في رقبتي وفي رقاب الناس بالعتاق والطلاق؟ ليس إلى الخلع سبيل، فتغير المنصور عليه وباعده بعض المباعدة، وصار يأذن لابنه المهدي قبله، ويجلسه دون المهدي، ويوصي حاشيته بعدم احترامه وتوجيه الأذية إليه إلى أن خلع نفسه، وقيل دفع إليه المنصور مبلغًا كبيرًا من المال ليخلع نفسه.

فيذكر الجهشيري أنه لما أجاب عيسى إلى تقديم المهدي عليه سنة ١٤٧هـ أمره أبو جعفر أن يخرج إلى الناس فيخاطبهم بذلك. فخرج ومعه **(أبو عبيد الله)** كاتب المهدي فدخلا المسجد الجامع، فقال عيسى : إني قد سلمت ولاية العهد للمهدي ابن أمير المؤمنين وقدمته على نفسي، فقال الكاتب :ليس هكذا أيها الأمير، ولكن قل : لحقه وصدقه، وأخبر بما رغِبْت فيه وأعطيت، فقال : نعم قد بعت نصيبي من تقدمي في ولاية العهد من عبد الله أمير المؤمنين لابنه محمد المهدي أمير المؤمنين بعده بعشرة آلاف ألف درهم وألف ألف درهم لابني فلان وابني فلان وابني فلان وفلانة امرأة سماها من نسائه، بطيب نفس مني، ورغبت في تصييرها إليه لأنه أولى بالتقدم فيها، وأحق وأقوم عليها، وأقوى على القيام بها مني(١).

وبذلك يكون المنصور قد أجبر عيسى بن موسى على أن يسيء إلى

(١) الوزراء والكتاب، ص ١٢٦ – ١٢٧، وابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ٢٣ – ٢٤.

نفسه أيضًا بما قال، ولذلك لم يسلم عيسى من سخرية الناس به، فكان بعض الناس بالكوفة إذا مر بهم عيسى بن موسى يتغامزون ويقولون : هذا الذي كان غدًا فأصبح بعد غد، لأنه صار بعد هذا التنازل ولي العهد الثاني.

حالة الدولة الإسلامية في عهد المنصور:

قاد المنصور الدولة الإسلامية قيادة حكيمة، فساد في عهده الرخاء وعم الأمن، وعرف عنه أنه كان يحافظ على أموال الدولة بكل ما يستطيع، ولم يعرف عنه التبذير في المجالات التي تعود الحكام على إضاعة الأموال فيها، ومنها إعطاء العطايا الكبيرة للشعراء المنافقين فقد كانت هذه عادة الأمويين وعادة أخيه أبي العباس من قبل، أما هو فرفض نفاق هؤلاء ولم يعبأ بسخريتهم حين أطلقوا عليه المنصور الدوانيقي» نظرًا لحفاظه على الدانق الذي هو سدس الدرهم ومحاسبة الناس عليه، وذهب به حرصه أنه كان يسترد من الشعراء ما يمنحه ابنه المهدي، قد روى الأصفهاني : أن (المؤمل الشاعر) قدم على المهدي بالري، وهو إذ ذاك ولي عهد المنصور فامتدحه بأبيات، فأعطاه المهدي عشرين ألف درهم، فكتب بذلك صاحب البريد إلى المنصور، فكتب المنصور إلى المهدي يلومه، وطلب الشاعر حتى أتى إليه، فقال له المنصور : [أتيت غلامًا غرًا كريمًا فخدعته فانخدع، أنشدني ما قلت فيه، فأنشده، فقال المنصور : «أحسنت، ولكن هذا لا يساوي عشرين ألف درهم، يا ربيع أعطه منها أربعة آلاف وخذ الباقي[1]» وعلى كل حال فإن هذا المسلك من المنصور يعد التزامًا إلى حد ما بالقواعد الإسلامية التي تكره الشعراء المداحين المنافقين، فقد روى مسلم في صحيحه (٣٠٠٢) في الزهد من حديث المقداد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب» وأخرجه أبو داود (٤٨٠٤) والترمذي (٢٣٩٥) وابن ماجه (٣٧٤٢) [انظر زاد المعاد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، ج١، ص ١٦٤].

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج٦، ص ٥٩.

ويذكر الجهشياري أنه كان (لسوار القاضي) بالبصرة من طرفه كاتبان، رزق أحدهما أربعون درهمًا ورزق الآخر عشرون درهمًا، فكتب إليه القاضي يسأله التسوية بينهما، فنقص صاحب الأربعين عشرة دراهم وزادها لصاحب العشرين[1] وغير ذلك من الروايات التي تدل على اقتصاده الشديد في أموال الدولة.

ولذلك ترك المنصور خزائن أموال الدولة عامرة حتى قيل إنه خلف عند وفته ستمائة ألف ألف درهم (**٦٠٠ مليون درهم**) وأربعة عشرة ألف ألف دينار (**١٤ مليون دينار**)[2].

المنصور يواجه حركات السخط على أبي مسلم:

ومضى المنصور يحقق للخلافة العباسية القوة والمنعة وتصدى لمشاكل كثيرة، وقف لها وجهًا لوجه دون خوف، فقضى على الحركات التي ظهرت بعد مصرع أبي مسلم مثل (**حركة سنباذ المجوسي واسحق الترك**) وحركة (**الراوندية**)، وأقر السلام في فارس وخراسان بتغلبه على هذه الحركات الفارسية الطابع.

أما (**سنباذ المجوسي**) كان سبناذ مجوسيًا من قرية من قرى نيسابور يقال لها أهروانة وكان من صنائع أبي مسلم وتجمع حوله كثير من أهل الجبال وتغلب على نيسابور والري وقومس ويسميه المسعودي بسنفاذ (**الخرمي**)* فقد تجمع حوله جيش كبير من نيسابور ومن أهل الجبال من أصحاب أبي مسلم ثاروا عقب قتل أبي مسلم، وكثر أتباع سنباذ وطالبوا بدمه واستولوا على خزائن أبي مسلم (**بالري**) وأرسل أبو جعفر إليهم

(١) الوزراء والكتاب، ص ١١٣.

(٢) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص ٣١٨.

* (خُرَّم) لفظ أعجمي ينبئ عن الشيء المستلذ المستطاب الذي يرتاح الإنسان إليه بمشاهدته، ويهتز لرؤيته، وقد كان هذا لقبًا للمزدكية، وهم أهل الإباحة من المجوس الذين أباحوا النساء وإن كن من المحرم، وأحلوا كل محظور [انظر الغزالي أبو حامد، الرد على الباطنية، ص ١٤ تحقيق عبد الرحمن بدوي، نشر الكويت، مؤسسة دار الكتب الثقافية].

جيشًا كبيرًا خاض معهم معارك شديدة المراس إلى أن تغلب عليهم وقُتِلَ سنباذ وقتل من رجاله كما يذكر المسعودي وابن الأثير حوالي ستين ألفًا(١).

وفي بلاد ما وراء النهر خرج رجل يسمى **(اسحق الترك)** الذي كان داعيًا فيها من قبل أبي مسلم، وغضب لمقتل أبي مسلم وزعم أن أبا مسلم لا يزال حيًا وأنه سيظهر في يوم من الأيام، وأعلن الثورة على الدولة العباسية سنة ١٣٧هـ وتمكن من تجميع عدد كبير من الناس حوله، ولكن لم تكن لحركته قوة ولم يحقق نجاحًا لأن عامل خراسان تمكن من القضاء عليه(٢) وقتله سنة ١٤٠هـ(٣).

ومن هذه الحركات **(حركة الراوندية)** وتنسب إلى طائفة من **(مدينة راوند)** على مقربة من أصفهان، وقد اتخذت هذه الجماعة طريقة تأليه المنصور وسيلة للإضرار به وخرجوا سنة ١٤١هـ وزحفوا على العراق، ووصلوا إلى الهاشمية بالأنبار وطافت جماعة منهم حول القصر، وقالوا : هذا قصر ربنا، فقبض المنصور على رؤسائهم وحبسهم لأنه أحس بخطورة هذه الآراء عليه وعلى الدولة وعلى العقيدة الإسلامية، فاشتدت ثورتهم عليه وكادوا يفتكون به عندما خرج لتفريقهم، لولا أن كافح دونه جماعة كان على رأسهم **(معن بن زائدة الشيباني)** إلى أن انهزم الراوندية ونجا المنصور(٤) ويطلق المؤرخون على هذه الحادثة **"يوم الهاشمية"**.

غير أنه لم يقض على حركة الخرمية تمامًا، فقد تجمعوا فيما بعد في **(بذّ)** وهي كورة بين أرّان وأذربيجان، وكان منهم بابك الخرمي على أيام المعتصم كما سنذكره فيما بعد(٥).

---

(١) ج٣، ص ٣٠٦، وابن الأثير، ج٤، ص ٣٥٧.

(٢) بقيادة جمهور بن مرار العجلي (ابن الأثير، ج٤، ص ٣٥٧) وكان في عشرة آلاف رجل التقى بهم بين معدان والري على طرف المفازة.

(٣) سهيل ذكار، تاريخ العرب والإسلام، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(٤) ابن الأثير، ج٤، ص ٣٦٥، وحسن إبراهيم، ج٢، ص ١٠٦، وأحمد شلبي، ج٣، ص ١١١ - ١١٢.

(٥) القزويني، آثار البلاد، ٥١١، والمسعودي، ج٣، ص ٣٠٦.

وفي سنة ١٥٠هـ خرج أستاذ سيس في (هراة) فوجه إليه المنصور (**خازم بن خزيمة**) فتغلب عليه وقتله وكان معه ٣٠٠ ألف من الرجال(١).

«وقيل إنه جد المأمون أبو أمه مراجل، وابنه غالب خال المأمون، وهو الذي قتل ذا الرياستين (**الفضل بن سهل**) لمواطأة من المأمون» [ابن الأثير، ج٥، ص ٢٩] قد تغلب في البداية على هراة وبادغيش وسجستان وغيرها من خراسان وهزم عدة من القود (الأجشم المروذي في أهل مرو، (معاذ بن مسلم)*، جبرائيل بن يحيى، حماد بن عمرو وأبو النجم السجستاني، وداود ابن كرار).

فلما تولى خازم ضم إليه القواد، وأخذ معه من انهزم وتمكن من ترتيب القوات حتى حقق النصر وكان عدد من قتل منهم حسب رواية ابن الأثير سبعين ألفًا، وتم أسر ١٤ ألفًا، وكانت هزيمة أستاذ سيس سنة ١٥١هـ وقيل أنه ادعى النبوة وأظهر أصحابه الفسق وقطع الطريق.

مواجهة الخوارج بالمغرب:

نظر الخوارج إلى خلفاء العباسيين نظرتهم إلى خلفاء بني أمية كلهم لا يصلح للخلافة، ولم تختره الأمة اختيارًا حرًا صريحًا، ولم يستوف الشروط التي يجب توافرها في الإمام، وكلهم يجب الخروج عليه وقتاله وعزله إن أمكن، وقتله إن أمكن.

وظلت هذه العقيدة لديهم وتلازمهم في العصر العباسي وكانت أفكارهم قد لقيت رواجًا بالمغرب في أواخر العصر الأموي، وعندما قامت الدولة العباسية انشغلت بالقضاء على ثورات العلويين والفرس التي سبق أن أشرنا إليها، فأتاح هذا المجال للخوارج لكي يزداد وضعهم قوة بالمغرب، واستقبل المغربية زعماءهم بالترحاب، وعلى الأخص أن المغرب وقف منذ

---

(١) ابن الأثير، ج، ص ٢٩ - ٣٠.

* معاذ بن مسلم: وجهه المهدي فيما بعد لقتال المقنع الخراساني في جيش قوامه سبعين ألفًا (انظر ابن الأثير، حوادث سنة ١٦٩هـ).

قيام الدولة العباسية في صف المعارضة، وكان رأيهم في الخلافة يتفق مع رأي الخوارج أن يتولاها الأصلح بصرف النظر عن كونه قرشيًا أو غير قرشي عربيًا أو غير عربي كما كانوا يطلبون المساواة مع العرب في الجيش والخوارج حققوا لهم ذلك.

وتم للخوارج الإباضية الاستيلاء على أفريقية وطرابلس، فكان أبو الخطاب عبد الأعلى في طرابلس وعبد الرحمن بن رستم في القيروان ووجد البربر لدى الخوارج قاعدة شرعية للخروج على الخلافة وخاصة بعد أن جعل أساسه السياسي : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

مواجهة الإنفصاليين بالمغرب:

كما واجهت الدولة العباسية على أيام المنصور ثورة للخوارج بإفريقية بقيادة (**أبي الخطاب عبد الأعلى الإباضي**)[1] الذي هزم الجيوش العباسية سنة ١٤٢هـ، فعهد المنصور إلى (**محمد بن الأشعث**)[2] بولاية إفريقية، وأرسل معه جيشًا مكونًا من أربعين ألفًا [منهم ثلاثون ألفًا من خراسان وعشرة آلاف من جند[3] الشام]، فالتقى بالإباضية سنة ١٤٤هـ وهزمهم وقتل أبا الخطاب عند سرت على مقربة من طرابلس ودخل (**القيروان**) في جمادى الأولى سنة ١٤٤هـ.

وعندما سمع (**عبد الرحمن بن رستم**) بالهزيمة التي حلت بأبي الخطاب ترك القيروان وسار نحو المغرب إلى حيث استقر به المقام إلى المكان الذي سيبني فيه مدينة (**تاهرت**) التي أصبحت عاصمة الإباضية في المغرب الأوسط إلى قيام الدولة الفاطمية في المغرب في أواخر القرن الثالث الهجري[4].

ولكن لم يهدأ الوضع في بلاد المغرب للعباسيين حيث زحف الخوارج

---

(١) هم أصحاب عبد الله بن إباض من بني تميم خرج في آخر دول بني أمية في أيام مروان بن محمد [الشهرستاني، الملل والنحل، ج١، ص ١٣٤].

(٢) كان محمد بن الأشعث واليًا على مصر قبل أن يتولى على أفريقية.

(٣) كان من بينهم : الأغلب بن سالم التميمي كان من دعاة أبي مسلم الخراساني وكان من قواد بن الأشعث

الصفرية من منطقة (**تلمسان**) واشتبكوا مع القوات العباسية وظل الصراع مستمراً، وثارت الخوارج الإباضية أيضاً في منطقة تاهرت بقيادة (**عبد الرحمن بن رستم**) الإباضي، ومعهم قبائل نفزاوة، واشتعل المغرب كله بالمعارضة لحكم العباسيين.

ولكن انهارت مقاومة ابن الأشعث سنة ١٤٨هـ بسبب اختلاف الجند الخراسانية عليه فولى المنصور عليها الأغلب بن سالم التميمي أحد قواد بن الأشعث الذي سينجح بنوه في إقامة أسرة حاكمة في تونس منذ سنة ١٨٤هـ لكن قتل الأغلب سنة ١٥٠هـ وعمت ثورة الخوارج المغرب فلم يتراجع المنصور وعرف كيف يخمد ثورة الخوارج بالحديد والنار.

وبعث المنصور بعد ذلك (**بيزيد بن حاتم المهلبي**)* إلى القيروان سنة ١٥٥هـ وكان والياً من قبل على مصر، ثم سيره المنصور في جيش كثيف واستمرت ولايته هناك ١٥ سنة أي طوال عهد المهدي والهادي، حتى أقر الأوضاع بها وقضى على الخارجين[1].

وقام بإصلاحات كبيرة في القيروان وأقاليم تونس، وعرفت أفريقية فترة هدوء ورخاء طوال ولايته حتى سنة ١٧٠هـ حيث توفي، وتظل الأمور بالمغرب تتراوح بين ثورة الخوارج وهدوئهم إلى أن تولى الدولة العباسية على أفريقية إبراهيم بن الأغلب التميمي سنة ١٨٤هـ وهو الذي ينجح في تكوين دولة أرادت الدولة العباسية بها أن تكون حاجزة لها من الخوارج والأدارسة والأمويين بالأندلس، وتوارث أبناء إبراهيم الحكم في القيروان وأسسوا بها أسرة ملكية جديدة تدين بالولاء للدولة العباسية ولها استقلال ذاتي عن الخلافة وسنتحدث عنها فيما بعد.

---

(٤) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج١، ص ٣٤٦.

(١) حسن أحمد محمود وزميله، مرجع سبق ذكره، ص ١٢١ - ١٢٦.

* من أسرة المهلب بن أبي صفرة التي اشتهرت بحروبها ضد خوارج المشرق (من الأزارقة) وعرفت بعدائها للخوارج، وكان يزيد والياً على مصر فسيره المنصور في ستين ألف رجل [نصفهم من خراسان، والبقية جميعهم من العراق والبصرة والكوفة والشام].

الإباضية بالمغرب:

والذي انتشر في المغرب من مذاهب الخوارج هو المذهب **(الإباضي)** والصفري وصاحب هذا المذهب هو **(عبد الله بن إباض التميمي)** أحد زعماء الخوارج والمذهب الإباضي يمثل آخر تطورات الفكر الخارجي، فبعد تعصب(١) **(الأزارقة)** الذين كفروا غيرهم من المسلمين وأباحوا دماءهم خفف الخوارج من قسوة مبادئهم التي لقيت نفوراً من جمهرة المسلمين كما تعرضت لرد فعل عنيف من جانب الدولة فظهر (الصفرية) أتباع زياد بن الأصفر، ولم يرم الصفرية غيرهم من المسلمين بالشرك بل وقفوا منهم موقفًا وسطًا بين التساهل والتشدد المقبول، كما أنهم قبلوا التقية ولم يَرَوْا دار المخالفين دار حرب، وعلى الرغم من ذلك وصفوا بالقسوة واستحلال سبي المسلمين، وعندما ظهر **(الإباضية)** كآخر مرحلة معتدلة لم تكن تكفر بقية المسلمين وقالت إن كفرهم كفر نعمة **(لمن ارتكب كبيرة)** لا كفر ملة، وحرموا دماءهم وسبيهم.

وكما انقسم الخوارج بالمشرق كذلك انقسموا بالمغرب إلى إباضية وصفرية فالصفرية كان أول ظهورهم بالمغرب الأقصى، والإباضية ظهروا بعدهم في طرابلس وأول أمر الخوارج عندما عادوا من وقعة صفين إلى العراق وخرجوا إلى قرية حروراء القريبة من الكوفة بزعامة **(عبد الله بن وهب الراسبي)**، فعرفوا بالحرورية نسبة إلى هذه القرية لكن اسم الخوارج غلب عليهم وظل جامعًا لمختلف فئاتهم.

نشأة الإمارة الأموية بالأندلس:

نجح عبد الرحمن بن معاوية المعروف(٢) بالداخل في الفرار من وجه

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج١، ص ٣١٨ - ٣١٩.

(٢) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، الملقب بصقر قريش والمعروف بالداخل، تحول إلى المغرب ولحق بقبائل نفزاوة من البربر وأمه منهم، فأقام عندهم مدة يكاتب من في الأندلس من الأمويين ويبعث إليهم بدراً مولاه، فبعثوا إليه مركبًا فيه جماعة من كبرائهم فأبلغوه =

العباسيين، وصل إلى الأندلس سنة ١٣٨هـ وأسس بها إمارة أموية انفصلت عن الدولة العباسية وناصبها العداء فكانت هذه المسألة مثار ألم شديد للمنصور، فواجه هذه الإمارة بكل قوته، وكان المنصور شديد الحرص على أن تؤكد الدولة سلطانها على الأندلس، وكان الانقسام العربي بالأندلس موجوداً بين اليمانية والقيسية، فاتصل العباسيون باليمنية وحالفوهم وفي سنة ١٤٦هـ أرسل المنصور (**العلاء بن مغيث الحضرمي**) وقد وقع الاختلاف في اسم العلاء : فذكر ابن الأثير أنه : العلاء الحضرمي وقال آخرون بأنه : العلاء بن مغيث اليحصبي الجذامي وابن الأثير والنويري والمقري يقولون بأنه كان في إفريقية وتابعهم على ذلك المتأخرون.

وصاحب أخبار مجموعة يقول إنه من أهل الأندلس وكذلك ابن عذاري والحميري الذي ذكر أن العلاء كان «رأس جند باجة فثار بهم وقام بدعوة بني العباس ولبس السواد، ورفع راية سوداء، واجتمع إليه الناس»[1] أميراً على الأندلس فعبر البحر من المغرب إلى الأندلس، وانضم إليه خصوم عبد الرحمن الداخل، وتعاون اليمنية مع العلاء الحضرمي وأحرز بفضلهم بعض الانتصارات، واستطاع أن يحاصر عبد الرحمن الداخل بنواحي إشبيلية.

غير أن عبد الرحمن حطم هذا الحصار وهزم قوات العلاء وأنصاره هزيمة كبرى، وقتل العلاء وقتل معه سبعة آلاف وحملت رأس العلاء إلى القيروان مع بعض التجار، كما تمكن عبد الرحمن الداخل من القضاء على من انضم إلى العلاء من أهل اليمن، وظل يتعقبهم بالأندلس حتى قضى على معارضتهم تماماً.

= طاعتهم وعادوا به إلى الأندلس سنة ١٣٨هـ فقاتلهم والي الأندلس (يوسف بن عبد الرحمن الفهري) في قرطبة وانتصر عبد الرحمن الداخل ودخل قرطبة وجعل الخطبة للمنصور نحو عام فلما استقر به الامر أعلن استقلاله، والمنصور العباسي هو أول من لقبه بصقر قريش، وكان يقاس بالمنصور في حزمه وشدته وضبطه.

(١) أخبار مجموعة ص ١٠١، ابن عذاري، البيان ٥١/٢، والحميدي، الروض المعطار، ص ٧٥، وأحمد مختار العبادي، ص ٣١٠.

وأصبحت الأندلس مجالاً لتجمع الأمويين يفرون إليها بين الحين والحين، وكلك مجالاً لأنصارهم، وكل من فر من وجه العباسيين لسبب أو لآخر، وأصبحت الأندلس أيضًا مجالاً خصبًا للأفكار المعارضة للعباسيين حتى أضحت مجالاً لفقه الإمام (مالك) الذي وقف موقفًا صلبًا ضد أبي جعفر المنصور وناصر (محمد بن عبد الله بن الحسن) النفس الزكية، فإن هذا الحادث جعل لمالك بن أنس ومذهبه المالكي مكانة مرموقة في الأندلس، فيروى المؤرخين أن كراهية مالك للعباسيين كانت من الأسباب التي جعلت الأمويين في الأندلس يعتنقون المذهب المالكي، ويجعلونه المذهب الرسمي لدولتهم.

عهد المهدي:

أما محمد المهدي الذي تولى الخلافة بعد والده المنصور في الفترة ي ١٥٨ - ١٦٩هـ فيعتبر من الخلفاء الذين استفادوا من جهود من سبقوهم، [ففترته شبيهة بفترة الوليد بن عبد الملك بعد أبيه عبد الملك بن مروان]، فالمنصور عاش طوال حكمه المديد يرسي قواعد الملك ويقضي على المعارضين للدولة من العلويين والخوارج والفرس، ثم خلف لابنه المهدي ملكًا قوي البنيان ثابت القواعد.

وبدأ المهدي عهده برد المظالم وإخراج المسجونين السياسيين من سجونهم ما عدا القتلة والمعروفين بالسعي في الأرض بالفساد، أو من كان لأحد عليه مظلمة أو حق وغيرهم من أرباب الجنايات والمحبوسين لحقوق مدنية، فإنه تركهم في السجون، وأجرى على من فك أسرهم الأرزاق، وأجرى الأرزاق على المجذومين في جميع الأقطار (ابن الأثير، ج٥، ص ٦٢]، وبدأ عهده بالتقارب مع العلويين والعفو عنهم(١)، ومد يد الإحسان إليهم، فشعر

---

(١) وسيستمر الوضع على ذلك إلى نهاية عصر الواثق، ويأتي المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) فيوقع بالشيعة، أي مع ظهور سلطان الأتراك بدأ التنكيل بالشيعة وكان قد هدأ في عصر المهدي والمأمون والمعتصم والواثق، وهذه الظاهرة لازمت الأتراك طوال عهدهم فكل تاريخهم مملوء بكراهيتهم للتشيع والشيعة، وبالحروب بينهم - وهم سُنِّيُون - وبين الفرس وهم شيعة [أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج١، ص ٤٢].

الناس بالطمأنينة في عهده وذهبت عنهم رهبة أبيه المنصور، ولذلك يعتبر عهد المهدي فترة انتقال من الشدة التي كانت عليها الدولة على أيام السفاح والمنصور إلى الاعتدال الذي ساد عصره، وعصر من أتى بعده. لم يعد هناك مبرر للعنف ضد الخصوم بعد أن تأسست الدولة وأصبحت قوية بما فيه الكفاية بدرجة توقف الخصوم عند حدهم.

وقد ترك له والده خزائن الدولة عامرة بالمال كما سبق أن ذكرنا، وكان إسراف المهدي بالغ الحد حتى أنه أتى على مدخرات الدولة على أيام والده في وقت وجيز وكان وزيره (**أبو عبيد الله**) في بداية حياته يشير عليه بالاقتصاد وضغط الأموال، فضاق به ذرعًا وعزله من الوزارة على الرغم من طول عشرته له، فقد كان (**أبو عبيد الله معاوية ابن يسار**) كاتبًا للمهدي ونائبًا له قبل الخلافة، وكان قد عزم المنصور على أن يستوزره لكنه آثر به ابنه المهدي، فكان غالبًا على أموره لا يعصي له قولاً، وكان المنصور لا يزال يوصيه به، فلما ولي المهدي الخلافة عين أبا عبيد الله وزيرًا له. وفوض إليه تدبير ملكه[1]، لكنه عندما اعترض على سياسة الإسراف التي اتبعها المهدي في أموال الدولة عزله من الوزارة.

وقلد المهدي الوزارة بعد أبي عبيد الله، (ليعقوب بن داود) فساير يعقوب المهدي أولاً في سياسة الإسراف، ثم عندما رأى خطورة إسرافه على مالية الدولة أشار عليه بالاقتصاد، ويسوق لنا الجهشياري رواية تدل على النقاش الحاد الذي كان بينهما في هذا المجال :

«أراد المهدي أمرًا، فقال له يعقوب : هذا يا أمير المؤمنين السَّرَفُ ! فقال المهدي : ويلك ! يَحْسُنُ السَّرَفُ إلا بأهل الشرف! ويلك يا يعقوب لولا الإسراف لم يعرف المقتر من المكثر[2]» وبهذا الرد الصبياني يتضح لنا

(١) وهو أول وزير يفوض في شئون الدولة العباسية ولم يكن هذا التفويض أيام المنصور، فقد كان وزيره خالد بن برمك معه كالكاتب.

(٢) الوزراء والكتاب، ص ١٥٩.

خطورة هذا الصبي المسرف وأمثاله على مستقبل الدولة [ووصل إلى علم المهدي من بعض خدمه أنه سمع يعقوب وهو يقول : «بنى هذا الرجل منتزهًا انفق عليه خمسين ألف ألف درهم من أموال المسلمين[1]].

ولما لم يستطع يعقوب الحد من تصرفات المهدي المبذرة أحب أن يترك منصبه مرارًا وآثر العافية غير أن المهدي عزله، بعد أن ألصق به تهمة العطف على العلويين والإضرار بمصالح الدولة. وقيل عن يعقوب بأنه يحابي الزيدية في المناصب، وأنه أتى بهم من كل ناحية وولاهم أمور الخلافة في الشرق والغرب[2].

وكان هذا مما أخذ عليه بالإضافة إلى أنه بدأ يتطلع إلى الاستبداد بالمهدي، فعزله وكانت هذه هي التهمة الرئيسية، وتم وضعه في السجن وظل فيه إلى أن أخرجه الخليفة هارون الرشيد[3] ابن المهدي.

وينطبق على المنصور والمهدي قول القائل «قد يجمع المال غير آكله، ويأكل المال غيرُ من جمعه» هذا البيت من جملة أبيات قالها الأضبط بن قريع الجاهلي :

لكل هـــم من الهمـــوم سعة * والمسى والصبح لا فــلاح معه
فصل حبال البعيد إن وصل الـ * حبل واقص القريـب إن قطــعه
وخـذ من الدهـــر ما أتاك به * من قـــر عينـا بعيشـــه نفـعه
لا تحقــرن الفقـــير عــلك إن * تركع يومًا والدهـــر قد رفعه
قد يجمــع المـال غيـــر آكله * ويأكل المـــال غيـــر من جمعه

انظر : الجاحظ البيان والتبيين، ج٤ ص ٤٥.

فالمنصور جمع والمهدي أكل وأسرف إلى أن أفلست خزائن الدولة،

---

(١) المصدر السابق ذات الصفحة.

(٢) المصدر السابق، ص ١٥٨.

(٣) المصدر السابق، ص ١٦٢.

فأتاه خازن بيوت المال [أبو حارثة النهري] فرمى بالمفاتيح بين يديه وقال : ما معنى مفاتيح لبيوت فُرّغ؟، ففرق المهدي رجاله لجباية الأموال(١). وهكذا تتحمل الشعوب نتيجة إسراف حكامها وتدفع الثمن.

وتكررت مشكلة ولاية العهد مع المهدي، فلم يكد يحول عليه الحول في الخلافة حتى رام وضع ابنه (**موسى الهادي**) وليًا للعهد بدلاً من ابن عمه عيسى بن موسى الذي لاقى الأمرين في حياة المنصور، فسلط المهدي وزيره (**أبا عبيد الله**) على عيسى بن موسى يراوده على خلع نفسه نهائيًا هذه المرة، ووضع موسى الهادي في ولاية العهد.

ذهب الوزير إلى عيسى بن موسى وقال له : «إن المنصور قدم المهدي عليك وعوضك فإن أخرجت نفسك من هذا الأمر عوضك المهدي ما هو أنفع لك وأبقى عليك وإن أبيت استحل منك المحظور بمعصيتك، وخلافك أمره، وقد لزمتك طاعته ووجب عليك القبول منه»(٢).

فاقتنع عيسى بكلام الوزير الذي كان مشوبًا بنغمة التهديد، وقبل على مضض لأنه لم يعد بقادر على المجالدة لما عاناه أيام المنصور من الضغط، والاضطهاد كما مر بنا، وآثر العافية وسارع إلى الإجابة بخلع نفسه، فعوضه المهدي بنفس الثمن الذي باع منصبه به من قبل وهو عشرة آلاف ألف درهم(٣)، وتوفي عيسى بن موسى سنة ١٦٧هـ بالكوفة وعمره خمسًا وستين سنة(٤).

ولم يتعظ المهدي من المشاكل التي ثارت حول ولاية العهد لاثنين بل ولى عهده لابنه موسى الملقب بالهادي ومن بعده لابنه هارون الرشيد.

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص ٣٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٣) المصدر السابق نفس المكان.

(٤) وكانت ولايته للعهد ثلاثًا وعشرين سنة، ابن الأثير، ج٥، ص ٦٩.

إصلاحات المهدي:

توجه المهدي في فترة حكمه إلى بعض الإصلاحات الداخلية وأعانه عليها الاستقرار الذي ساد الدولة في عهده، ومن هذه الإصلاحات، الاهتمام بطرق الحج، حيث أمر ببناء الاستراحات وأحواض المياه حول الآبار (**المصانع**)* على الطريق من مكة المكرمة والمدينة المنورة(١) وأمر بتجديد الأميال لتحديد المسافات على الطريق، وعين للإشراف على هذه الأعمال موظفًا خاصًا هو : يقطين بن موسى.

وكانت قوافل الحج قد تجمعت في هذه الفترة في أربع قوافل رئيسية، قافلة الحج العراقية وقافلة الحج الشامية وقافلة الحج المصرية وقافلة اليمن.

فأما (**قافلة الحج العراقية**) فهي القافلة الرئيسية ويأتي معها أمير الحج الذي يعينه الخليفة العباسي كل عام للإشراف على موسم الحج، ويأتي مع هذه القافلة حجاج العراق وفارس وما وراء النهر، ويسلك هؤلاء درب العراق من الكوفة.

و (**قافلة الحج الشامية**) وتزخر بحجاج بلاد الشام وما والاها من مناطق العواصم والثغور، ويسلكون درب الشام التاريخي المعروف وهو شرقي جبال السراة.

و (**قافلة الحج المصرية**) ويأتي معها حجيج مصر والسودان وشمال أفريقيا وغرب أفريقيا، ويتجمع الحجاج في مصر أولاً، وتقام لهم الاحتفالات في بركة الحج خارج الفسطاط وهي أول محطة في بداية الطريق إلى السويس ويسلكون درب الحج المصري الذي يخترق شبه جزيرة سيناء إلى العقبة، ويأخذ طريق تهامة على الساحل إلى ينبع النخل ثم المدينة المنورة.

---

(١) ابن الأثير، ج٥، ص ٦٠.

* قال في القاموس المحيط : المَصْنَعةُ : الحوض يجمع بها ماء المطر، وهي كالمصنع. والمصانع الجميع وهي القرى والمباني من القصور والحصون وفي ابن الأثير، [ج٥، ص ٦٠] أن المهدي أمر ببناء القصور بطريق مكة وأمر ببناء المصانع، قال في القاموس المحيط : القصر كل بيت يتخذ من حجر.

ويكون ميقاتهم إذا مروا على المدينة ذو الحليفة، فإذا لم يمروا عليها واتخذوا طريق تهامة فميقاتهم الجُحفة وهي من مكة على أربع مراحل (١٥٠كم) وغدير خم على ثلاثة أميال منها (٦كم).

والمواقيت المكانية للحجاج هي :

١ - الحليفة : أهل المدينة (أبيار علي).

٢ - الجحفة : لأهل مصر والشام.

٣ - قرن المنازل : لأهل نجد.

٤ - ذات عرق : لأهل العراق والمشرق.

٥ - يلملم : اليمن.

وهي لأهل هذه الأماكن ومن مر عليها.

وزاد المهدي في توسعة المسجد الحرام التي بدأت على أيام المنصور، وكانت زيادة المهدي سنة ١٦٧هـ وأدخل في ذلك دوراً كثيرة، وكانت هذه الزيادة تعادل كل الزيادات التي عملت من قبل[1] وأنهى إليه حجبة الكعبة أنهم يخافون هدمها لكثرة ما عليها من الأستار، فأمر بها فجردت واقتصر على كسوة المهدي[2] سنة ١٦٠هـ.

وأتى المهدي بالأعمدة الرخامية من مصر عن طريق البحر الأحمر إلى جدة وسقفه بخشب الساج الذي هو أحسن أنواع الخشب وأمتنه[3] وكانت الأموال التي انفقت على زيادة المهدي في المسجد الحرام وتعويض أصحاب المنازل مقدار ثلاثين ألف ألف درهم وخمسمائة ألف دينار.

واهتم المهدي بعمارة المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة سنة ١٦٠هـ فوسعه، وكان المسجد على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام مبنياً

---

(١) ابن الأثير، ج٥، ص ٦٩، والسيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٧٣.

(٢) ابن الأثير، ج٥، ص ٥٧، والسيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٧٣.

(٣) حسين عبد الله باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام.

باللبن وسقفه بالجريد، وعمده من جذوع النخل ولم يزد فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وزاد فيه عمر رضي الله عنه، ثم وسعه عثمان بن عفان رضي الله عنه فزاد فيه زيادة كبيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة، وجعل عمده من الحجارة المنقوشة، وسقفه بخشب الساج[1].

وأصلح المهدي شئون البريد بين بغداد والحجاز واليمن فأعد عند كل مرحلة بغالاً وإبلاً، وأخذ خمسمائة من الأنصار يكونون حرسًا خاصًا له بالعراق، وأقطعهم بالعراق وأجرى عليهم الأرزاق[2] وهذه مبادرة من المهدي تستحق الثناء في الاهتمام بالعنصر العربي.

ويلغ من سرعة الطريق وجودته أن الثلج حمل إلى المهدي في مكة في موسم الحج عام ١٦٠هـ ويذكر ابن الأثير أن المهدي كان أول خليفة حمل إليه الثلج، واعتقد أنه حمل إليه من جبال لبنان لأنها أقرب قمم جبال يحمل منها الثلج إلى الحجاز وهو ثلج طبيعي وفرق ١٥٠ ألف ثوب على أهل الحجاز.

وأتاه وزيره يعقوب بن داود بالحسن بن إبراهيم ابن عبد الله واستأمن له فوصله المهدي وأقطعه[3] فكان في ذلك مداواة لجراح العلويين التي ما زالت تدمي منذ أن قتل العباسيون والده بالعراق وعمه بالمدينة.

حركات الزندقة :

قال في لسان العرب : «الزنديق **(القائل ببقاء الدهر)** فارسي معرب وليس في كلام العرب زنديق فإذا أرادت العرب معنى ما تقوله العامة، قالوا ملحد ودهري» وأصله من «**زندكر**».

وقبل الإسلام كانت كلمة الزندقة كثيراً ما يوصف بها أتباع ماني ومزدك وكثرت في العصر العباسي وروجها كثير من الفرس.

---

(١) ابن قتيبة، المعارف، ص ٥٦٢، والساج نوع من الشجر قوي الخشب.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ٥٧.

(٣) المصدر السابق، ذات المكان.

وفي العصر العباسي ترددت كلمة الزندقة على الألسنة كثيراً، وكثر إتهام الناس بها حقًا وباطلاً، ففي العصر العباسي بدأ العلماء يتصلون بدراسة الفلسفة وعلم الكلام والجدال الديني حول المسائل الأساسية في الأديان وكانت هذه المباحث كثيرة في العصر العباسي قليلة في العصر الأموي.

وسبب انتشار الزندقة أن الفرس رأوا أن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين لم يحقق مطالبهم، فقد انتقلوا من يد عربية إلى يد عربية أخرى، وهم يطمحون أن تكون الحكومة فارسية في مظهرها وحقيقتها، في سلطتها ولغتها ودينها، ورأوا أن ذلك لا يتحقق والإسلام في سلطانه، فأخذوا يعملون على نشر أفكار من الديانات القديمة (المانوية[١] والمزدكية[٢] والزرادشية[٣] ظاهراً إن أمكن، وخفية إذا لم يمكن]. فكان ذلك سبب انتشار الزندقة[٤].

ولما كان الموالي الفرس قد أصبح أكثر السلطان في أيديهم وغلبوا على العرب، وكانت لهم ديانات سابقة لم ينسوها جميعًا لما اعتنقوا الإسلام، وكانوا لا يجرءون في الحكم الأموي أن ينبسوا بكلمة، وكان همهم الأول أن يتحرروا سياسيًا لا دينيًا، فكانت دعواتهم السرية واجتماعاتهم، وتدابيرهم للسياسة لا للدين، والزندقة إنما هي في الدين لا في السياسة، فلما نجحوا واطمأنوا وغلبوا بدأت تلعب في رؤسهم الديانات القديمة فكانت الزندقة.

---

(١) ماني ولد ٢١٥م ويتحدث عن النور والظلمة وهما إلاهان للخير والشر وقد امتزج الخير والشر في هذا العالم، وحرم النكاح استعجالاً لفناء العالم ودعا إلى الزهد، ونهى عن ذبح الحيوان لما فيه من إيلام.

(٢) مزدك سنة ٤٨٧م في نيسابور، قال بالنور والظلمة، ولكن أظهر تعاليمه الشيوعية في المال والنساء فجعل الناس شركة فيها كالماء والهواء والنار والكلأ.

(٣) زرادشت من أذربيجان، يقول : هناك إليهين : ١- أهورامزدا وهو للخير ٢ - وأهر من وهو للشر. وهما في نزاع دائم. وكان سنة ٦٠٠ ق.م.

(٤) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج١، ص ١٣٩.

ولم يعرف عن المنصور الإمعان فى تعقبهم ، وكانت سياسته قمع الفتن الظاهرة ، فلما جاء المهدى كان من أظهر المسائل فى تاريخه تنكيله بالزنادقة والفحص عنهم ، وعين لذلك نوظفاً وكل إليه أمرهم سماه « صاحب الزنادقة » .

ومن معانى الزندقة:

١ - هناك زنديق بمعنى التهتك والتفوه بألفاظ ماسة بالدين .

٢ - وعند الخاصة اعتناق الإسلام ظاهراً والتدين بدين الفرس القديم باطناً وخاصة مذهب مانى ومزدك .

٣ وأحياناً نطلق كلمة زندقة على أتباع الفرس من غير أن يعتنقوا الإسلام .

ومن المشاكل الخطيرة التى أثيرت فى عهد المهدى وشغلت كثيراً من وقته حركات الزندقة ، وخاصة فى بلاد فارس وخراسان وأخذت طابعاً سياساً وعسكرياً للتعبير عن روح المقاومة الفارسية للقيادة العربية العباسية.

وكان من أخطر هذه الحركات حركة (المقنع الخراسانى) التى ظهرت فى (مرو) ، وكان المقنع الخراسانى واسمه (عطاء بن حكيم) يعرف شيئاً من السحر عن طريق (التناسخ) ، وقال لأشياعه إن الله سبحانه وتعالى تحول إلى صورة آدم ، ولذلك قال للملائكة : اسجدوا إلا إبليس فاستحق بذلك السخط ثم تحول من آدم إلى صورة نوح عليه السلام ثم من صورة نبى إلى أخر من الأنبياء عليهم السلام والحكماء حتى حصل فى صورة أبى مسلم الخراسانى ، ثم زعم أنه انتقل إليه بعد موت أبو مسلم .

وتجمع حوله كثير من الفرس الذين قبلوا ادعاءه وقاتلوا دونه على الرغم من عظيم ادعائه ، وقبح صورته ، لأنه كان مشوه الوجه أعور ألكن قصيراً ، ومن أجل ذلك كان لا يسفر عن وجهه بل اتخذ قناعاً من الذهب تقنع به ، ولذلك سمى المقنع (١) .

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

ومن أجل اغواء الغوغاء والسواد الأعظم من الناس أسقط عن أتباعه التكاليف كالصلاة والزكاة والحج والصوم، وأباح لهم الأموال والنساء(١).

وعلى الرغم من وضوح فساد دعوة المقنع إلا أن الفرس انضموا إليه كوسيلة للمناوأة لدى أنصار أبي مسلم الخراساني، وقد تيقظ لها المهدي، فأعد العدة للقضاء على المقنع، فأرسل إليه سنة ١٥٩هـ جيشاً قوامه سبعين ألفاً بقيادة (**معاذ بن مسلم**)(٢) وكان المقنع قد اعتصم بقلعة حصينة (**بكش**) بالقرب من بحر قزوين ولما شعر المقنع بالهزيمة أشعل النار في القلعة وأحرق كل ما فيها من دواب وثياب ومتاع، وجمع نساءه وأولاده وبقية أنصاره، وسقاهم شراباً مسموماً وشرب هو منه أيضاً، وقال لهم: «أنا صاعد إلى السماء فمن أراد أن يصحبني فليشرب من هذا الشراب» فماتوا جميعاً، وألقى نساءه وأولاده في النار، ثم ألقى بنفسه فيها خوفاً من أن يظفر أحد بجثته أو جثث أحد من أهل(٣).

ولكن هزيمة هذه الطائفة على هذا النحو ومقتل المقنع لم يضع حداً لانتشار هذه النحلة الفاسدة، واعتنقها نفر من خراسان وما وراء النهر وعرفوا (بالمقنعية)، وهذه الحركة محاولة فارسية للثأر لأبي مسلم الخراساني كغيرها من الحركات الفارسية، كما كان هدفها سلب النفوذ والسلطان من الدولة العباسية.

وأتعبت حركات الزندقة المهدي، ولذلك أوصى ابنه الهادي بعدم التهاون

---

(١) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج٢، ص ١٠٦.

(٢) معاذ بن مسلم له خبرة سابقة في موجهة بعض حركات الزندقة فقد سبق أن وجهه المنصور سنة ١٥٠هـ إلى أستاذ سيس الذي ظهر في هراة (ابن الأثير، ج٥، ٢٨) وتولى معاذ بن مسلم على خراسان سنة ١٦٠هـ بعد عزل أبي عون عبد الملك بن يزيد، (ابن الأثير، ج٥، ص ٥٥) وعزل عن خراسان في سنة ١٦٣هـ (ابن الأثير، ج٥، ص ٦٣).

(٣) انظر: ابن الأثير، ج٥، ص ٨ - ٥٩، ويذكر ابن الأثير أن المهدي عين لحربهم في سنة ١٦١هـ قائداً آخر غير معاذ بن مسلم ينفرد بحربهم هو سعيد الحرشي وأمده معاذ بن مسلم بجيش على رأسه ابنه رجاء بن معاذ وأمده بكل ما احتاج إليه حتى تم النصر.

معهم والشدة في مقاومتهم وقال له : «يا بني إذا صار الأمر إليك فتجرد لهذه العصابة ... وجرد فيها السيف وتقرب بذلك إلى الله»[١].

وكان المهدي أكثر الخلفاء العباسيين إيقاعًا بالزنادقة وتعقبًا لهم، وقد عين موظفًا خاصً لهذا الغرض أسماه «صاحب الزنادقة».

ولقد عادت حركات الزندقة للظهور بشدة أثناء الحروب الأهلية التي اندلعت داخل الدولة الإسلامية أيام الأمين والمأمون وكات تحت قيادة بابك الخرمي الذي قام بثورته في أذربيجان في سنة ٢٠١هـ ولم يستطع المأمون أن يقضي عليها وظلت تؤثر في الدولة إلى أن قضى عليها المعتصم بقوة الأتراك. وسنتحدث عن حركة بابك الخرمي فيما بعد.

موسى الهادي:

تولى الخلافة بعد المهدي ابنه (موسى الهادي) طبقًا لأولوية ولاية العهد ولم يستمر في الحكم سوى عام وثلاثة أشهر، وقيل عنه أنه كان يشرب النبيذ ويجلس مع الندماء في حداثته. ولما تولى الخلافة عين أحد ندمائه وزيرًا له وهو (إبراهيم بن زكوان الحراني)، وكان والده المهدي قد نهاه مرارًا عن مصاحبته وهدده بالعزل من ولاية العهد إذا هو استمر في مصاحبة هذا الشاب الفاسد[٢].

ويروى عنه أنه مع ذلك كان لا يتبع هواه، فيذكر عنه (عبد الله بن مالك) قال : كنت أتولى شرطة المهدي، فكان الخليفة يأمرني بضرب ندماء الهادي ومن يغنون له وحبسهم صيانة له منهم، فكنت أفعل، وكان الهادي يرسل إليَّ بالتخفيف عنهم فلا أقبل، فلما مات المهدي وَوَلِيَ الهادي أيقنت بالتلف، فاستحضرني يومًا فدخلت عليه، فسلمت فقال : (لا سلَّم الله عليك)، أتذكر يوم بعثت إليك في أمر (الحراني) وضربه فلم تقبل قولي؟ وكذلك يوم بعثت

(١) ابن الأثير، ج٥، ص ٨١.

(٢) الجهشياري، ص ١٢٦، وابن طبا طبا، الفخري، ص ١٧٨.

تولى الهادي في المحرم ١٦٩هـ وتوفي في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٧٠هـ

إليك في أمر فلان وفلان، (وعدد ندماءه)، فلم تلتفت إلى قولي؟ قلت نعم، أفتأذن لي في ذكر الحجة؟ قال نعم، قلت ناشدتك الله، لو أنك قلدتني ما قلدني المهدي، وأمرتني بما أمر، فبعث إليّ بعض بنيك بما يخالف أمرك فاتبعت قوله وتركت قولك، أكان يسرك ذلك؟ قال: لا، قلت فكذلك أنا لك، وكذلك كنت لأبيك، فاستدناني، وقال : وليتك ما كنت تتولاه فامض راشداً(١).

وحاول الهادي في فترته القصيرة أن يخلع أخاه هارون الرشيد من ولاية العهد ويوصي بالخلافة لابنه جعفر وهو طفل، وطلب من (**يحيى بن خالد البرمكي**) أن يساعده على ذلك، فقال له : «إن حَمَلْتَ الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وجرأتهم على حل العقود التي تعقد عليهم، ولو تركت الأمر في بيعة أخيك بحاله، وبويع لجعفر ابنك من بعده كان ذلك أوكد لبيعته. فمال الهادي إلى الأخذ برأي يحيى وقال : «**صدقت ونصحت**»(٢) ولكنه عاد إلى محاولة خلع الرشيد مرة أخرى، ولكن المنية عاجلته فنجى الرشيد من محاولاته لخلعه.

ويذكر المؤرخون أن وفاة الهادي لم تكن عادية، وإنما كانت بمؤامرة من مؤامرات القصور المعروفة، وخاصة بعدما فشى في الناس خلاف الهادي مع والدته (**الخيزران**) وكانت – ملكة حازمة يمانية الأصل، أخذت الفقه عن الأوزاعي وكانت من جواري المهدي، واعتقها وتزوجها سنة ١٥٩هـ ولما مات وتولى الهادي انفردت بالأمور وحاول الهادي منعها من ذلك، وكانت امرأة قوية تحب النفوذ وتهوى السلطان(٣)، فأعتقها بعد أن ولدت له الهادي والرشيد قبل عتقها، وكان المهدي قد جعل لها شيئاً من السيادة عليه، فقصدها كثير من أصحاب الحاجات والطامعين في المناصب، وكانت تتدخل لتعيينهم، ولما مات المهدي وتولى الهادي لم يكن

(١) الفخري في الآداب السلطانية لابن طبا طبا، ص ١٦٥ – ١٦٦، وابن الأثير، ج٥، ص ٨٠.

(٢) الجهشياري، ص ٢٦ – ٢٨.

(٣) أعتق المهدي الخيزران أم ولديه الهادي والرشيد سنة ١٥٩هـ [انظر ابن الأثير، ج٥، ص ٥٢] وتزوجها وتوفيت سنة ١٧٣هـ على أيام الرشيد.

مثل أبيه فمنع أمه من مباشرة سلطانها في التوسط لديه وكان شديد الغيرة على حُرَمه، وكانت الخيزران مصممة على الاستبداد بالأمر والنهي فقال لها : «مكانك فاستوعبي كلامي والله، وإلا كنت نفيًا من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي وخاصتي، لأضربن عنقه، ولأقبضن ماله، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك؟ أما لك مغزل يشغلك؟ أو مصحف يذكرك؟ أو بيت يصونك؟ إياك إياك، لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي، فانصرفت وهي مطرقة، ولم تنطق بكلمة، ونبه على حاشيته ورجاله أن يمتنعوا من التردد عليها[1] ولا شك أن هذا يتفق مع الطباع العربية في عدم إعطاء أي دور للنساء في الحياة العامة مهما كانت مكانتهن.

ومن هنا وقفت الخيزران مع الرشيد في أزمته مع أخيه الذي أصر على خلعه من ولاية العهد، وأشيع أن الهادي تعقب والدته حتى يقال إنه حاول أن يسمها فنجت من ذلك، ولكنها أفلحت في قتله عن طريق جارية أوعزت إليها فقتلته بالجلوس على وجهه هو مريض فكتمت أنفاسه، ففارق الحياة، وقيل سمته، وكانت وفاته في ربيع الأول سنة ١٧٠هـ[2] وكانت خلافته سنة وثلاثة أشهر.

والواقع أن الهادي عندما تسلم الخلافة كان مريضًا ويتوقع الجميع وفاته، فلا مجال لهذه الإشاعات التي دارت حول موته ونقلها الطبري في كتابه وسجلها، والذي دعا إلى ترويجها هو موقف الهادي القوي من والدته[3].

ويروي المسعودي أن الهادي لما ثقل في العلة طلب الخيزران فدخلت عليه فقال لها : «أنا هالك في هذه الليلة وفيها يلي أخي هارون. وقد كنت أمرتك بأشياء ونهيتك عن أخرى مما أَوْجَبَتْهُ سياسة الملك، لا موجبات الشرع من

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص ٢٠٦، وابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ٧٩.

(٢) ابن الأثير، ج٥، ص ٧٩، والسيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢٨٠.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٨، ص ٢٠٦.

برك ولم أكن بك عاقًا، بل كنت لك صائنًا وبرًا واصلاً، ثم مات قابضًا على يدها، واضعًا لها على صدره(١)، وهذا مما يتفق وطبيعة الأمومة. وكان الهادي شجاعًا، يكره أن يُحْجَب عن الناس قال للفضل بن الربيع حاجبه لا تحجب عني الناس فإن ذلك يزيل عني البركة، وكان كريمًا بما يشبه أباه في أعطياته. ولم تطل أيامه حتى نستطيع الحكم على أفعاله.

معركة فخ:

كان العلويون قد لزموا الهدوء بالحجاز في عهد المهدي وأصبحوا من الضعف بحيث لم يعد الخليفة يتخوف من ناحيتهم واكتفى بوضعهم تحت المراقبة في العراق والمدينة.

وقد حدث للعلويين بالحجاز حادث في عام ١٦٩هـ أثار غضبهم على الخلافة العباسية، وكان ذلك بالمدينة، بسبب سوء تصرفات والي المدينة **(عمر ابن عبد العزيز بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب)**، فقد قبض على أحد أفراد آل البيت وهو الحسن بن محمد النفس الزكية، ومعه جماعة واتهمهم بشرب النبيذ وقد ذهب الأئمة الثلاثة : مالك والشافعي وأحمد بن حنبل إلى تحريم النبيذ بشتى أنواعه التمر والزبيب والشعير والذرة والعسل وغيرها، وقالوا كلها تسمى خمرًا وكلها محرمة، أما أبو حنيفة ففسر الخمر في الآية بعصير العنب مستندًا إلى المعنى اللغوي لكلمة الخمر وأحاديث أخرى، وأداه اجتهاده إلى تحليل بعض أنواع من النبيذ كنبيذ التمر والزبيب إن طبخ أدنى طبخ وشرب منه قدر لا يُسْكِر. أما إذا أسكر فهو حرام(٢). وليس من فقيه أباح أي نوع من النبيذ وصل إلى حد الإسكار ومن أجل ذلك ضربهم وشهر بآل البيت، حيث قبض عليهم وجعل في أعناقهم حبالاً وطيف بهم في المدينة، وحدث بذلك تشهير كبير بهم مما أثار سخط العلويين فاحتج **(الحسين بن علي بن الحسن بن الحسين بن علي)** من تصرفات

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص ٣٤٣.
(٢) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج١، ص ١١٩ - ١٢٢.

العمري وتجمع حوله كثير من الأنصار، وقصدوا دار الإمارة، وكسروا السجون وأخرجوا من فيها وزادت حماسة الناس فبايعوا الحسين بن علي بن الحسن فزادت جموعه وقصدت هذه الجموع مكة المكرمة، ولما أتى الحسين مكة أمر فنودي أيما عبد أتانا فهو حر فأتاه العبيد وتجمع حوله خلق كثير وبايعوه بالخلافة.

ولما علم الهادي بذلك كتب إلى (**محمد بن إسماعيل بن علي العباسي**)(١) يوليه على حربهم، وقيل إنه ولى لحربهم العباس بن محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس(٢)، فالتقوا في مكة يوم التروية عند مكان يقال له (**وادي فخ**) ويقال هو (**وادي الزهر**) في مدخل مكة على طريق المدينة وبذل العباس الأمان، فقبله الحسين وجماعته، غير أن قادة الجيش العباس ويسمى (**مبارك التركي**) غدر بهم وقتل الحسين وقتل معه في هذه المعركة كثير من آل البيت، ولهذا يُقال لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ، ويسمى الحسين هذا صاحب فخ وقتلوا الحسن بن محمد النفس الزكية غدراً بعد ما أعطوه الأمان.

وقد تفرق العلويون بعد هذه المعركة في الأمصار الإسلامية وكونوا لهم أنصاراً واعتمدوا على قوات لنصرتهم، وغيروا استراتيجيتهم في كفاحهم من أجل الوصول إلى الحاكم فبعد أن كانوا يعتمدون على عواطف أهل الحجاز وحدها بحثوا عن نصراء أقوياء فبعضهم ذهب إلى المغرب، وهو (**إدريس بن عبد الله**) أخو محمد النفس الزكية وأسس بها دولة الأدارسة كما سنذكر ذلك فيما بعد، وذهب أخوه (**يحيى**) إلى طبرستان والديلم، وذهب (**علي بن محمد النفس الزكية**) إلى مصر، وسار (**الحسين بن محمد**) أيضاً إلى اليمن.

---

(١) ابن الأثير، ج٥، ص ٧٥.

(٢) ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ٢٣٧.

تطور الأوضاع في الدولة الإسلامية:

لقد كان لظهور العباسيين أثر كبير في التاريخ الإسلامي لما صحبه من تطور في الحياة الإسلامية، فلم تعد الدولة الإسلامية تهتم اهتماماً مباشراً ببلاد الشام ومنطقة الحدود مع الدولة البيزنطية ومنطقة البحر المتوسط، كما كان الوضع على أيام الدولة الأموية وحدث تثبيت للفتوح في هذه الجبهة إلى أن جاء الأتراك السلاجقة.

وتغيرت الاستراتيجية من الغرب إلى الشرق أي أن اتجاه العباسيين انصب على النواحي الشرقية حيث اتجه العباسيون إلى إكمال فتح بلاد التركستان، وأقاموا علاقات تجارية مع الصين وتم للعباسيين التوسع في السند وتثبيت أقدام الإسلام بها على أيام الدولة العزنوية.

ونمت بحرية إسلامية في المحيط الهندي، ولكنها لم تكن مثل بحرية البحر المتوسط على أيام الأمويين، حيث كان الغالب عليها الطابع التجاري ونشطت التجارة في موانى الخليج العربي والبحر الأحمر بالتجارة مع الشرق وأصبح ميناء البصرة من أهم الموانى العالمية تتجمع فيها تجارة الشرق وتخرج منها الرحلات البحرية التجارية إلى موانى الشرق كله وأيضاً من عدن وجدة والسويس متجهة إلى جنوب شرقي آسيا وإلى الهند وإلى شرق أفريقيا(١).

ولقد لعب التجار المسلمون دوراً بارزاً في التاريخ الإسلامي حيث انتشر الإسلام عن طريقهم في بلاد جنوب شرقي آسيا وبلاد شرق أفريقيا بالوسائل السلمية فلم تذهب جيوش إسلامية إلى هذه المناطق لنشر الإسلام وإنما انتشر عن طريق التجار المسلمين.

وفتحت الأبواب أمام التأثيرات الشرقية في الدولة الإسلامية، ونخص بالذكر منها التأثيرات الفارسية والهندية والصينية، وكان لامتداد النفوذ الإسلامي إلى الشرق الأقصى أثره في إتاحة الفرصة أمام الحاصلات

(١) حسن محمود، مرجع سبق ذكره، ص ٦٨ - ٦٩.

والسلع الشرقية ونتج عن هذا رواج اقتصادي كبير استفادت منه الجموع الفقيرة من الطبقة الوسطى التي اعتمدت عليها الثورة العباسية.

وبدأ (الفرس) يرنون إلى تحقيق شخصيتهم في المجال السياسي وكانوا قد حققوا كثيراً من المكاسب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في العصر الأموي بسبب اشتغالهم بالصناعات التي كان يأنف منها العرب وتوفروا هم عليها فحققوا عن طريقها مكاسب طائلة مكنتهم من أن يصبحوا أصحاب رؤس أموال ضخمة.

وهاجر (الموالي) إلى كثير من المدن العربية في الشام والحجاز والعراق، وكان تركيزهم في البصرة والكوفة في العصر الأموي وزادت كثافتهم في العراق في العصر العباسي، وأنشأوا أحياء جديدة باسمهم حول المدن العربية لخدمة الأسر العربية الثرية في النواحي الفنية والصناعية.

ويذكر البلاذري في فتوح البلدان أن(زياد بن أبيه)في فترة حكمه للعراق سير بعضهم إلى بلاد الشام بأمر معاوية، فهم بها يدعون بالفرس، وسير منهم قوماً إلى البصرة، وكذلك يذكر البلاذري أن من أسلم منهم بعد فتح قزوين أتوا إلى الكوفة فأقاموا بها[1] وقد اكتسب هؤلاء المهاجرون أرباحاً ضخمة عن طريق الحرف والصناعات والتجارة لأن العرب كانوا أرباب سيف ويعملون بالفتوحات وتركوا لهم هذا المجال فدخلوه من أوسع الأبواب.

ومن ناحية أخرى كان لهؤلاء الموالي تأثير كبير في (النواحي الثقافية) بجانب الحصول على الثروة، فكان هؤلاء الموالي أسرع من غيرهم في مجال التطور الثقافي، وسرعان ما ظهر منهم علماء كبار في ميادين الفقه والأدب واللغة والتاريخ وغيرها من العلوم الإسلامية.

وتركزت مدنية الإسلام في العراق والشام ومصر، وعلى الأخص في البصرة والكوفة ودمشق والفسطاط في العصر الأموي، وأضيفت بغداد في العصر العباسي، لكن برز بشكل واضح نشاط كل من البصرة والكوفة

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ٣٤٣ - ٣٤٤.

وصار أكثر سكان العراق من الموالي الفرس والعرب أقلية[1] وكان هؤلاء الموالي يحالفون العرب ويدخلون في ولائهم لحمايتهم ويعدونهم سادتهم، ويتعصب كل جماعة منهم للقبيلة التي حالفوها من العرب.

وتحولت العصبية في البصرة والكوفة من عصبية قبلية إلى عصبية للمدينة التي سكنوها، فعرب الكوفة ومواليها يتعصبون للكوفة، وعرب البصرة ومواليها يتعصبون للبصرة، فهناك البصريون والكوفيون في النحو، والبصريون والكوفيون في الفقه، وكذلك في الشعر والأدب وعلم الكلام والمذاهب الدينية[2].

وبدأ الموالي ينتجون ويتقدمون في شتى العلوم الإسلامية، ومن ثم بدأوا يبحثون عن المساواة مع العرب في كل المجالات، وهذه الطبقة الجديدة، كانت عمود الدعوة العباسية، وستلعب دورًا بارزًا في التاريخ العباسي.

ولم يكن الموالي من الفرس بل كان منهم عراقيون وسوريون (شاميون) ومصريون وبربر.

وكان مما ساعد على تقدم هذه القوى ضعف العرب بالانقسام على أنفسهم إلى قحطانية وعدنانية في نهاية العصر الأموي، مما أتاح فرصة للموالي أن يحتلوا مكان العرب وعلى الأخص الموالي من الفرس لكثرتهم وتكتلهم وتقدمهم في شتى المجالات، ولذلك استعان بهم العباسيون في ضرب الدولة الأموية، وعندما ضربت الدولة الأموية بمعونتهم احتلوا مكانًا عليًا في الهيئة الاجتماعية في الدولة الإسلامية في العصر العباسي، فكان منهم القواد والوزراء والكتاب.

وكان (أبو مسلم الخراساني) قائدًا بارزًا لهذه الدولة النامية من

(١) أحصى العرب من تجب عليه الجزية على أيام عمر في العراق فكانوا (٥٥٠٠٠٠ نسمة) هذا عدا من أسلموا من الفرس، ولم تجب عليهم الجزية. [أحمد أمين، فجر الإسلام، ١٨١].

(٢) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص ١٨١.

الموالي الذين ظهروا على سطح الحياة الإسلامية وآلت إليهم الأمور(١) وكان أبو مسلم مقدمة للبرامكة والطاهريين والبويهيين وعلى الرغم من ظهور الفرس في العصر العباسي الأول ودخولهم في الجندية وتحقيقهم لكثير من المكاسب على حساب العرب غير أنهم لم يطغوا على الخلافة في العصر العباسي الأول، وصار مقام الخلافة محفوظًا في عهدهم.

خلافة هارون الرشيد:

تولى هارون الرشيد بعد موت الهادي من ١٧٠ - ١٩٣هـ(٢) وتعتبر هذه الفترة من أعظم فترات التاريخ العباسي من حيث قوة الدولة ومن حيث الحضارة والرقي العلمي الذي ساد الدولة وفي عهده بلغت العاصمة بغداد درجة لم تصل إليها من قبل فقد أصبحت ملتقى رجال العلم والأدب ومركز للتجارة، وسادت المظاهر الفارسية في نظام الحكم والحياة الاقتصادية والاجتماعية.

فقد ظل نظام الحكم في الدولة العباسية استبداديًا منذ قيام الدولة إلى عهد الرشيد، فقد كان الخليفة هو مصدر كل سلطة ومرجع كل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة، ومنذ عهد الرشيد تغير الوضع فأصبح الوزير ساعد الخليفة الأيمن، وتولى الوزارة يحيى بن خالد البرمكي.

وحين قلد الرشيد يحيى قال له : [قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت واعزل من رأيت، وامض الأمور على ما ترى] ثم دفع إليه خاتمه الخاص، حتى صار بيده الحل والعقد في كل شئون الدولة. وهذا هو الذي جعل الناس ينصرفون إلى البرامكة دون الخليفة مما مهد لنكبتهم.

وزادت سلطة الخيزران فأطلق لها الرشيد العنان في كثير من الأمور فأصبحت تنظر في الأمور، وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن رأيها إلى

(١) حسن أحمد محمود، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٨٣ - ١٠٨.

(٢) ولد الرشيد بالري سنة ١٤٥هـ وفي سنة ١٦٦هـ عينه والده المهدي وليًا للعهد بعد أخيه الهادي.

أن توفيت سنة ١٧٣هـ(١) فورثت زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوج الرشيد مكانتها، وبذلك استمر مسلسل تدخل النساء في شئون الحكم وسنرى أنه سيزداد ويصبح خطراً على الدولة في حالة ضعف لخلفاء وقوة النساء الأجانب وخاصة في عهد سيطرة الأتراك.

وعصر الرشيد طويل مليء بالأحداث، والموضوعات التي تستحق الدراسة، ولكننا سنضطر إلى إيجاز القول فيه بقدر الإمكان.

ومن أهم الموضوعات التي تستحق الدراسة في عنصر هارون الرشيد، موضوع نجاح بعض العلويين في إنشاء دولة علوية في المغرب الأقصى، وهو إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن أخو محمد النفس الزكية في سنة ١٧٢هـ.

فقد استطاع (**إدريس**) الفرار إلى المغرب بعد أن أحكم العباسيون قبضتهم على الحجاز في أعقاب (**معركة فخ**)، فقد ضيقوا الخناق على العلويين، ففر إدريس إلى المغرب بعد أن استوثق من نصرة البربر له، وعاونه على الذهاب إلى المغرب رجل شيعي كان على بريد مصر يسمى (**واضح**) وهو جد المؤرخ أحمد بن واضح اليعقوبي وهو مولى صالح بن المنصور، فحمله على البريد إلى أرض المغرب، فوصل بأمان إلى المغرب الأقصى على الرغم من شدة المراقبة العباسية، وقد أحسن استقباله بالمغرب (**اسحق بن محمد**) أحد رؤساء القبائل البربرية(٢) وقد وصل إلى وليلة وليس معه إلا خادم واحد.

والتف البربر بالمغرب حول (**إدريس**)، فكون أول دولة للعلويين وهي دولة الأدارسة سنة ١٧٢هـ، بذلك تم خروج إقليمين مهمين عن الخلافة العباسية، وهما بلاد الأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية الأموي، وبلاد المغرب الأقصى على يد إدريس بن عبد الله.

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١٤، ص ٤٣٠ - ٤٣٢.

(٢) ستانلي لين بول، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، ترجمة أحمد السعيد، ج١، ص٤٣.

وبويع إدريس بن عبد الله في مدينة **(وليلة)**[١] بالمغرب سنة ١٧٢هـ، وبدأ يوسع نفوذه في بلاد المغرب على حساب الدولة العباسية ولكن كيف نفسر هذا الترحيب من البربر الذين توافدوا عليه بكثرة، وولوه سلطانًا عليهم بعد بضعة أشهر من وصوله وهو رجل أجنبي عنهم لغة ونسبًا؟

كان الإسلام قد انتشر في تكل الأصقاع بجهود الفاتحين الأوائل وكان الإسام قد مد جذوره منذ سنوات في صورة مذهب الخوارج وتغلغل في عدد من القبائل، فكانت فرصة عظيمة للمسلمين المتحمسين في جبال المغرب الأقصى أن يستطيعوا استقبال سبْط من أسباط الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن يقيم بينهم، وكان من المفهوم أيضًا أن يجعلوه زعيمًا لهم، لأنه جمع إلى فضل النسب كونه خصمًا للدولة العباسية، وأنهم وجدوها فرصة للاستقلال وأهل هذه النواحي نزاعون للاستقلال باستمرار، ومجبولون على المكايد والحروب والصراع.

وبغير هذا لا نستطيع أن نفسر انتصارات إدريس السريعة بمساعدة زعماء أشداء من البربر مما جعله يُخضع الجزء الأكبر من المغرب الأقصى في أقل من ثلاث سنوات.

ولما بلغ هارون الرشيد أن أمر إدريس قد أضحى خطيرًا ببلاد المغرب، وكثرت جنوده وفتح **(تلمسان)**، وأنه عازم على الزحف على افريقية أراد إرسال جيش إليه للقضاء عليه، ولكنه تردد في ذلك لبعد بلاد المغرب عن عاصمة الدولة، فاختار أسلوب الحيلة للقضاء على إدريس، فكلف رجلاً يمتاز بالدهاء والحيلة وهو **(سليمان بن جرير المعروف بالشماخ اليماني)**، وطلب منه أن يحتال في قتل إدريس، وزوده بالمال الذي يستعين به على ذلك، فسافر هذا الرجل واتصل بإدريس وادعى أنه ملتجئ إليه تبرمًا من الدولة العباسية، فقبله إدريس بحسن نية، وأعجب بحديثه، وانتهز الرجل

---

(١) وليلة : مدينة بالمغرب قرب طنجة، وتكب أيضًا «وليلى» كما ذكرها ياقوت، وهي أول مستقر لإدريس بالمغرب إلى أن مات بها مسمومًا، (ياقوت).

الفرصة ودس السم لإدريس في دواء وفر هارباً، ومات إدريس على إثر ذلك، وكانت وفاته سنة ١٧٧هـ[١]، وكافأ الرشيد الشماخ بتعيينه على بريد مصر بدلاً من واضح مولى صالح بن المنصور الذي ساعد إدريس على الوصول إلى المغرب.

ولم يكن لإدريس ولد، وكانت له جارية في حالة حمل منه فوضعت ولداً أسموه (إدريس الثاني)، وبايعوه بالخلافة عندما كبر، واستمرت دولة الأدارسة بفضل مؤازرة البربر التي لم تضعف حتى سنة ٣٦٤هـ[٢] وسنتوسع في تاريخها عندما نتناول الحركات الانفصالية في العالم الإسلامي.

ولما يئس الرشيد في محاولاته ضد الأدارسة بالمغرب حاول تدعيم قوة الأغالبة بإفريقية الذين تأسست دولتهم سنة ١٨٤هـ كدولة حاجزة لهم في تونس لتحجز إفريقية عن المغرب الذي اشتدت فيه قوة الأدارسة بمعاونة البربر. وزادت فيه قوة الخوارج في المغرب الأوسط.

واستطاع (**يحيى بن عبد الله**) أخو إدريس أن يفر إلى طبرستان ببلاد الديلم، فاعتبره أهلها أحق بالخلافة وبايعوه سنة ١٧٦هـ ونحن شاهدنا المحاولات المضنية التي قام الفرس بها من قبل للانتقام من الدول العباسية، فوجدوها فرصة أيضاً في استقبال سبط من أسباط الرسول عليه الصلاة والسلام ينائون الدولة به، وهو الذي جمع إلى شرف النسب كونه خصيماً لدوداً للدولة العباسية التي يحاول الفرس الانتقام منها بكل الوسائل. وبذلك ظهر أمره بسرعة إلى أن أصبح يهدد الدولة العباسية في المشرق وأقلق الرشيد أمره، وفكر في حيلة أيضاً للقضاء عليه وعلى دعوته، فولى (**الفضل ابن يحيى البرمكي**) بلاد الديلم وأرسل معه ٥٠ ألف جندي لمحاربته،

(١) ابن الأثير، ج٥، ص ٧٦.

(٢) حسن إبراهيم، ج٢، ص ١٤١ - ١٤٢، ومحمد الخضري، الدولة العباسية، ص ١٠٤، وحسن أحمد محمود، ٤٠٨.

والقضاء على حركته[1] وولاه جرجان وطبرستان والري.

ونجح الفضل في الإيقاع بيحيى عن طريق الخديعة، وأتاه من ناحية غير ناحية الحرب، فكاتبه ولاطفه وحذره وأمله بالعفو عنه، ومن ناحية أخرى كاتب (**صاحب الديلم**) وبذل له ألف ألف درهم على أن يسهل له خروج يحيى بن عبد الله فأجاب يحيى إلى الصلح، على أن يكتب له الرشيد أمانًا بخطه يشهد عليه القضاة والفقهاء وكبار بني هاشم ومشايخهم فأجابه الرشيد إلى ذلك.

ولقد عظمت منزلة الفضل عند الرشيد بسبب النجاح في القيام بهذه المهمة دون إراقة دماء، ودون أن تتكلف الدولة شيئًا، وكان الرشيد مسرورًا بذلك، وأرسل الرشيد الأمان إلى يحيى ومعه الهدايا والتحف ليحيى، فقدم يحيى مع الفضل إلى بغداد، فلقيه الشريد بالترحاب، وأمر له بمال كثير، وأجرى عليه الأرزاق وأنزله منزلاً يليق به، لكن الرشيد تغير خاطره عليه فسجنه ومات في السجن[2] وكان ذلك التغير الأخير بسبب سعاية رجل من أولاد الزبير بن العوام[3] بيحيى بن عبد الله عند الرشيد، واتهامه بأنه أخذ يدعوا إلى نفسه بعد إعطائه الأمان[4].

الخوارج بالمشرق:

نظر الخوارج إلى خلفاء العباسيين نظرتهم إلى خلفاء بني أمية كلهم لا يصلح للخلافة، ولم تختره الأمة اختيارًا حرًا صريحًا، ولم يستوف الشروط التي يجب توافرها في الإمام، وكلهم يجب الخروج عليه وقتله وعزله إن أمكن وقتله.

وظلت هذه العقيدة لديهم في العصر العباسي إلا أن قوتهم في هذا

---

(١) الطبري، ج٨، ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

(٢) ابن الأثير، ج٥، ص ٩٠.

(٣) هو بكار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، وكان يكره العلويين.

(٤) ابن طبا طبا، الفخري، ١٧٦ - ١٧٧.

العهد لم تكن كفتهم في العصر الأموي لأن الأمويين فتكوا بهم (**المهلب بن أبي صفرة من طرف الحجاج**) وعندما أتت الدولة العباسية حاربوها في المغرب وعمان والجزيرة، وفي عهد الرشيد خرج على الدولة العباسية بعض الخوارج بقيادة (**الوليد بن طريف الشيباني**)(١)، وكان ذلك بنواحي أرض الجزيرة بالعراق سنة ١٧٨هـ واشتدت هجمات الوليد في الجزيرة وأرمينية وهزم للدولة العباسية كثيراً من الجيوش، وكثر أتباعه، واهتم هارون الرشيد بالقضاء عليه.

وكانت حجة الوليد ومن معه للخروج على الدولة أنهم كانوا يَنْعُونَ على خلفاء الدولة العباسية جَوْرَهم واستبدادهم وخروجهم عما توجبه الأوامر الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله، وقد اتصل أمرهم من لدن أن خرجوا على علي بن أبي طالب إلى زمن الرشيد، إلا أن خلفاء بني أمية قد اخفتوا صوتهم بما كانوا يجردون لهم من الجيوش على يد أمهر القواد (**كالمهلب بن أبي صفرة**) وغيره، ولكنهم لم يستأصلوا شأفتهم فخرج منهم أيام الرشيد الوليد بن طريف هذا، وكان الوليد بطلاً شجاعاً دوخ جيوش الدولة ولم يستطع الرشيد القضاء عليه إلا عندما كلف رجلاً من شيبان أيضاً للقضاء عليه هو (**يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني**)(٢) وهو ابن أخ لمعن بن زائدة الشيباني فلما إصْطَفَّ الجيشان للحرب ناداه يزيد بقوله : يا وليد ما حاجتك إلى التستر بالرجال أبرز إليَّ، فقال له : نعم والله، وبرز له وهو يقول :

أنا الوليد بن طريف الشاري * قسورةٌ لا يُصْطَلى بناري

جَوْرُكُم أخرجني من داري

---

(١) هو من بني شيبان بن تغلب (ابن الأثير) ج٥، ص ٩٧ بن ثعلبة من بكر بن وائل، وأكثر الخوارج في ربيعة منهم. وربيعة متهمة دائماً بمنافسة مضر منذ بعث الرسول عليه الصلاة والسلام فيهم. وعلى الرغم من إسلامهم واشتراكهم في الفتوح إلا أنهم ظلوا معارضين للدولة الإسلامية، وظلوا مطية للخوارج بل قواداً لهم، وعندما ظهر القرامطة فيما بعد كانوا يعتمدون عليهم في قواتهم.

(٢) كان يزيد عاملاً على أرمينية وعزل عنها سنة ١٧٢هـ الطبري، ج٨، ص ٢٣٦.

فقضى يزيد عليه بعد مبارزة طالت واحتز رأسه وأرسله إلى الرشيد وتفرق رجاله[1]، فقال شاعر منهم :

وائلٌ بَعْضُها يقتل بَعْضاً * لا يَفُلُّ الحديد إلا الحديدُ

وقالت (فارعة) أخت الوليد من قصيدة من أهم قصائد الرثاء :

أيا شجر الخابور مالك مُورقًا * كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يُحب الزاد إلا من التقى * ولا المال إلا من قنا وسيوف[2]
ألا يالقومي للحمام وللبلى * وللأرض همت بعده برجوف
ألا يالقومي للنوائب والردى * ودهرٍ مُلِح بالكرام عنيف
وللبدر من بين الكواكب إذ هوى * وللشمس لما أزمعت بكسوف
ولليث كل الليث إذ يحملونه * إلى حفرة ملحودة وسقيف
ألا قاتل الله الحشا حيث أضمرت * فتى كان للمعروف غير عيوف
فإن يك أرداه يزيد بن مزيد * فرب زُحوف لفها بزحوف
عليه سلام الله وقفاً فإنني * أرى الموت وقاعًا بكل شريف[3]

وهكذا كانت ثورات الخوارج في الجزيرة وعمان وانتصر فيها العباسيون ما عدا ثورتهم بالمغرب فقد بقيت لهم به قوة حتى قيام الدولة الفاطمية. وكانت هذه الهزائم المتوالية للخوارج سببًا في ضعف أمرهم وقلة شأنهم.

وحدثت بعض القلاقل في الشام بين القبائل العربية وأهاجت العصبية بين (النزارية) و(اليمانية) وقتل من الفريقين خلق كثير، وكانت الدولة العباسية قد تركت هذا النزاع في البداية وابتعدت عنه فترة لعلمها بعدم

(١) كان ذلك سنة ١٧٩ على مقربة من الأنبار، ودفن بمكان يقال له : تل نهاكي.

(٢) الطبري، ج٨، ص ٢٦١.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٦، ص ٣٢ - ٣٣ وفي ابن الأثير أن أخت الوليد اسمها : ليلى (ج٥، ص٩٨).

إخـلاص هؤلاء للدولة العباسية، ولكن الرشيد تدخل في هذا النزاع، وعين (**موسى بن يحيى**) ابن خالد البرمكي فأصلح بين أهلها، وسكنت الفتنة، واستقام أمر الشام(١).

ووقعت في خراسان بعض المشاكل والفتن، وثار أهلها على واليها (**علي ابن عيسى بن ماهان**) بسبب اغتصابه الأموال من الأهالي، فكتبوا إلى الرشيد يستغيثون به، فعين عليهم (**الفضل بن يحيى البرمكي**) سنة ١٧٨هـ فأصلح بعض أمور خراسان، ولكن استمرت مشاكل خراسان حتى أيام المأمون(٢).

الرشيد وولاية العهد:

يذكر الطبري أنه في سنة ٧٥هـ ولي الرشيد عهده لابنه محمد ولقبه (**بالأمين**)، على الرغم من أن سنه يومئذ كان خمس سنين وكان ابنه عبد الله (**المأمون**) أكبر منه سنًا، إلا أن الأمين كانت أمه من البيت العباسي فهي (**زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور**)، أما المأمون فكانت أمه في الأصل جارية من بلاد فارس تسمى (**مراجل**)، أعتقها الرشيد وتزوجها فأنجبت له المأمون.

تزوجت زبيدة الرشيد سنة ١٦٥هـ وكان اسمها (**أمة العزيز**) ولقبها جدها المنصور زُبَيْدَة لنضارتها، وقد باشرت زبيدة على الرشيد سلطتها وكانت لها كلمة في البلاط العباسي بعد موت الخيزران أُمُّهُ سنة ١٧٣هـ، وكان لزبيدة سلطان أقوى نظرًا لحسبها ونسبها، وخاصة عندما أنجبت ابنه محمد المهدي فأخذت تعده للخلافة على الرغم من أنه أصغر من المأمون. وأصبح في البلاط العباسي حزبان أساسهما النساء :

فالأول : حزب زبيدة ومعه الفضل بن الربيع ويفضل الأمين على المأمون وهو الحزب الأقوى ومن ورائه أفراد البيت العباسي وبنو هاشم والعرب.

---

(١) الطبري، ج٨، ص ٢٥١.

(٢) الطبري، ج٨، ص ٢٥٧.

والثاني : حزب مراجل والدة المأمون ومعها الفضل بن سهل وآل برمك غير أنهم لا يظهرون ميلهم إلى مراجل الفارسية ويتعقلون في هذا المجال، ومن ورائهم جمهور غفير من رجال البلاط الفرس. ومع ذلك فهم الحزب الأضعف إلى أن مال معهم الرشيد في نهاية حياته فرجحت كفتهم.

ومع أن الرشيد رضي بضغط زوجته زبيدة والجناح الموالي لها في البيت العباسي والبلاط ومنهم الفضل بن الربيع وبنو هاشم إلا أنه كان في قرارة نفسه غير راض عما حدث لرجحان عقلية المأمون لديه على أخيه الأمين، وقوة شخصيته، وكان يرى فيه صورة للخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، ولذلك لم تطب نفسه إلا بعد أن عهد للمأمون بعد الأمين.

ففي سنة ١٨٢هـ طلب الرشيد (يحيى بن برمك) وقال له : «يا أبا الفضل إني قد عُنيتُ بتصحيح هذا العهد وتصييره إلى من أرضى سيرته، وأحمد طريقته، وأثق بحسن سياسته، وآمن ضعفه ووهنه هو عبد الله، وبنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم، وفي محمد ما فيه من الانقياد لهواه، والتصرف مع طويته، والتبذير لما حوته يده، ومشاركة النساء والإماء في رأيه، وعبد الله المرضي الطريقة، الأصيل الرأي، الموثوق به في الأمر العظيم، فإن ملت إلى عبد الله اسخطت بني هاشم، وإن أفردت محمداً بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية فأشر عليّ في هذا الأمر برأيك»(١).

فاستبعد يحيى البرمكي فكرة إلغاء العهد الذي أخذه الأمين واتفق مع الرشيد في النهاية على عقد الأمر لعبد الله بعد محمد ولقبه بالمأمون. وأخذ البيعة بالرقة من الجند، ثم في بغداد بعد ذلك، وولاه على المشرق أي بلاد خراسان وما والاها. وكان معه أكثر جند الدولة، أما الأمين فكانت له ولاية المغرب أي من العراق ومصر وبلاد شمال أفريقيا(٢).

فأحست زبيدة بأن ابنها الأمين في موقف ضعف فدخلت على الرشيد

---

(١) المسعودي، ج٢، ص ٣٦٣.

(٢) الطبري، ج٨، ص ٢٤٠.

وقالت له : ما أنصفت ابنك محمداً حيث وليته العراق وأعريته عن العدد والقواد، وصيرت ذلك إلى عبد الله دونه، فقال لها : «وما أنت وتميز الأعمال واختيار الرجال؟ إني وليت ابنك السِّلْم، وعبد الله الحرب، وصاحب الحرب أحوج إلى الرجال من المسالم، ومع هذا فإنا نتخوف على عبد الله، ولا نتخوف عبد الله على ابنك إن بويع»(١).

ثم طلب (**عبد الملك بن صالح بن علي العباسي**) من الرشيد سنة ١٨٦هـ أن يبايع الرشيد لثالث أولاده، وهو (**القاسم**)، فبايع له بعدها وسماه المؤتمن وولاه الجزيرة والثغور والعواصم(٢).

ويذكر الطبري أن الرشيد لما ولى عهده لثلاثة من ابنائه على النحو الذي سلف قال بعض العامة : قد أحكم أمر الملك، وقال بعضهم : «بل ألقى بأسهم بينهم، وعاقبة ما صنع في ذلك مُخوِّفةٌ على الرعية» وسنرى نتيجة ذلك في الأحداث القادمة.

وحج هارون الرشيد في سنة ١٨٦هـ ومعه ابناه الأمين والمأمون وقواده ووزراؤه وقضاته، فلما قضى مناسكه كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين أجهد الفقهاء والقضاة أنفسهم فيهما.

أحدهما : على محمد الأمين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ما ولى لعبد الله من الأعمال والضياع والغلات والجواهر والأموال.

والآخر : نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهما للقاسم، وجعل الكتابين في البيت الحرام بعد أخذه البيعة على محمد واشهاده عليه الله وملائكته، ومن كان في الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم، وطلب من حجاب الكعبة منع من أراد إخراجهما والذهاب بهما.

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص ٣٦٣.

(٢) الطبري، ج٨، ص ٢٧٦ وابن خلدون، العبر، ج٣، ص ٢٧٩ وص ٢٨٢ - ٢٨٣ - ٢٩٠ - ٣٠٠.

ونص في الكتاب الأول على أنه : «ليس لمحمد بن أمير المؤمنين هارون الرشيد ولا لعبد الله بن أمير المؤمنين أن يخلعا القاسم بن أمير المؤمنين ولا يقدما عليه أحداً من أولادهما، وقراباتهما ولا غيرهم من جميع البرية».

ولكنه جعل الأمير في يد عبد الله المأمون إذا ولى الأمر إن شاء ترك العهد للقاسم بعده أو صرفه إلى من رأى من ولده وإخوته وتقديم من أراد تقديمه[1].

نكبة البرامكة:

أقام العباسيون سياستهم على أساس إتاحة الفرصة أمام الفرس للوصول إلى أرقى المناصب في الدولة ومساواتهم سياسياً واقتصادياً واجتماعياً بالعرب، والقضاء على مظاهر الفرقة التي كانت موجودة أيام الدولة الأموية، والتي تستر الفرس وراءها لإثارة القلاقل في داخل الدولة الإسلامية، وكان من مظاهر السياسة العباسية الجديدة وصول كثير من الكفاءات الفارسية إلى مراتب الوزارة لدرجة أن الوزارة أصبحت حكراً عليهم.

فكان منهم أبو سلمة الخلال (**حفص بن سليمان**) وهو أول وزير عباسي وأبو أيوب الموریاني[2] (**سليمان بن مخلد وزير المنصور**)، ويعقوب بن داود[3] وزير المهدي، ويحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد. وابناه الفضل ثم جعفر. وقد استحوذ الفرس على هذه المناصب أيضاً في ظل الدويلات التي نشأت في الفترة العباسية ولها نوع من الاستقلال. مثل الدولة الطاهرية والسامانية والغزنوية والبويهية والسلجوقية.

وكانت العرب تفضل السيف على القلم، فقد قال بعضهم :

تعنـــو له وزراء المُلْك راغمةً * وعادة السيف أن يستعبد القلم

---

(١) الطبري، ج٨، ص ٢٧٧ - ٢٨٢.

(٢) نسبه إلى موريان قرية من قرى الأهواز.

(٣) هو من خراسان.

وعلى الرغم من استحواذ الفرس على مناصب الوزارة والكتابة والقيادة فإن هذه المناصب لم تقنع الفرس، وتطلعوا لأكثر منها، وبدأوا في العمل على الإضرار بمصالح الدولة العباسية بمساعدة الخارجين عليها شراً وذلك مثل تعاطفهم مع الثوار العلويين والزنادقة، وعندما اعتمدت الدولة العباسية على الفرس في إدارة شئونها وعلى الأخص في مناصب الوزراء، حاول هؤلاء الوزراء إدارة الدولة بنفس النظام الذي كانت تدار به الدولة الساسانية، فاحتجب الخليفة عن الرعية واتخذ الحاجب، واتخذ الوزير لمساعدته في شئون الإدارة، ومخاطبة الناس، وألزم هؤلاء الموظفون الداخل على الخليفة أن ينحني أمامه، وهذا التقليد من تقاليد ملوك الفرس، ولم يكن موجوداً في العصر الأموي، وألزموا الداخل على الخليفة أن يلزم الصمت ولا يبدأ مع الخليفة بحديث إلا إذا بادره الخليفة بالحديث، وإلا ظل صامتاً، وهذا أيضاً لم يكن من التقاليد الإسلامية في العصر الأموي.

وكان الخلفاء العباسيون إذا بدت لهم بادرة انحراف أو استبداد من الوزراء عصفوا بهم قبل أن يستفحل أمرهم، فهذا هو (**يعقوب بن داود الخراساني**). وزير المهدي والذي منحه المهدي كل ثقته إلى أن صار هو المتصرف في كل الشئون، كان يحابي الزيدية في المناصب وقام بتشجيع العلويين على أعمالهم وإطلاق سراحهم من السجون ولما أيقن الخليفة المهدي أنه يضر بمصالح الدولة، ووصل أمره إلى الاستبداد بأوضاع الخلافة عزله وسجنه في سنة ١٦٦هـ[(١)].

و (**أسرة البرامكة**) الذين خدموا الدولة العباسية منذ نشأتها يرجع أصلهم إلى (**برمك**) الذي كان سادناً للمعبد المجوسي في (**بلخ**) والذي يسمى (**النوبهار**) وهو بيت النار التي كانت المجوس تعبدها كان جدهم برمك* وأسرته يدينون بالمجوسية

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ٦٦.

* برمك : صفة تطلق على كل من كان لي في الزمن القديم سدانة معبد قريب من مدينة بلخ يقال له =

دين الفرس القديم(١)، وأسلم بعضهم، وظهر منهم في أوائل الدولة العباسة (خالد بن برمك) الذي تقلد الوزارة في عهدي السفاح والمنصور(٢)، واتخذ هارون الرشيد (يحيى بن خالد) كاتبًا له ومدبرًا لشئونه قبل خلافته(٣)، وأصبح يحيى وزيرًا للرشيد بعد أن ولي الخلافة، وكان مفوضًا في شئون الخلافة، فقد قال له الرشيد عندما ولاه الوزارة ولاية تفويض : «يا أبت أنت أجلستني في هذا المجلس ببركتك، ويمنك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك الأمر، ودفع له خاتمه»(٤).

واستعان الرشيد بأولاد يحيى في مهام الأمور وشئون الولايات كما رأينا، وهم الفضل وجعفر وموسى ومحمد.

فأما (الفضل) فهو أكبر الأخوة وسنه من سن الرشيد، وبلغ من صلة هذه الأسرة بالبيت العباسي أن (الخيزران) أم الرشيد أرضعت الفضل بلبانها، كما أرضعت أم الفضل الرشيد، ولهذا كان الرشيد يدعو يحيى بقوله : «يا أبت» «ويقال إنه كان بدار الرشيد من أولاد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسًا ما بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل

= النوبهار، والسدانة عبارة عن الكاهن الأول في المعبد. وهذا المعبد من المؤسسات الكبرى التي أنشئت في الزمن السابق للإسلام، ويظهر أنه كان يتخذ في الأصل للعبادة البوذية أي الديانة الهندية القديمة، ولكن الفرس جعلوه بيتًا من بيوت النار للتعبد فيها حسب الديانة الزرادشية القديمة. [علي إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي العام، ص ٣٨١].

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص ٢٧ - ٣٦، ج٦، ٢١٩ - ٢٢٩.

(٢) المصدر السابق، ج٦، ص ٢١٩ - ٢٢٠ وكانت وفاة خالد بن برمك سنة ١٦٣هـ وقيل سنة ١٦٥هـ ابن خلكان، ج١، ص ٣٣٢.

(٣) يذكر ابن خلكان أن المهدي كان قد دفع إلى يحيى بابنه هارون الرشيد وهو صبي لتربيته، وجعله في حجره، فلما استخلف هارون عرف له حقه، ج٦، ص ٢٢١ وكان يحيى من العقلاء البلغاء، ومن كلامه : ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها : الهدية، والكتاب والرسول. وكان يقول لولده : أكتبوا أحسن ما تسمعون، واحفظوا ما تكتبون، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون (ابن خلكان، ج٦، ص٢٢١).

(٤) ابن خلكان، ج٦، ص ٢٢١.

الدولة بالمناكب»[١] ولما ولد الأمين عهد الرشيد إلى الفضل بتربيته. وذلك لما عرف عن الفضل من أخلاق فاضلة، وكان أكرم من أخيه جعفر، وكان هارون الرشيد قد ولاه الوزارة قبل أخيه جعفر لهذا، ولما اشتدت صلة الرشيد بجعفر وأصبح جليسه وهواه يتفق مع هواه رغب في نقل الوزارة إليه من الفضل، فقال ليحيى: «يا أبت إني أريد أن أجعل (الخاتم) الذي لأخي الفضل لجعفر، وقد احتشمت من الكتاب إليه في ذلك فاكفنيه» فكتب يحيى إلى ولده الفضل يقول: «قد أمر أمير المؤمنين بتحويل الخاتم من يمينك إلى شمالك» فكتب إليه الفضل يقول: «قد سمعت مقالة أمير المؤمنين في أخي وأطعت، وما انتقلت عني نعمة صارت إليه، ولا غربت عني رتبة طلعت إليه» فقال له جعفر: «لله أخي ما أنفس نفسه، وأبين دلائل الفضل عليه، وأقوى منه العقل فيه، وأوسع في البلاغة ذَرْعَه»[٢].

أما (جعفر) فقد اشتهر بالفصاحة والتعقل، وكان الرشيد يأنس به ويطمئن إليه لسهولة أخلاقه، ويؤثره على أخيه الفضل لشدة طباع الفضل، ولذلك عهد إليه الرشيد بتربية ابنه عبد الله المأمون، وطلب الرشيد من يحيى أن يضم إليه كثيرًا من مهام الدولة، فجعل إليه تدبير أمر دار الرشيد، وكان سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر، وكان أبوه يحيى قد ضمه في شبابه إلى القاضي أبي يوسف حتى علمه وفقهه.

وكان جعفر متمكنًا عند الرشيد، وصار أقوى شخصية بعد الخليفة، حتى أصبح غالبًا على أمره، ووصل بذلك إلى قمة المجد والشهرة.

وكان (موسى) على جانب كبير من الشجاعة وشدة البأس وسبق أن ذكرنا أن الرشيد عينه على الشام عندما شب النزاع بين القبائل العربية بها، فتمكن من قمع الفتنة وأصلح بين أهلها، واستقام أمر الشام أما محمد فكان بعيد الهمة ولم يكن له من الشهرة ما كان لأخوته. وقال القاضي يحيى

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٣٠٢ من تحقيق علي عبد الواحد وافي.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص ٢٧ - ٢٨.

بن أكثم سمعت المأمون يقول : لم يكن كيحيى بن خالد وكولده أحد في الكفاية والبلاغة والجود والشجاعة، ولقد صدق القائل حيث يقول :

أولاد يحيى أربع * كأربع الطبائع

فهم إذا اختبرتهم * طبائع الصنائع

قال القاضي : قلت له يا أمير المؤمنين، أما الكفاية والبلاغة والشجاعة فنعرفها فيهم ففي مَنْ الشجاعة؟ فقال في موسى بن يحيى، وقد رأيت أن أوليه ثغر السند»(١).

ولكن عندما علا قدر هذه الأسرة كانت مثار قلق للطامعين في البلاط العباسي ومثار حسد منهم. فتربصوا بهم في بلاط الرشيد، وكان ممن يحسد البرامكة في مركزهم (**الفضل بن الربيع**)(٢) وهو ابن الربيع بن يونس حاجب المنصور ثم وزيره وينتمي إلى أبي فروة من سبي جبل الخليل بالشام والذي جُلت إلى المدينة فاشتراه عثمان بن عفان وأعتقه، وكان يعمل حفاراً للقبور، ولذا فالفضل عربي الأصل والنشأة وكان يعتبر من العرب. ووالده الربيع حاجب المنصور ووزيره، ولذلك فأسرته كبيرة أيضاً. ولم يكن للفضل بن الربيع مع جعفر بن يحيى، واستعان الفضل بن الربيع (**بعلي بن عيسى بن ماهان**) عدو البرامكة، وأوعز إليه أن يشي لدى الرشيد بموسى ابن يحيى البرمكي ويتهمه أنه يكاتب أهل خراسان ليسير إليهم ويخرجهم عن الطاعة، فحبسه الرشيد ثم أطلقه(٣).

وأخذ الفضل يزحف على المناصب الكبرى في القصر فتولى حجابة الرشيد في عام ١٧٩هـ وكانت في يد (**محمد بن خالد بن برمك**) وبهذا

(١) ابن خلكان، ج٦، ص ٢٢١ - ٢٢٢.

(٢) كان الفضل بن الربيع من أسرة كبيرة أيضاً فوالده الربيع بن يونس حاجب المنصور ووزيره، وينتمي إلى أبي فروة من سبي الخليل بالشام، جُلب إلى المدينة فاشتراه عثمان بن عفان رضي الله عنه وأعتقه، وكان يعمل حفاراً للقبور، ولذا فهو عربي النشأة وكان يعتبر من العرب (وفيات الأعيان، ج٢، ص ٢٩٩).

(٣) ابن الأثير، ج٦، ص ٥٨، وأحمد شلبي، ج٣، ص ٩٨، والطبري، ج٨، ص ٢٣٨.

المنصب تمكن الفضل بن الربيع من الخليفة، وأصبح بحكم منصبه من المقربين إليه المتصلين به وبأهله[١].

واستغل الفضل بن الربيع ظروف ولاية العهد، وميل يحيى وجعفر إلى المأمون لأن أمه فارسية، فاتخذ جانب الأمين ووصل حبله به، وتعقب البرامكة عند زُبَيْدة أم الأمين العربية الأصل لدرجة أن الرشيد بدأ يجافي يحيى بن برمك.

ويدأ الرشيد يتأذى من دخول (**يحيى بن خالد**) عليه دون إذن ويقول لمن حوله : أيدخل عليك منزلك أحد بدون إذن؟ فرد عليه يحيى بأنه «ما علم أن أمير المؤمنين كره من أمره ما كا يحب، وإذ قد علمت فإني سأكون في الطبقة التي تجعلني فيها».

وكان هذا بداية الفتور، وكانت أول ثمرة يجنيها الفضل بن الربيع، وأذاع الفضل أن البرامكة ملاحدة يحنون إلى دين أجدادهم، وأنهم يؤيدون العلويين سراً، ويودون نقل الخلافة إليهم.

بجانب ذلك أخذ الربيع يشيع كثيراً من الإشاعات التي تتصل باستبداد البرامكة بأمور الدولة دون الرشيد، وأوعز إلى أحد المغنيين بأن يغني للرشيد قول الشاعر (**عمر بن أبي ربيعة**)* :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد * وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحـــــدة * إنما العاجز من لا يستبد

فقام الرشيد من مجلسه يردد : إنما العاجز من لا يستبد وحج الرشيد في سنة ١٨٦هـ وحج معه في هذه السنة جعفر بن يحيى، وبعد الحج عاد

---

(١) الطبري، ج٨، ص ٢٦١، والجهشياري، ص ٢٣٣.

(٢) عمر بن أبي ربيعة (ت٩٣هـ) المخزومي القرشي شاعر الغزل، رفع لعمر بن عبد العزيز أنه يتعرض لنساء الحجاج ويشبب بهن فنفاه إلى جزيرة «دهلك» ثم غزا في البحر فاحترقت السفينة بمن فيها فمات غرقاً سنة ٩٣هـ وهو من طبقة جرير والفرزدق، ولم يكن في قريش أشعر منه (الأعلام) وولي إمارة المدينة (للوليد بن عبد الملك) عمر بن عبد العزيز فكان نفيه لابن أبي ربيعة في هذه المدة.

الرشيد ومعه جعفر بن يحيى، ونزل بناحية الأنبار، ويلاحظ أن الرشيد اختار الأنبار دون بغداد، لأن بغداد كانت في قبضة البرامكة، والبلاط العباسي فيها كله من صنائعهم ونزل بقصر الخلافة (**بهاشمية الأنبار**).

وفي هاشمية الأنبار أصدر أوامره لغلامه (مسرور) بقتل جعفر بن يحيى البرمكي فأتاه في منزله بالأنبار وقبض عليه، وأتى به الرشيد فأمر بضرب عنقه(١).

وأصدر أوامره بالقبض على بقية الأسرة وحَبْسِهم ومصادرة أموالهم، لم يفلت منهم أحد وأمر بالنداء في جميع البرامكة ألا أمان لمن آواهم إلا محمد ابن خالد البرمكي [وولده] وحشمه فإنه استثناهم لبراءة محمد مما دخل فيه البرامكة من الاستبداد بالملك.

وأجهد المؤرخون أنفسهم في البحث عن الأسباب التي أدت لهذا الحدث، فمنهم من يجعل وشايات الفضل بن الربيع لهم(٢)، ومنهم من يجعل عطفهم على آل البيت أي اتهامهم بالتشيع هو السبب، وقيل طول أيامهم وكل طويل مملول ومنهم من يرميهم بالزندقة، ويقول فيهم كما قال الأصمعي :

إذا ذكر الشرك في مجلس * أضاءت وجـــوه بني برمك
وإن تليت عندهــــم آية * أتو بالأحـــاديث عن مزدك

ذكر البغدادي في كتابه «الفَرْقُ بين الفِرَقْ» أن البرامكة قد زينو للرشيد أن يتخذ في جوف الكعبة مجمرة يتبخر عليها العود أبداً فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار في الكعبة، وأن تصير الكعبة بيت نار، ويقول إن ذلك كان أحد أسباب قبض الرشيد على البرامكة(٣).

وربما كان ذلك من الإشاعات التي أشيعت عليهم بعد الفتك بهم لتبرير ما

(١) انظر الطبري، ج٨، ص ٢٨٧ - ٣٠٢ ويذكر ابن خلكان أن قتل الرشيد لجعفر بموضوع يقال له العُمْرُ من أعمال الأنبار في يوم السبت سلخ المحرم سنة ١٨٧هـ (وفيات الأعيان، ج١، ص ٣٣٦).

(٢) أحمد شلبي، ج٢، ص ٣٠٥.

(٣) [ص ٢٨٥ طبعة العطار سنة ١٩٤٨].

أوقع بهم الرشيد، ومن المعروف تاريخياً أننا إذا افتقدنا معرفة الدوافع الحقيقية للحادثة فإن المجال يصبح للإشاعات والتكهنات والتأويلات.

ويغفل كثير من المؤرخين عن السبب الحقيقي الذي سبق أن أشرنا إليه، وهو الخوف من سطوتهم واستبدادهم بالدولة، وقد رأينا فيما سبق أن سيرتهم قد ملكت على الناس عواطفهم وتعلق الجميع بهم حتى أن بعض أفراد البيت العباسي كان إذا قصد الرشيد في شيء لا يأتيه إلا عن طريقهم(٢) وغطى سلوكهم وسمعتهم على البيت العباسي وأصبحوا نداً له.

وهو نفس السبب الذي دفع المنصور من قبل للتخلص من أبي مسلم الخراساني ودفع المهدي للتخلص من يعقوب بن داود. وفي ذلك يقول ابن خلدون في مقدمته :

«وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوا على أمره، وشاركوه في سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه، فعظمت آثارهم، وبعد صيتهم، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من وُلْدِهم وصنائعهم، واحتجازها عن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم»(٣).

واتجه الرشيد بعد نكبة البرامكة إلى العرب فولى (الفضل بن الربيع) الوزارة، وهو عربي من موالي الشام ولكنه لم يسد مكان يحيى البرمكي الذي ترك فراغاً كان يشعر به الرشيد. فندم على ما فعله بالبرامكة وتحسر على ما فرط منه في أمرهم، وخاطب جماعة من خواصه بأنه لو وثق بصفاء النية منهم لأعادهم إلى حالهم، وكان كثيراً ما يقول : «حملونا على نصحائنا

---

(١) ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٨٢.

(٢) وذلك، مثلما فعل (عبد الملك بن صالح) عندما قصد جعفر بن يحيى للإصلاح بينه وبين الرشيد فتوسط جعفر في ذلك ورضي عنه وزوج ابنته بابنه وولاه إحدى الولايات. وقضى دينه.

(٣) مقدمة ابن خلدون، ص ٣٠٢.

وكفاتنا، وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم فلما صرنا إلى ما أرادوا منّا، لم يغنوا عنا شيئًا».

وكان يقول : إذا ذكروا عنده بسوء :[1]

أقلّـوا عليـهم لا أبا لأبيـكم * من اللوم أو سُدُّوا المكان الذي سَدُّوا[2]

وفي عهد هارون الرشيد قامت أعمال عمرانية جليلة في الحرمين وطريق الحج استكمالاً للأعمال العظيمة التي قام بها والده المهدي، ولما كان الرشيد يحج عامًا ويغزو عامًا فإنه كان يباشر هذه الأعمال بنشاط وإخلاص مع زوجته زبيدة فهي التي قامت بإنشاء طريق الحج من العراق إلى مكة والمدينة إنشاء جديدًا، فحفرت الآبار وابتنت البرد ومنازل الحجيج، وهذا هو العمل الجليل الذي يسمى بطريق زبيدة.

نهاية الرشيد:

في نهاية عصر الرشيد قامت ثورة في خراسان بقيادة **(رافع بن الليث بن نصربن سيار)**[3]، واضطر الرشيد أن يسير بنفسه لمواجهة هذه الثورة، وأناب عنه ببغداد ابنه الأمين واصطحب معه في هذه الرحلة ابنه المأمون ووزيره **(الفضل بن الربيع)** وكثيرًا من رجال الدولة، وكان يصحبه أيضًا جيش كبير، ولكن المرض داهم الرشيد وهو في طريقه فتوقف عند بلدة **(طوس)** عندما اشتد عليه المرض.

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص ٢٥٨.

(٢) البيت للحطيئة من ديوانه، ص ٤٠.

(٣) ابن الأثير، ج٥، ص ٢٧ ورافع هذا هو حفيد (نصر بن سيار) هو آخر ولاة الأمويين بخراسان وهو الذي نبه بني مروان بالشام وحذرهم من تفاقم الأخطار بسبب الدعوة العباسية بخراسان إلى أن تغلب أبو مسلم الخراساني على خراسان، فخرج نصر من مرو سنة ١٣٠هـ ورحل إلى نيسابور، وانتظر النجدة إلى أن وافته المنية وهو في مفازة بين الري وهمدان ومات بساوة ونصر هذا عربي من كنانة فهو نصر بن سيار بن رافع بن حَرِّي بن ربيعة الكناني وكان شيخ مضر بخراسان (الأعلام) وولى بلخ ثم ولي خراسان سنة ١٢٠هـ.

وبعث بابنه المأمون على رأس الجيش إلى خراسان ومعه (**الفضل بن سهل**) وهو أحد رجال الفرس الذين كانوا يعملون في إدارة المأمون وتولى الوزارة له فيما بعد، أما الفضل بن الربيع فظل مع الرشيد، ولما أحس الرشيد بدنو أجله أوصى وزيره الفضل بن الربيع أنه إذا حُمَّ القضاء يجب عليه أن يلحق بالمأمون ويسلم إليه الأموال التي كانت في حوزة الرشيد، كما أوصى أن يسير الفضل ببقية القوات التي كانت مع الرشيد إلى المأمون أيضًا لمساعدته في نضاله.

وكان الفضل ابن الربيع قد أرسل إلى الأمين وأعلمه بحال والده وأمر وصيته التي أوصى بها، فأرسل الأمين إليه بأوامر سرية أن يعود إليه في حالة وفاة والده بالمال وبقية الجيش إلى بغداد وتوفي الرشيد (**بطوس**)[1] فعلاً سنة ١٩٣هـ[2] وعاد الفضل بن موت الرشيد بالأموال والجيش إلى بغداد، وخان بذلك وصية الرشيد، وعلم المأمون بما تم في شأن مخالفة وصية والده، وأن السبب في ذلك الفضل بن الربيع فتربص به، وخافه الفضل على نفسه، فعمل من أول لحظة على عزل المأمون والمؤتمن من ولاية العهد وتولية موسى بن الأمين.

أما المأمون فقد واصل نضاله في خراسان ووقف موقفًا واضحًا من أخيه الأمين عندما وصله خبر وفاة أبيه وكان وقتها في (**مرو**) ولم يبدأ المأمون أخاه بشيء بل أرسل إليه كثيرًا من الرسائل فيها تعظيم له. لكن (**الفضل بن سهل**) الذي كان يدبر شئون المأمون عمل على توسيع شقة

(١) طوس مدينة من مدن خراسان وفيها قبر الرشيد وعلى الرضا بن موسى الكاظم، وهي بلدة أبي حامد الغزالي، وهي الآن قاعدة القسم الإيراني من خراسان وينتمي إليها نظام الملك الطوسي (ت٤٨٥هـ) لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية.

(٢) كان للرشيد اثنى عشر ولدًا ذكرًا وأربع إناث، وهم محمد الأمين من زبيدة وعلى من أمة العزيزو هي أم ولد تزوجها بعد أخيه موسى الهادي، وعبد الله المأمون من مراجل الفارسية والقاسم والمؤتمن ومحمد المعتصم وصالح ومحمد أبو عيسى ومحمد أبو يعقوب ومحمد أبو العباس ومحمد أبو سليمان ومحمد أبو أحمد وهم لأمهات أولاد شتى (الخضري - ص ١٣٨ من الدولة العباسية).

الخلاف بين المأمون والأمين، وكان يتزعم الجناح الفارسي في جانب المأمون ويستعد لإدارة الصراع المحتمل.

مواجهة الأمين للموقف:

اندفع الأمين في أوائل عام ١٩٤هـ للعمل على خلع المأمون والقاسم ووضع ابنه موسى مكانهما وذلك بتوجيه وتشجيع من **(الفضل بن الربيع)** وهو زعيم الجناح العربي المناصر للأمين والمناوئ للفرس والمأمون في البلاط العباسي.

وكان طبيعيًا أن تسوء ظنون الأخوين أحدهما بالآخر أما المأمون فنظر إلى سوابق ولي العهد الثاني وما كان يحدث له أيام المنصور والمهدي، فأعرض عن أخيه ونأى بجانبه في خراسان وتقوى بجندها.

وأما الأمين فقد وجد أخاه المأمون معتصمًا في خراسان يريد أن يجعل منها قاعدة قوية لمنافسة أخيه في الأمر فأوجس في نفسه خيفة منه، وأراد جس نبض أخيه فطلب منه عدة طلبات كلها من حقه كخليفة للمسلمين، فكان مصير هذه الطلبات كلها الرفض، كما طلب المأمون من الأمين أن يرسل إليه أهل بيته ومائة ألف دينار كان قد أوصى بها أبوه له من بيت المال فرفض الأمين. وازدادت درجة الخصومة بين الطرفين. وكان ببغداد طفلان للمأمون مع أمهما **(أم عيسى)** ابنة موسى الهادي، وظلا في بغداد[١].

فضل الأمين أن يتم خلع المأمون بالتدريج فأول ما فعله أنه كتب إلى جميع العمال بالدعاء لابنه موسى بعد الدعاء للمأمون والقاسم، فلما بلغ ذلك المأمون قطع البريد عن الأمين وأسقط اسمه من العملة التي ضربها في خراسان[٢].

أما عن **(ثورة رافع بن الليث)** فقد حاول المأمون إنهاءها سليمة فطلب رافع بن اليث فأمنه وحضر عند المأمون وأصبح من رجاله وانتهت بذلك ثورته.

(١) الطبري، ج٨، ص ٤٢٠.
(٢) الطبري، ج٨، ص ٣٨٩.

وعندما علم الأمين بما فعله المأمون وجه إليه وفداً على رأسه (**العباس ابن موسى بن عيسى**) وَجَدُّهُ صاحب قضية التنازل عن ولاية العهد للمنصور ثم للمهدي، فطلب من المأمون أن يقدم ابن الأمين على نفسه ويحضر إلى بغداد[١] فاستشار المأمون (**الفضل بن سهل**) ورجاله، فقالوا له : «إنما أخذت البيعة علينا على ألا نخرج من خراسان، فمتى فعلت ما طلبه الأمين منك فلا بيعة لك في أعناقنا» ثم سلموا عليه، وقالوا : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته[٢] وفي هذا إغراء واضح له على أنه أحق بإمرة المؤمنين من أخيه، فدفعوه بذلك دفعاً قوياً إلى مخالفة أخيه ومن ناحية أخرى فإن تصرف الأمين دفع المأمون أيضاً بشدة إلى أن يرتاب في تصرفاته ويخشى المثول أمامه.

فأحضروا المأمون العباسي ومن معه وأعلمه أنه لا يحضر وأنه لا يقدم موسى على نفسه، فقال له العباس بن موسى ما عليك إليها الأمير من ذلك فهذا جدي عيسى بن موسى قد خُلِعَ فما ضره، فصاح به (**الفضل بن سهل**) قائلاً : اسكت إن جدك كان أسيراً في أيديهم، وهذا بين أخواله وشيعته، ثم قاموا واستطاع الفضل بن سهل استمالة العباس وجعله عيناً لهم في بغداد يعلمهم بأخبار الأمين، فكان يرسل لهم كثيراً من أخباره إلى أن تم الأمر للمأمون[٣].

وانتهز حكام الأطراف في المشرق هذه الخلافات ومنعوا الأموال فأشار الفضل بن سهل على المأمون بالتساهل مع هؤلاء وتوليتهم على نواحيهم ومسامحتهم في بعض الأموال التي كانت تجبى منهم لكي يأخذ هدنة معهم، فأنفذ المأمون ما قاله الفضل حتى رضى أولئك الحكام.

أما الأمين فإنه قد عهد لابنه موسى في صفر ١٩٥هـ وسماه (**الناطق**

---

(١) المصدر السابق، ج٨، ص ٤٠١.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ١٣٩.

(٣) ابن الأثير، ج٥، ص ١٣٩.

بالحق)، وعهد أيضاً لابنه الآخر عبد الله ولقبه (القائم بالحق)[١] ونهى عن ذكر اسم المأمون والمؤتمن على المنابر وربما كان هذا هو الذي دفع المؤتمن إلى الانحياز إلى المأمون في خراسان.

ومن ناحية أخرى فإنه أرسل إلى الكعبة أحد رجاله فأتاه بالكتابين الذين وضعهما الرشيد في الكعبة، فأحضرهما عنده فمزقهما، ووصلت هذه الأخبار إلى المأمون فأعد نفسه عسكرياً للصراع مع أخيه.

القتال بين الطرفين:

كان الأمين هو الذي بدأ بإرسال جيش بقيادة (علي بن عيسى) وأعطاه ولاية خراسان، واشترك في هذا الجيش كثير من القوات العربية ويذكر ابن الأثير أن زبيدة أوصت على بن ماهان بالمأمون خيراً وكذلك أوصاه الأمين [ج٥، ص ١٤٣] إن هو ظفر به أن يعامله معاملة الملوك عند الأسر ولا يقتله وحمل معه قيداً من الفضة كما أرادت زبيدة، وقد أخطأ الأمين باختياره علي بن عيسى بن ماهان فإن أهل خراسان يكرهونه لما عاملهم به من الفظائع أثناء ولايته في عصر الرشيد، وكان قد أبدلهم الله خيراً منه عدلاً ورفقاً وحسن سياسة وهو المأمون فعندما سمعوا بمقدمه ثارت في نفوسهم الحمية لرده بل والانتقام منه.

وفي المقابل عمل الفضل بن سهل على إعداد جيش من الفرس لمقابلة هذه القوات، وبذلك اتسع الخلاف بين الأخوين وتحول إلى صراع بين العرب والفرس فأعد الفضل بن سهل جيشين عظيمين يقودهما بطلان من خيرة أبطال الفرس وهما (طاهر بن الحسين)[٢] و(هرثمة بن أعين)، وسار الأول يقصد بغداد من الجنوب والثاني يقصدها من الشمال.

فتقابلت قوات طاهر بن الحسين مع قوات علي بن عيسى بالرَّي على

(١) المصدر السابق، ج٥، ص ١٤٢، والطبري، ج٨،ص ٨٩.

(٢) كان طاهر من أكبر أعوان المأمون وهو من موالي الفرس واسمه أبو الطيب طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق بن ماهان.

مداخل خراسان، فانهزم علي بن عيسى وقتل في رمضان سنة ١٩٥هـ وظفر طاهر بكثير من الغنائم التي كانت في حوزته.

وأحدثت هذه الانتصارات فوضى في بغداد، فقام (**الحسين بن علي ابن ماهان**) ابن القائد المقتول بمحاصرة قصر الأمين فترة مما أدى إلى قيام الحرب في بغداد بين جند الأمين أنفسهم واضطر الفضل بن الربيع إلى الاختفاء خوفًا على نفسه.

وفي وسط هذه الفوضى عين الأمين قائدًا جديدًا بدلاً من علي بن عيسى وهو (**عبيد الرحمن بن جبلة الأنباري**) فلاقى نفس المصير، ثم رشح الفضل قبل هروبه (**أسد بن يزيد بن مزيد**) فطالب بكثير من المال بالإضافة إلى أنه قال للأمين : ادفع إلى ولدي المأمون حين يكونا أسيرين في يدي، فإن أعطاني الطاعة وألقى إليَّ بيده وإلا عملت فيهما بحكمي، وأنفذت فيهما أمري، فقال له الأمين : أنت أعرابي مجنون أرفع منزلتك على القواد وأعطيك خراج الجبال إلى خراسان وتدعوني إلى قتل ولديَّ وسفك دماء أهل بيتي؟!(١) ثم أمر بالقبض عليه وسجنه، وعين بدلاً منه أحمد بن مزيد الشيباني.

وأراد الأمين الاستعانة بأهل الشام عن طريق (**عبد الملك بن صالح**) والي الشام، ولكن هذا الأمر لم يتم بسبب عدم إخلاص أهل الشام للعباسيين واختلاف الجند(٢).

وأرسل المأمون قائدًا ثالثًا ومعه قوات لمساعدة طاهر بن الحسين و(**هرثمة بن أعين**)، وهو (**زهير بن المسيب**)، وقاموا بإحكام الحصار حول بغداد.

وقد وضع هذا الحصار حدًا لهذا النزاع حيث تم اقتحام بغداد وقتل الأمين في سنة ١٩٨هـ، وبعث طاهر بن الحسين برأسه إلى المأمون.

---

(١) الطبري، ج٨، ص ٤٢٠.

(٢) أحمد شلبي، ج٣، ص ٣٢٢. والطبري، ج٨، ص ٤٢٤.

وسقطت بغداد في يد جنود الفرس بعد أن دافع أهل بغداد عن مدينتهم على الرغم من نص الاستعدادات وهدمت منازلها وقتل من أهلها أعداد لم يتناولها الحصر، وهذه خسارة أخرى للعرب تضاف إلى الخسائر السابقة.

نتائج انتصار المأمون:

بعد هزيمة الأمين زادت قوة **(الفضل بن سهل)** المخطط الكبير لهذا الصراع، وزادت قوة ما معه من رجال فرس في بلاط المأمون بمدينة (مرو) عاصمة خراسان والتي عمل الفضل على جعلها عاصمة للخلافة بدل بغداد، لدرجة أن الفضل استبد بأوضاع المأمون ومنع أهل بيته وكبار رجاله من الاتصال به إلا بإذن منه، وتلقى بنفسه أخبار الدولة، وعمل على وضع العراق في المكانة الثانية بعد خراسان.

واستصدر أمرًا من المأمون يقضي بتعيين أخيه الحسن بن سهل على إقليم العراق والحجاز واليمن واعتبر هذه المناطق العربية تابعة لخراسان، كما طلب من المأمون تولية **(علي الرضا بن موسى الكاظم)** عهده في سنة ٢٠١هـ وكان علي الرضا في صحبة المأمون بخراسان، فقبل المأمون ذلك وولاه، وأمر المأمون بخلع السواد ولبس الأخضر شعار آل البيت، وكتب بذلك إلى الآفاق(١).

ثورة بغداد : ولكن العباسيين وأهل بغداد لم يقبلوا بهذا، قاموا بثورة سنة ٢٠٢هـ ونادوا بخلع المأمون، وبايعوا **(إبراهيم بن المهدي)**(٢) الذي كانا مغرمًا بالشعر والغناء ولم يكن له طموح في الخلافة ولكن العصبية العباسية رفضت إجراءات المأمون وعينت إبراهيم في منصب الخلافة. وظهر **(الفضل بن الربيع)** من مخبئه، واتصل بإبراهيم فعينه إبراهيم حاجبًا له.

---

(١) أحمد شلبي، ج٣، ص ٣٢٣، الطبري، ج٨، ص ٥٥٤.

(٢) ولقبوه بالمبارك، الطبري، ج٨، ص ٥٥٧ وكانوا قد حاولوا تعيين منصور بن المهدي قبله فرفض وقال : أنا خليفة أمير المؤمنين حتى يقدم أو يولي من أحب فرضي بذلك بنو هاشم سنة ٢٠١هـ والقواد والجند، الطبري، ج٨، ص ٥٤٩.

عودة المأمون إلى بغداد :

وصلت أخبار ثورة بغداد إلى المأمون واتصل به جماعة من قواده، فعرفوه الأوضاع على حقيقتها وكان منهم (علي الرضا)، فأدرك المأمون حقيقة الفضل بن سهل، فتحركت شخصية المأمون القوية التي تكره الخضوع، وقرر أن يرحل إلى بغداد، ووجد من الحكمة أن يداري الفضل بن سهل وأعوانه ولا يجاهر بالعداء حتى يفلت من الحصار الذي فرضه عليه الفضل.

قتله الفضل بن سهل : فادّعى أنه ذاهب إلى بغداد ليعيد سلطان الحسن ابن سهل فيها على المارقين من أهلها، وبدأ رحلته في أوائل سنة ٢٠٢هـ، وفي الطريق دبر المأمون مؤامرة سرية قتل فيها (**الفضل بن سهل**) في شعبان سنة ٢٠٢هـ، وتظاهر بالحزن عليه وطلب قاتليه، وادعى أنه قتلهم، وأرسل تعزية رقيقة إلى (**الحسن بن سهل**)، يذكر ابن الأثير أن المأمون استعان بأخواله الفرس لقتل الفضل بن سهل وهم أسرة أستاذ سيس الذي كان قد خرج على المنصور في سنة ١٥٠هـ وقيل إنه ادعى النبوة، فأرسل إليه المنصور كما مر بنا (**خازم بن خزيمة**) فقتله، وكان لأستاذ سيس ابن يسمى غالب وابنة تسمى مراجل هي والدة المأمون، فاستعان المأمون بخاله غالب هذا في تدبير مؤامرة قتل الفضل بن سهل[1]. وواصل المأمون مسيرته إلى بغداد.

وفي هذه الظروف مات (**علي الرضا**)[2] فجأة، واختلف المؤرخون

---

(١) ابن الأثير، ج٥، ص ٢٩، ص ١٩٢.

(٢) ويرى البعض الآخر أن المأمون كان مخلصًا في عمله صادقًا في تصرفه، وقد زوج المأمون علي الرضا هذا بنته، وزوج محمد بن علي بنته الأخرى، وادعى الشيعة أن المأمون سمه لثورة بغداد، وما أكثر ادعاء الشيعة بسمِّ أئمتهم، وهذا بعيد، فالمؤرخون يروون حزن المأمون عليه، كما يروون أن المأمون بعد موته وبعد انتقاله إلى بغداد ظل يلبس الخضرة وهو شعار العلويين تسعة وعشرين يومًا ويلزم القواد بلبسها، فلما رأى كراهية البيت العباسي لها اضطر أن يغيرها إلى السواد، فإن كان حقًا قبّ سمٌّ، يكون قد سمه أحد غير المأمون من دعاة البيت العباسي [أحمد أمين، ضحى الإسلام، الجزء الثالث، ص ٢٩١ - ٢٩٢].

بشأنه، فيرى البعض أن تولية المأمون له لم تكن سوى حركة سياسية منه لاستمالة قلوب الخراسانيين، وأن العلاقة التي كانت بين المأمون وعلي الرضا والتي كان ظاهرها الإخلاص والمحبة لم تلبث أن تغيرت، لما كان يراه المأمون من التفاف الخراسانيين حوله، وعلى ذلك فيعتبر هذا الذي حدث تكتيك من المأمون أي خطة مرحلية له لجمع الخراسانيين حوله وهم الذين أُشْرِبَتْ قلوبهم حب العلويين، فلما تم له ذلك النصر انقلب على (علي الرضا) وعلى (الفضل بن سهل)[1] وأنه لم يكن مخلصًا في تحويل الخلافة إلى العلويين، وأن ذلك لم يكن إلا سياسة دعت إليها الضرورة وسياسة الملك.

واعتقد أن المأمون برئ من دم علي الرضا لأنه كان على صلة طيبة به وكان ممن رافقوه إلى مرو واستبعد أنه قام بوضع السم له في الطعام كما قيل، وربما تبرع بعض رجال البيت العباسي بذلك خوفًا على مستقبلهم وخاصة أن جناحهم الموجود في بغداد رفض هذا الإجراء لما له من نتائج سيئة عليهم في المستقبل.

وأيًا كان الأمر فقد كان موت (علي الرضا) فرصة طيبة للمأمون لكي يصلح ما فسد في بغداد، فأرسل إلى بني العباس وأهل بغداد يعتذر لهم عما حدث ويخبرهم أن علي الرضا قد مات، ويدعوهم للرجوع إلى طاعته.

وعندما وصلت هذه الأخبار إلى بغداد انفض الناس من حول (إبراهيم ابن المهدي) عندما عرفوا أن المأمون في طريقه إلى بغداد، وأن الفضل بن سهل قد قُضي عليه، وأن عليًا الرضا قد جاز إلى ربه، فدخل المأمون بغداد في صفر ٢٠٤هـ والتف الناس حوله، وعادت به الخلافة إلى قوتها، ولكن بعد خسائر كثيرة في الجانب العربي.

وعفى المأمون على كثير من الذين وقفوا مع الأمين ومنهم (الفضل بن الربيع) الذي كان وراء هذه الكوارث، واستوزر الحسن بن سهل بعد

(١) حسن إبراهيم، ج٢، ص ١٨٧.

أن زال خطر أخيه، وتزوج المأمون ابنة الحسن (بوران).

وكان من جراء هذا الخلاف بين الأخوين والحروب الشديدة التي وقعت بين جند الأمين وجند المأمون أن تعطلت كل شئون الدولة وتعطلت المسالك والدروب بسبب هذه الحروب الأهلية الفظيعة التي استمرت نحو أربع سنوات وقامت كثير من الثورات في كثير من البلدان الإسلامية، ولو كانت للعلويين قوة منظمة في هذه الفترة لنجحوا في القضاء على العباسيين، ولكنهم كانوا يعتمدون على العاطفة فقط وليس لهم تنظيم يجمعهم ويجمع أشياعهم. والقوة التي أصبحت لهم بالمغرب كانت بعيدة عن هذه الأحداث.

والخلاصة: أن الدولة الإسلامية تضررت من جراء هذا الصراع وتعطلت شئونها، وقامت في أنحائها كثير من الاضطرابات، وكانت هذه المآسي بسبب فساد نظام الحكم وولاية العهد وتجاوز نظام الشورى في اختيار خليفة المسلمين، وأيلولة الخلافة إلى الصبيان الذين لا دخل للأمة في اختيارهم فيدفعون بالأمة إلى الحروب الأهلية التي تقضي على حيويتها.

ولم يلتفت أحد من الخلفاء لوضع نظام محكم يضبط ولاية العهد، مع ما كانوا عليه من العلم والعرفان والفهم وإذا تأملنا هذه الأحداث وجدنا أن الرشيد كان مسئولاً مسئولية كاملة عما حدث، لأنه ولى الأمين دون المأمون مع أن المأمون أكبر سنًا وأقوى على تحمل أعباء الخلافة، وأعطى الرشيد في نفس الوقت للمأمون ولاية المشرق وبها جند الدولة فاستطاع أن يناوئ الأمين وأن يرفض أوامره ويتغلب عليه، هذا بالإضافة إلى مسئولية الأمين في تولية ابنيه وتقديمهما على المأمون والمؤتمن.

وقبل أن نغادر هذا الموضوع لابد من الإشارة إلى مسئولية الأمين في عدم الاهتمام بالعهود والمواثيق عندما مزق الوثائق والعهود التي أخذها عليه والده في الكعبة وهذا عامل من العوامل التي أضعفت الدولة العباسية التي من المفروض أنها تتمسك بالتعاليم الإسلامية التي تحض على الوفاء بالعهود وعدم نقض الأيمان بعد توكيدها.

موقف العباسيين من الفتوح:

وكان من نتيجة ذلك أن تعطلت الفتوح الإسلامية في العصر العباسي وتوقفت تمامًا جهود الفتوح في بلاد الترك والمغول وهي منغوليا وهي بلاد شاسعة وأرض صحراوية وأراض استبس (**حشائش قصيرة**) وسفانا (**حشائش طويلة**) ويتكاثر فيها البشر ثم يخرجون منها في موجات غزو وتخريب وأكثر ما ساعدهم على ذلك كان الحصان، فإن بلادهم مهد الخيول، فيها نشأت وتكاثرت الخيول، ومنها انتقلت إلى نواحي الدنيا، وإن الدولة العباسية لو تنبهت إلى حقيقة وظيفتها كدولة إسلامية، وهي نشر الإسلام لا مجرد المحافظة عليه كما وجدته، لو أنها قامت برسالتها وأدخلت كل الأتراك والمغول في الإسلام لأدت للإسلام والحضارة الإنسانية أجل الخدمات، ولغايرت صفحات التاريخ، وهكذا تكون الدولة العباسية قد خذلت الإسلام في الشرق والغرب، فهي في الشرق لم تتقدم وتدخل كل الأتراك والمغول في الإسلام وفتحت أبواب الهند لهذا الدين، وفي الغرب قعدت الدولة العباسية عن فتح القسطنطينية ولو أنها فعلت ذلك لدخل أجناس الصقالبة والخزر والبلغار الأتراك في الإسلام تبعًا لذلك.

من هنا ندرك الفرق الكبير بين الدولة الأموية والدولة العباسية، فالأولى أوسعت للإسلام مكانًا في معظم أراضي الدولة البيزنطية، وأدخلت أجناس البربر جميعًا في الإسلام، ثم انتزعت شبه جزيرة إيبيريا من القوط الغربيين، ثم اقتحمت على الفرنجة بلادهم وحاولت عدة مرات فتح القسطنطينية، أما العباسيون فلم يضيفوا - رغم طول عمر دولتهم - إلى عالم الإسلام إلا القليل ومعظمه شرقي آسيا الصغرى في العصر السلجوقي كما سيأتي بيان ذلك عند الحديث عن الدولة السلجوقية[١].

أوضاع الدولة الإسلامية على عهد المأمون:

عندما دخل المأمون بغداد سنة ٢٠٤هـ بدأ يواجه أوضاع الدولة

(١) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص ٥٠ - ٥١.

المتردية بسبب الصراع بينه وبين أخيه الأمين، وكان لانتصار المأمون بسيوف الفرس وقوتهم آثاره السيئة على الجانب العربي، كما كان لانتقاله من خراسان إلى بغداد آثاره السيئة أيضًا على الجانب الفارسي، وقامت ثورات في كثير من الأماكن.

وكانت قد قامت (**ثورة أبي السرايا**)[1] بالكوفة، قبل وصول المأمون بغداد، وأبو السرايا هو (**السري بن منصور الشيباني**)، وكان أحد قواد جيش هرثمة بن أعين وسبب ثورته أنه لم يكن راضيًا على أعمال الفضل بن سهل وولاية أخيه الحسن بن سهل بعد انتصارهم على الأمين، فخرج من جيش هرثمة واتجه إلى الكوفة واستولى على الأنبار وامتلك المدائن وواسط وكثرت جموعه واستفحل أمره وضرب الدراهم بالكوفة وتمكن المأمون من القضاء عليه بمعاونة هرثمة ورجال الحسن بن سهل سنة ٢٠١هـ وتم قتله وتفرق جيشه.

بنو عقيل : قبيلة عربية كبيرة جدًا وهي إحدى القبائل الخمس التي يتوكن منها بنو كعب المتفرعون من مضر في الجزيرة العربية وبعد إسلامهم انتشرت بطونهم في سوريا والعراق وشمال أفريقيا والأندلس، وفي بداية الدولة العباسية كان العراق مملوءًا بالعقيليين، وهاجر بطن منهم إلى البطائح في منطقة البصرة ومنهم بنو المنتفق بين الكوفة وواسط والبصرة، وكانوا تحت سيطرة الحمدانيين، فلما انقرضت الدولة الحمدانية

---

(١) كان أبو السرايا يدعو لأحد العلويين واسمه (محمد بن إبراهيم المعروف بابن طبا طبا)، فبايعه، وانضم إليهما سكان السواد وقبائل من بادية الشام، وألحق أبو السرايا الهزيمة بالجيش العباسي، ولكن ما لبث ابن طبا طبا أن مات فاختار الثوار علويًا آخر يقال له (محمد بن محمد) ليحل محله واستطاعوا أن يهزموا جيشًا عباسيًا آخر، وتمكنوا من السيطرة على البصرة والأهواز وواسط، وراحوا يدقون أبواب بغداد نفسها، [مصطفى غالب، القرامطة] وعندما اختار المأمون عليا الرضا وليًا لعهده سنة ٢٠١هـ استطاع أن يتغلب على أبي السرايا، لأن العلويين ابتعدوا عن تأييده، فاستطاع القائد العباسي هرثمة بن أعين أن يهزمه وقتله سنة ٢٠١هـ [مصطفى غالب، القرامطة، ص ٨٨].

استقل بنو عقيل بالموصل سنة ٣٨٦هـ، وقضى على نفوذهم السلاجقة في أواخر القرن الخامس الهجري، وقد هاجر بنو عقيل بعد انقراض حكمهم في الجزيرة العراقية إلى مهدهم الأول في البحرين[1].

ومن ثوراتهم ثورة (**نصر بن شبث العُقَيْلي**) شمالي حلب وهو من بني عقيل بن كعب كان أسلافه من رجال بني أمية، وكانت ثورته بسبب انهزام العرب في الصراع بين الأمين والمأمون، فثار للعصبية العربية، ورفض البيعة للمأمون واجتمع عليه خلق كثير من الأعراب، وأشار عليه قوم أن يبايع لأحد العلويين أو أحد الأمويين فرفض وقال : «إنما هواي في بني العباس، وما حاربتهم إلا محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم» وبوخ جيوش المأمون، وفي النهاية أعطاه المأمون أمانًا بعد حروب طويلة وعفى عنه ودخل بغداد سنة ٢١٠هـ لذلك يمكن القول أن ثورة نصر كانت ضد نفوذ العجم وليست خروجًا على الحكومة العباسية.

وفي (**مصر**) قامت ثورة بدأت بالخلاف التقليدي بين عرب الشمال وعرب لجنوب أثناء الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون، وفقد وقف عرب الشمال مع الأمين، وأما عرب الجنوب فقد ناصروا المأمون.

وانتهز بعض المصريين هذه الخلافات فهبوا في وجه العرب في ثورة شديدة، وقد وجه المأمون إليهم سنة ٢١٠هـ (**عبد الله بن طاهر**)، وكان عبد الله بن طاهر من طراز أبيه طاهر بن الحسين في المقدرة السياسية والمهارة الحربية، فتمكن عبد الله من تهدئة الوضع بها واستولى على الفسطاط وأصلح أحوال مصر وكان أخطر ما واجهه من مشاكل في مصر مشكلة مهاجري الأندلس الذين قد ثاروا في وجه (**الحكم بن هشام**) الأموي بالأندلس فنفاهم من الأندلس فساحوا في المغرب ووصلوا إلى الإسكندرية ودخلوها فتصدى لهم (**عبد الله بن طاهر**) ليحملهم على الخروج فطلبوا منه أن يمدهم بالمال والسلاح ويرحلوا إلى جزيرة كريت،

(١) أحمد السعيد، معجم الأسر الحاكمة، ج١، ص ٢٤٨.

فأجابهم الوالي إلى طلبهم، وساروا من الإسكندرية إلى تلك الجزيرة وغلبوا على أمرها في سنة ٢١٠هـ[١].

لكن عندما ترك عبد الله بن طاهر مصر وعاد إلى العراق عادت الثورة إليها، فاضطر المأمون أن يذهب إلى مصر بنفسه سنة ٢١٦هـ فأعاد إليها الأمان والاستقرار وعاد منها سنة ٢١٧هـ[٢].

وفي عهد المأمون بدأت دول تنشأ في أطراف الدولة منها الدولة الطاهرية وهي التي نشأت في خراسان منذ سنة ٢٠٥هـ على يد (**طاهر بن الحسين**) قائد المأمون الذي ساعده في صراعه مع الأمين وكافأه المأمون بأن ولاه خراسان سنة ٢٠٥هـ واستمرت السلطة في عقبه حتى سنة ٢٥٩هـ.

وفي سنة ٢٠٣هـ ولى المأمون (**محمد بن إبراهيم الزيادي**) (**من ولد زياد بن أبيه**) أميرًا على بلاد اليمن ليقضي على المتشيعين بها، فذهب إلى اليمن وفتح تهامة واختط مدينة (**زبيد**) سنة ٢٠٤هـ وظل بها إلى أن توفي سنة ٢٤٥هـ، وتوارث أولاده الملك من بعده باليمن كدولة مستقلة، وكانوا يخطبون للعباسيين ويؤدون لهم الخراج، وظلت دولتهم حتى سنة ٤٠٩هـ.

وفي المغرب كان الرشيد قد أسس دولة حاجزة في أفريقية وعين عليها (**إبراهيم بن الأغلب التميمي**) سنة ١٨٤هـ، واستمرت هذه الدولة أيام الأمين والمأمون وقويت شوكتهم، وكان السبب في تكوينها هو خوف العباسيين من أن يمتد نفوذ العلويين إلى بلادهم، وظلت هذه الدولة إلى أن قضى عليها الفاطميون سنة ٢٩٦هـ.

---

(١) يعد هذا التاريخ بدء دخول العرب والإسلام في كريت، علي إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي العام، ص ٤٠٤.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٠٨.

حركات الخرمية : قيل أنهم خرمية لأن معنى كلمة (**خرم**) أي (**إباحي**) وهم كانوا يبيحون المحرمات وكان منهم فريق قبل الإسلام يسمى (**الخرمية المزدكية**) نسبة إلى مزدك (٤٨٧م) الإباحي، وطائفة في العصر العباسي وهم (**الخرمية البابكية**) نسبة إلى (**بابك الخرمي**) الذي ظهر أيام المأمون سنة ٢٠١هـ ويرى البعض أنه من سلالة أبي مسلم وأنه ثار للانتقام لأبي مسلم، وأن حركته استمرار لحركة المقنع والراوندية وغيرهم وانتشرت هذه الحركة في إقليم أذربيجان وإقليم أرمينية وهذه المناطق كانت ولا تزال تموج بالمذاهب المختلفة كالزرادشتية والمانوية والمزدكية والأبو مسلمية وكل هذه العقائد مجتمعة تكون عقائد الخرمية.

ويذكر نظام الملك السلجوقي في كتابه (**سياسة نامة**) أن خرمية نسبة إلى زوجة مزدك واسمها (**خرمة**) فبعد مقتل مزدك سنة ٤٨٧م على يد أنو شروان ابن قباذ ملك الفرس، هربت زوجته (**خُرّمَة**) من المدائن ودعت إلى مذهب زوجها حتى اعتنقه كثير من الفرس وكان يطلق عليهم الخرمية نسبة إليها وبذلك فإن خرمية مرادفة لمزدكية، وازدهرت هذه الفرقة في أذربيجان وأرمينيا وبلاد الديلم، وظلت مزدهرة حتى أيام أبي مسلم وكانت من العناصر الغاضبة التي أعانت على خلع البيت الأموي، لأنهم ظلوا ينتهزون الفرص للظهور بمذهبهم في كل عهد فلما قتل أبو مسلم على يد المنصور خرجوا في صور شتى سبق أن أشرنا إليهم، وتعاونوا مع الروافض وجميع طوائف الشيعة ومن ثم فليس بغريب أن نرى الإباحية في مذاهب الشيعة وعلى الأخص القرامطة[1].

أما في فارس فقد قامت (**ثورة بابك الخرمي**) سنة ٢٠١هـ وكانت حركته كغيرها من الحركات الفارسية حركة إباحية من أجل تجميع الأنصار حوله، وكانوا يعظمون أبا مسلم الخراساني ويلعنون أبا جعفر المنصور، وأباح بابك لأتباعه شرب الخمر والاشتراك في النساء وأسقط عنهم جميع

---

(١) سياسة نامة، ص ٢٥٢ – ٢٥٤.

الفرائض الدينية كالصلاة والصوم والزكاة والحج ليصرف الناس عن التعاليم الدينية، وقد عرف أتباع بابك (**بالمُحَمِّرة**) أيضًا لأنهم صبغوا ثيابهم بالحمرة أيام بابك ولبسوها، وكان ذلك شعارهم[1].

وتأتي خطورة هذه الحركة لأن بابك اتصل بالروم وحالفهم ليساعدهم على الهجوم على الدولة الإسلامية، وقد حاول المأمون القضاء على هذه الحركة سنة ٢٠٩هـ بجيش كبير فهزموه وأسروا قائده. ولم تتمكن الدولة العباسية من القضاء عليهم إلا في عصر المعتصم واتضحت عدم فاعلية قوات الجيش في نهاية عصر المأمون واتضح أيضًا أنها غير قادرة على تحقيق النصر للدولة لأنها قوات متناحرة غير مخلصة فهي من بقايا العرب المحطمين وبقايا الفرس غير المخلصين الغاضبين، واتضح أيضًا أن الدولة في حاجة إلى دماء جديدة تدعم قوة الجيش وتعيد حيويته، وهذا ما دعا الدولة للاستعانة بالأتراك على نطاق واسع، فكان الأتراك هم الذين حققوا النصر بتماسكهم وقوتهم في ساحات القتال.

ففي سنة ٢٢١هـ استعان المعتصم بقائد تركي قوي للقضاء على الخرمية وهو (**الأشفين**)، فقد استطاع الأفشين ومعه خيرة القوات التركية القضاء على حركة الخرمية وضربها في مقرها الأصلي في بلدة (**البذّ**)[2] بين أران وأذربيجان، وحين علم بابك بقرب نهايته أرسل إلى امبراطور الروم (**ثيوفيل**) يقول له إن الجيوش الإسلامية تجمعت كلها لحربه وأن الوقت مناسب ليقوم بهجوم على البلاد الإسلامية.

كانت أرمينية التي تتاخم ثغور الجزيرة من جهة وأذربيجان من جهة أخرى مسرحًا لنشاط الخرمية الذين كانوا يسكنون بوجه خاص في الإقليم

---

(١) الغزالي، فضائح الباطنية، ١٧.

(٢) قال ياقوت عن «البذّ» أنها كورة بين أذربيجان وأران، بها كان مخرج بابك الخرمي في أيام المعتصم، وقال وفيه تعقد أعلام المُحمِّرة المعروفين بالخرمية. [وانظر القزويني، أثر البلاد، وأخبار العباد، ص ٥١١].

الجبلي بين أذربيجان والديلم إلى همذان والدينور كما ارتبطت الفتنة الخرمية بالعلاقات الإسلامية البيزنطية فقد أراد الروم أن يستغلوها لصالحهم[١].

وقد هجمت القوات الرومانية على **(زبطرة)** للاتصال بالخرمية في أرمينيا وأذربيجان، غير أن القوات الإسلامية تمكنت من صد هجومهم، وقضى المعتصم على بابك وأتباعه سنة ٢٢٢هـ[٢] ويذكر ابن الأثير أنه راح ضحية هذه الحركة نحو ربع مليون من البشر قتلوا في عشرين سنة. ومما يدل على عداء الخرمية للإسلام أنه بعد قهر المعتصم لهم فر كثير منهم إلى الدولة الرومانية حيث رحبت بهم وأجريت عليهم الرواتب وجعلت منهم مقاتلين معها ضد الدولة الإسلامية.

المأمون وولاية العهد :

رأى المأمون ما رأى وعانى كثيراً بشأن ولاية العهد في عهد أخيه الأمين وسمع الكثير عن أسلافه بشأن طمع كل الخلفاء في الأمر أن يكون لأبنائهم من بعدهم، فكان فيها من الزاهدين لأنه فطن إلى خطورة المسألة، ولم يعين أحداً من أبنائه ولياً للعهد من بعده، ولاحظ الكفاءة فيمن يلي أمر المسلمين لتجنب الفتن والحروب الأهلية كتلك التي قامت بينه وبين أخيه الأمين.

فعين أخاه **(المعتصم)** الذي امتاز بالشجاعة والإقدام والهمة العالية وغيرها من الصفات الطيبة التي جعلت المأمون يفضله على ابنه، فأحسن بذلك إلى نفسه وإلى أسرته وإلى العالم الإسلامي.

ولم يكن **(العباس بن المأمون)** سيئاً، فقد كان يتمتع بمكانة رفيعة بين الجند، وتؤهله مواهبه للخلافة، ولكن المأمون لم يوله لأنه رأى عند المقارنة أن المعتصم أخاه يفوقه كفاءة وشجاعة في وقت كانت الدولة الرومانية تتربص فيه بالدولة الإسلامية، فكان الموقف العسكري يحتاج إلى قيادة المعتصم فقدمه على ابنه العباس.

(١) فتحي عثمان الحدود الإسلامية البيزنطية.

(٢) ابن الأثير، ج٥، ص ٢٤٠، والطبري، ج٩، ص ٣١ - ٥١.

وكان المأمون يدرك في أخيه المعتصم بعض العيوب، فهو مع شجاعته قوي البطش عجول، كثيراً ما يسرع إليه الغضب فيبطش دون تأن، فاختار له أحد الرجال العقلاء لكي يلازمه ويكون له كمستشار، والذين عرفوا بالفصاحة والأناة وحب العفو، وهو القاضي أحمد بن أبي دؤاد الأيادي (من نزار) فقال في وصيته له :

«وأبو عبد الله (أحمد بن أبي دؤاد) لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمرك، فإنه موضع ذلك»[1].

وكان بن أبي دؤاد ممن يحبون الخير للناس وله شرف نفس وجمال الخلق عربي، عرف بالعصبية للعرب في وقت قلت فيه قوتهم في الدولة العباسية، ولعل هذا أفاد العرب وحفظ لهم شيئاً من مقامهم في عهد المعتصم الذي جعل القوة كلها لغلمان الأتراك الذين استكثر منهم ومن قوادهم[2].

وكان أحمد بن أبي دؤاد من أصحاب واصل بن عطاء فصار إلى الاعتزال، وهو أول من خرج على التقاليد الفارسية في مجالس الخلفاء، فكان أول من افتتح الكلام مع الخلفاء العباسيين وكانوا من قبل لا يبدؤهم أحد حتى يبدؤوه.

وجعله المعتصم في بداية عصره قاضي القضاة، وكان المعتصم لا يفعل فعلاً إلا برأيه ومشورته، فكان وجود ابن أبي دؤاد مع المعتصم مما عدل مزاجه، فكان إذا أسرع إليه الغضب هدأ من حدته بآراه وجه الأناة والعفو وذكره بالحق، فكان له خير مستشار لو لا ما كان فيه من تحامل على العلماء في مسألة خلق القرآن.

عصر المعتصم :

المعتصم هو أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد، كانت والدته تركية الأصل اسمها ماردة (بنت شبيب) من مولدات الكوفة، امتاز المعتصم

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص ٨١/٨٤، والمسعودي مروج الذهب، ج٤، ص ٩٧ - ٩٨.

(٢) الخضري، الدولة العباسية، ص ٢٣٣ - ٢٣٥.

بالشجاعة والقوة البدنية المفرطة، ولا ريب في شجاعته فإن أخواله الترك قوم عرفوا بالشجاعة والعنف والقوة والروح العسكرية التي ألفوها في مناطق تركستان الرعوية. وقد ورث المعتصم هذه الصفات منهم.

ولم يكن المعتصم من بين المرشحين لولاية العهد أيام والده ولما سئل الرشيد عن ذلك قال : «إنه أميٌّ لا يصلح للخلافة»، لأنه كان يكتب ويقرأ كتابة وقراءة ضعيفة، وكان يهرب في صغره من معلميه، ولكن ما كاد يشب حتى ظهرت مواهبه العسكرية وحبه للقتال واشتياقه لميادين الجهاد. وشاءت إرادة اله أن يلي الخلافة فقد وقع اختيار أخيه المأمون له فوليها بعد وفاته سنة ٢١٨هـ، بل وصار جميع الخلفاء العباسيين من بعده من ذريته، ولم يجعل الله من نسل غيره من أولاده الرشيد خليفة(١).

الظروف والملابسات السياسية والعسكرية التي دفعت المعتصم للاستعانة بالأتراك :

من أهم الموضوعات التي تستحق الدراسة في عصر المعتصم هو ما قام به من الإكثار في جلب الأتراك والتقوي بهم وتقريبهم في بلاطه والاعتماد عليهم وحدهم في حروبه فيقاوم بهم النفوذ الفارسي في الدولة العباسية فوصل الأمر بهم إلى احتلال مكان الصدارة في القيادة وفي البلاط على حساب كل من العرب والفرس.

الواقع أن الاستعانة بالأتراك في البلاط العباسي وفي مهام الدولة بدأت قبل المعتصم(٢)، فبعض الخلفاء قبله قد استخدموا الأتراك في بلاطهم وأودعوهم أسرارهم، بل واسندوا إليهم مهمة الحفاظ على سلامتهم الشخصية، فكان أبو جعفر المنصور يتخذ من (**حماد التركي**) قيِّما في قصره ويستأمنه على أهم الأشياء لديه(٣).

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص ٢٨٠.
(٢) ويذكر الطبري، وابن خلكان أنه كان في جيش يزيد بن هبيرة ألف وثلاثمائة من البخارية (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٦، ص ٣١٦].
(٣) الطبري، ج٨، ص ١٠٣.

وتوسع الرشيد في استخدام الأتراك في بلاطه وجيشه، فكان منهم **(مسرور السياف)** الذي اسند إليه الرشيد مهمة قتل أبرز شخصية برمكية وهو جعفر بن يحيى البرمكي، وقد نفذ مسرور تلك المهمة الشاقة والتي لا يمكن أن يوكلها الرشيد له لولا ثقته به(١) ومنهم أبو مسلم فرج التركي أحد قادة الرشيد.

واستمر التوسع في استخدام الأتراك في عهد المأمون حتى وصل بعضهم إلى مناصب القيادة في الدولة ومنهم **(طولون والد أحمد بن طولون)** و**(كاوس والد الأفشين)** الذي قدم على المأمون ببغداد وأعلن إسلامه، وولاه المأمون على بلاد أشروسنة(٢).

وفي عهد المأمون كان أمير خراسان من الطاهريين يقدم لحكومة بغداد ضريبة على شكل ألفي مملوك تركي كل عام والذين كانوا يشكلون حرس الخليفة الشخصي، وكانت عادة إحاطة الحاكم نفسه بمماليك وبحرس من الأتراك عادة إيرانية مألوفة وقد ساهم البرامكة وعلى الأخص الفضل بن يحيى بنشر هذه الطريقة التي انفتح العالم الإسلامي بواسطتها تدريجياً أمام المؤثرات التركية(٣).

ولم تقتصر عادة استخدام الأتراك في بلاط الحاكم على الدولة الإسلامية وحدها وإنما كانت أيضاً في البلاط البيزنطي في هذه الفترة، فيذكر موريس لومبارد في كتاب الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي: «كانت أهمية عبيد فرغانة **(من الأتراك)** في تكوين حرس الامبراطور البيزنطي لا تقل عن أهمية دورهم في حرس الخلافة في بغداد»(٤).

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص ١٩٠.

(٢) عبد العزيز اللميلم، نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية، ص ٢١٢.

(٣) موريس لومبارد، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ص ٧١ من الترجمة العربية لعبد الرحمن حميدة.

(٤) ص ٧٢.

وابتداء من قيام دولة السامانيين سنة ٢٠٥هـ أخذت ظاهرة التتريك في الاتساع، فقد كان الأتراك يؤلفون حرس إمارة بخارى وكان الحكام يحصلون عليهم إما بالشراء، فقد تم صفقات شراء كثيفة من الرقيق الترك عند الحدود مع عشائر متناحرة، وإما بالأسر، فقد كانت تقوم غارات من الثغور ضد القبائل الوثنية المجاورة وكان يتم استخدام هؤلاء وأولئك في البلاد نفسها أو يساقون غربًا بعد دفع رسوم الجمارك عند عبور نهر جيجون.

وهكذا كثر الأتراك في كل مكان بعد أن فتح المسلمون الحدود على منطقتهم تلك الحدود التي كانت مغلقة أيام الدولة الساسانية وانساحوا غربًا في سيل لا ينقطع، وكأنما كانت السماء تمطر تركًا على حد وصف بعض المؤرخين[١] وأصبحت في الدولة السامانية تقاليد بتربية المماليك الأتراك أخذت بها الدول الإسلامية بعدها سنذكرها عند الحديث عن الدولة السامانية.

وفي أواخر عهد المأمون دفعت الأحداث المعتصم إلى (فقدان الثقة في الفرس والعرب)، أما الفرس فقد اتضح بما لا يدع مجالاً للشك أنهم يقصدون الاستبداد بالسلطة، وأصبحت الثقة بين الخلفاء والفرس مفقودة، أما العرب فقد أدركوا أن سلطانهم قد زال بزوال دولة الأمين بسيوف الفرس مما سبب ثورة (**نصر بن شبث العقيلي**) بالشام وثورة (**السري بن منصور الشيباني**) بالكوفة وثورة عرب الشمال وعرب الجنوب في مصر، فبدأ المعتصم يستكثر من المماليك الأتراك حوله أيام أخيه وكان يرسل رسله لشرائهم من سمرقند وغيرها من بلاد الأتراك، وأسند إلى هؤلاء الأشخاص المحافظة على سلامته الشخصية، فجعل منهم حرسه الخاص، وأدخلهم في جيشه المحارب، ثم توسع في هذا بعد أن ولي الخلافة إلى أن أصبح الأتراك قوام جيشه.

---

(١) محمد عبد الهادي شعيرة.

ويمكن أن نجمل العوامل التي دفعت المعتصم إلى التوسع في الاعتماد على الأتراك إلى تأثر المعتصم بأمه التركية وكان هو شخصيًا يحمل كثيرًا من صفاتهم الوراثية التي تتعلق بالقوة كما سبق أن أشرنا، بالإضافة إلى جدب المناطق الحضارية العربية من الرجال المحاربين وعودة البعض الآخر إلى خلافاتهم القبلية التي قضى عليها الإسلام، وكان لانتشار الزندقة بين الفرس والفوضى والإباحية بينهم وغرامهم المستمر ورغبتهم في إحياء الدولة الفارسية الساسانية القديمة واعتناق معظم الفرس لتعاليم الشيعة، وتكرار محاولاتهم تحول الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي كل هذه العوامل دفعت المعتصم إلى الاعتماد على الأتراك وحدهم لأنه شعر بالملل من الصراع الشعوبي المستمر بين العرب والفرس[١] الذي أضعف الطرفين في ميادين القتال لدرجة أنهم لم يستطيعوا تحقيق النصر على قوات بابك الخرمي في نهاية عصر المأمون ولم يتحقق النصر إلا عندما استعان المعتصم بالأتراك على نطاق واسع وأسند مهمة القيادة إليهم. وكانت هذه القوة الجديدة في غاية الحيوية والتماسك لأنها بعيدة عن الزندقة والتشيع والشعوبية.

تأثير الأتراك في الحياة الاجتماعية في بغداد:

ازدادت أعداد الأتراك في بغداد في بداية عصر المعتصم زيادة ملحوظة، وأصبحوا يزاحمون الناس في طرقات وأسواق وضواحي العاصمة بشغبهم وضوضائهم وجلبتهم، حتى يذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان أن عددهم بلغ نحو سبعين ألفًا، وامتدت أيديهم إلى حُرُم الناس وسعوا فيها بالفساد[٢]، وكانوا مسئولين عن الفوضى والمشاكل والمتاعب التي جدت في بغداد، ويذكر نظام الملك السلجوقي في كتابه (سياست نامه) أن المعتصم كان له من الموالي الترك ما لم يتفق لغيره حتى لقد قيل أنه كان له

---

(١) انظر: فاروق عمر، الخلافة العباسية في عهد الفوضى العسكرية، ص ٦٠ - ٦١، ونادية صقر، مطلع العصر العباسي الثاني، ص ٥٤.

(٢) ص ٨١ من الترجمة العربية للدكتور السيد محمد العزاوي، نشر دار الرائد العربي، القاهرة، سنة ١٩٨٦، وياقوت معجم البلدان، ج٣، ص ١٧٤.

سبعمائة ألف غلام تركي رفع منزلة كثير منهم وسما بهم إلى الإمارة، وكان يقول دائمًا : «لا أجد خيرًا من الترك في الخدمة».

وربما كان هذا التقدير الأخير لأعدادهم في أوج كثرتهم في نهاية عصر المعتصم.

وكانت هذه الأعداد مع عجمتها كما يقول الطبري : «جفاة يركبون الدواب فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة ويطأون الصبي فيأخذهم الأبناء فينكسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم فربما هلك من الجراح بعضهم، فشكت الأتراك ذلك إلى المعتصم وتأذت بهم العامة[1].

وكان أمرًا طبيعيًا أن يستاء أهل بغداد من هذه الفوضى ويتذمروا من هذه الأوضاع، فضجوا بالشكوى للمعتصم، ففي سنة ٢٢٠هـ بينما كان المعتصم منصرفًا من صلاة عيد الأضحى (وقيل عيد الفطر) اعترض طريقه أحد الشيوخ وناداه : «يا أبا إسحق، فابتدره الجند ليضربوه فأشار إليهم المعتصم فكفهم عنه، وقال للشيخ : مالك؟ قال : لا جزال الله عن الجوار خيرًا!!! جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج فأسكنتهم بين أظهرنا، فأيتمت بهم صبياننا، وأرملت بهم نسواننا وقتلت بهم رجالنا، والمعتصم يسمع ذلك كله، ثم دخل داره فلم ير راكبًا إلى السنة القابلة في مثل ذلك اليوم، فلما كان في العام المقبل في مثل ذلك اليوم خرج فصلى بالناس العيد ثم لم يرجع إلى منزله ببغداد، ولكنه صرف وجهه إلى ناحية القاطول (**محل مدينة سامر الجديدة**) وخرج من بغداد ولم يرجع إليها»[2].

ويضيف ياقوت رواية أخرى في هذا الصدد فيقول : «لما ضاقت بغداد عن عكسر المعتصم، وكان إذا ركب يموت جماعة من الصبيان والعميان والضعفاء لازدحام الخيل وضغطها، فاجتمع أهل الخير على باب المعتصم وقالوا : إما أن تخرج من بغداد، فإن الناس قد تأذوا بعسكرك أو نحاربك،

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص١٨.

(٢) المصدر السابق، ج٩، ص١٨.

فقال : كيف تحاربونني؟ قالوا : نحاربك بسهام السحر، قال : وما سهام السحر؟ قالوا : ندعوا عليك، قال المعتصم : لا طاقة لي بذلك وخرج من بغداد ونزل سامراء»(١).

وعلى ذلك فقد كان تأثير الأتراك السيئ في حياة البغداديين سببًا في نقل العاصمة مؤقتًا من بغداد إلى سامرا(٢) سنة ٢٢١هـ واستقرار المعتصم بها إلى أن توفي سنة ٢٢٧هـ، واستمر بها الخلفاء من بعده حتى سنة ٢٨٩هـ في عهد المعتضد، وكانت هذه الفترة (٢٢١ - ٢٨٩هـ) فترة تسلط شديد من قبل الأتراك وتدخل واضح في تدبير أمور الدولة وسياستها وخلع الخليفة وتعيين غيره وقتل الخلفاء على المعارضين لهم بأشنع الوسائل.

الدور الذي لعبه الأتراك في حروب المعتصم :

كان للأتراك دور كبير في الانتصارات التي حققها المعتصم في ساحات القتال مع بابك الخرمي، وفي الحرب التي خاضها المعتصم على الحدود مع دولة الروم، فالأتراك جنود أقوياء عرفوا بالشجاعة والبطولة، والرجل التركي العادي مقاتل بطبعه لا يعرف التراجع والانسحاب في ساحات القتال، واستطاع الأتراك بشجاعتهم وبطولتهم وتماسكهم أن ينالوا تقدير الخليفة وعلى رأسهم قائدهم المسمى الأفشين **(حيدر بن كاوس)** الذي تمكن من الانتصار على بابك الخرمي كما سبق أن ذكرنا.

ولعب الأتراك دورًا بارزًا في الحرب ضد الدولة الرومانية التي تحفزت للنيل من المسلمين، وكان امبراطور الروم **(ثيوفيل)** قد خرب زبطرة وقتل من بها من الرجال وسبي النساء والذرية، وأغار على ملطية وغيرها من حصون المسلمين ومثل بمن أسرهم من المسلمين فسمل عيونهم وقطع

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص ١٧٤.

(٢) هي بالارامية سامرا، وبالعربية سر من رأى، وتنطق أحيانًا سامراء وهي بين بغداد وتكريت، بينها وبين بغداد ثلاثين فرسخًا ما يعادل ١٨٠ كم (الفرسخ ٣ أميال والميل ٢ كم).

أنوفهم وآذانهم، وكان من بين الأسرى امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم : وامعتصماه، وبلغت هذه الصيحة المعتصم بسر من رأى فأجابها : لبيك لبيك، ونهض من ساعته سنة ٢٢٣هـ وصاح في قصره : «النفير النفير»(١).

وعندما وصل (**المعتصم**) إلى الحدود عند (**زبطرة**) وجد أن ملك الروم قد انصرف عنها إلى بلاده بعدما فعل بها وخربها، فأراد المعتصم الرد على اعتداء ملك الروم بمثل ماعتدى على المسلمين، فقال : أي بلاد الروم أمنع وأحصن؟ فقيل له : (**عمورية**) لم يعرض لها أحد من قبل وهي عين النصرانية، فسار إليهم المعتصم وتجهز بجيش ضخم قوامه الأتراك وعلى رأسهم : الأفشين وإيتاخ وأشناس ووصيف، وتمكن بهذا الجيش المتماسك من تحقيق النصر وفتح عمورية وسبي كل من فيها، وأمر بها فهدمت، وأحرقت وتركها عائداً في رمضان سنة ٢٢٣هـ على عجل لأمر هام علم به، ولكن بعد أن ثأر لمن نَكَّلَ بهم من المسلمين والمسلمات(٢)، وقد ظهرت عبقرية المعتصم الحربية في هذه الحرب وقدرة الأتراك القتالية في اقتحام الحصون والموانع ونجحوا في الثأر من الروم الذين تجرأوا على الدولة الإسلامية في وقت شدتها. وهكذا يهيئ الله لدينه في كل عصر من يدافع عنه وقد خلد أبو تمام هذه الواقعة في قصيدة من عيون الشعر العربي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب * في حَدِّه الحد بين الجد واللعب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك * المنى حُفَّلا معسولة الحلب
أبقيت جَدَّ بني الإسلام في صعد * والمشركين ودار الشرك في صبب(٣)

وعاد الجيش الإسلامي في فرح عظيم لهذا النصر، ولكن هذا الفرح

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ٢٤٧.

(٢) الطبري، ج٩، ص ٥١ - ٧٠، وابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ٢٤٦ - ٢٥٠.

(٣) صبب معناها إنحدار.

عكر صفوه ما وصل إلى المعتصم من تآمر العباس بن المأمون ضد عمه المعتصم مع بعض العرب والأتراك. وكان ملخص هذه المؤامرة أنه اتفق مع المتآمرين باغتيال المعتصم وبعض قواده الأتراك أثناء عودتهم من فتح عمورية، وذلك لموقف المعتصم من العرب وتفضيله الأتراك عليهم ومنحه الأفشين سلطانًا استطاع به أن يسقط من الجندية أسماء العرب. وتم إعداد المؤامرة بقيادة أحد القواد العرب وهو (**عجيف بن عنبسة**)، وبعدها يتم تعيين العباس خليفة، ولكن المعتصم اكتشف المؤامرة قبل تنفيذها، إذ يقال أن المتآمرين شربوا خمرًا وأثقلوا منها فأفضوا بسر المؤامرة إلى من نقلها إلى المعتصم فقتلهم جميعًا، أما العباس فمنع عنه الماء حتى مات في محبسه عطشًا(١).

خيانة الأفشين:

الأفشين هو حيد بن كاوس كان والده قد دخل في خدمة المأمون وأظهرا إسلامهما، وكانا من سلالة ملوك (**أشروسنة**) في بلاد ما بين سيحون وجيجون في شرقي سمرقند، وكان كل من ملك أشروسنة يسمى الأفشين، وحين تولى المعتصم الخلافة برز اسم الأفشين ولا سيما بعد نجاحه في قيادة القوات التركية التي قضت على بابك الخرمي واشتراكه في الحروب التي دارت مع الدولة الرومانية، وعلى الأخص يوم عمورية، وبهذا أصبح كبير قادة المعتصم، ولكن وصول الأفشين إلى هذا المنصب الكبير أثار فيه نعرته الأعجمية وتعصبه لدينه القديم.

وكان الأفشين وغيره من الأتراك دخلوا الإسلام بادئ ذي بدء طمعًا في مكاسبه ومناصبه العسكرية التي كانوا مؤهلين لها بحكم خشونتهم وبداوتهم، وكان وضع إسلامهم كالأعراب الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، ولهذا كثرت حركات الردة بينهم، وكان بعضهم منطويًا على غش وخيانة للإسلام مثل الأفشين، وهذا ما ثبت بالأدلة القاطعة وبالمحاكمة العلنية وبشهادة الشهود.

---

(١) الطبري، ج٩، ص ٧٧.

وكان الأفشين يضطهد العرب ويتخلص منهم بكل الوسائل وخاصة القواد مثل أبي دُلَفْ (**القاسم بن عيسى العجلي وهو من ربيعة**) وكان أبو دلف مشهورًا بالشجاعة والكرم، وكان من رجال المأمون والمعتصم وحَبَسَهُ الأفشين أيام المعتصم بسبب ما كان بين الترك والعرب من نزاع، وسعى قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد، فأطلقه بأعجوبة(١).

وكان الذي كشف الأفشين هو (**عبد الله بن طاهر**)(٢) والي خراسان فقد أرسل للخليفة أن الأفشين على اتصال (**بالمازيار بن قارن**) الذي يناصر الخرمية، ويتزعم جماعة منهم في منطقة طبرستان، ويعمل معهم على هدم الإسلام، وكان الأفشين يجمع الأموال في بلاده، وأثبت عبد الله بن طاهر أنه لم يصله وهو يحارب بابك الخرمي مال إلا أرسله إلى منطقة أشروسنة، وصادر عبد الله بن طاهر كثيرًا من هذه الأموا وهي في طريقها إلى أشروسنة مما يد على أنه كان يسعى إلى الاستقلال ببلاده عن الدولة، وكان يقول لعبد الله لا فرق بين أموالي وأموال الخليفة(٣).

وقضى المعتصم على قوة حليفة (**المازيار**)(٤) أولاً، فقد وجه إليه عبد الله ابن طاهر سنة ٢٢٥هـ فانتصر عليه وأسره وحمله إلى سامرا فأقر على الأفشين أنه هو الذي دفعه إلى الخروج على الدولة والعصيان، وقبض على الأفشين قبل قدوم المازيار بيوم، وأقر عليه كاتب له يقال له (**سابور**) بما

---

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١٢، ص ٤١٦ - ٤٢٣.

(٢) هو ابن طاهر بن الحسين أمير خراسان وقائد جيوش المأمون والذي توفي سنة ٢٠٧ هـ بمرو عاصمة خراسان بعد ثلاثة سنوات من ولايته، وتولى بعده ابنه (عبد الله) وكان كثيرًا ما يخلفه أخوه (طلحة) على خراسان عند انتداب عبد الله بن طاهر للمهام الكبرى مثلما حدث عند انتداب الخليفة له للقضاء على ثورة مصر فوليها من سنة ٢١٠ - ٢١٣هـ [ابن خلكان، وفيات ....، ج٢، ص ٥٢١].

(٣) الطبري، ج٩، ص ١٠٤ - ١١٣، وابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص ٢١٥، والمسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص ١ - ٦٢.

(٤) كان المأمون قد اصطنع المازيار على بلاده، فعصى أيام المعتصم وكثرت عساكره وكتب المعتصم إليه بالحضور فأبى، فكلف المعتصم عبد الله بن طاهر بحربه.

كان يكاتب به المازيار، كما وجدوا بعض الأصنام في داره، وقيل إنه كان يعبدها، وثبت عليه أنه جلد إماماً ومؤذناً بنيا مسجداً في أشروسنة، كما وجدوا عنده كتباً قيل إن بها كفر بالله، وثبت بأدلة الشهود أنه كان يأكل المخنوقة ويقول إن طعمها أطيب من المذبوحة، وأنه لم يتطهر (**لم يختتن**) وكان يكاتب قومه بقوله : «من إله الآلهة إلى عبده فلان»[١].

ولم يرد المعتصم أن يقتله سراً لأنه ربما ثار الأتراك عليه، فأراد أن يعقد له محاكمة علنية ويحضر الشهود عليه أمام الأتراك وبحضور كبارهم ليخلص ذمته أمامهم من مظنة ظلمه أو مقولة أنه أخذه غِيْلة وكانت هذه المحاكمة أمام قاضي القضاة (**أحمد بن أبي دؤاد**) وبحضور الوزير (**محمد بن عبد الملك الزيات**) (من أصل تركي) و(**إسحق بن إبراهيم ابن الحسين بن مصعب**) صاحب الشرطة[٢].

وكان الذي يمثل الإدعاء وتوجيه الاتهامات هو محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم، وجرت المحاكمة على النحو التالي :

وكانت التهمة (**الأولى**) : أنه جلد إماماً ومؤذناً بنيا مسجداً في أشروسنة وقد أُحضر الرجلان فكشفا عن ظهريهما وبهما آثار الجلد، وقال له الزيات : تعرف هذين؟ قال الأفشين : نعم، هذا مؤذن وهذا إمام أشروسنة وثبا على بيت فيه أصنام فأخرجا الأصنام واتخذوه مسجداً فضربت كل واحد منهما ألف سوط لأن بيني وبين ملوك السُّغد عهد وشروط أن أترك كل قوم على دينهم وما هم عليه[٣].

وكانت التهمة (**الثانية**) : العثور على كتاب فيه كفر بالله قال له الزيات : «ما كاب عندك قد زينته بالذهب والجواهر والديباج فيه الكفر بالله؟ قال

(١) الطبري، ج٩، ص ١٠٤ - ١١٣، والمسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص ٦١ - ٦٢.

(٢) كان صاحب الشرطة أيام المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل وهو ابن أخ طاهر بن الحسين وكان ذا رأي وشجاعة وتوفي سنة ٢٣٥هـ وظلت الشرطة في أسرتهم نحو قرن من الزمان.

(٣) الطبري، ج٩، ص ١٠٧.

الأفشين : هذا كتاب ورثته عن أبي فيه أدب من آداب العجم، وما ذكرت من الكفر، فكنت استمتع منه بالأدب، وأترك ما سوى ذلك ووجدته محلى فلم تضطرني الحاجة إلى أخذ الحلية منه فتركته على حاله، ككتاب كليلة ودمنة وكتاب مزدك في منزلك، فما ظننت أن هذا يخرج عن الإسلام(١).

وكانت التهمة **(الثالثة)** : أكل المخنوقة، حيث تقدم شاهد أنه كان يأكل المخنوقة ويحمله على أكلها ويزعم أن أرطب لحمًا من المذبوحة فلم ينف الأفشين هذا، وإن كان رفض شهادة الشاهد وكان مجوسيًا وقال : إنه لا يوثق به في دينه وليس شاهد عدل.

والتهمة **(الرابعة)** : مكاتبة أهل أشروسنة بأنه إله الآلهة، وعندما سئل كيف يكتب إليك أهل أشروسنة؟ قال : كما كانوا يكتبون إلى أبي وجدي، قال أحد الشهود : أليسوا يكتبون إليك بما تفسيره بالعربي : إلى إله الآلهة من عبده فلان بن فلان» قال : بلى!، فرد عليه محمد بن عبد الملك قائلاً : والمسلمون يحتملون أن يقال لهم هذا ؟ فما أبقيت لفرعون حين قال لقومه : «أنا ربكم الأعلى» قال الأفشين : كانت هذه عادة القوم لأبي وجدي ولي قبل أن أدخل في الإسلام فكرهت أن أضع نفسي دونهم فتفسد عليَّ طاعتهم(٢).

أما التهمة **(الخامسة)** : فكانت عدم اختتانه، وعندما سأله أحمد بن أبي دؤاد : أمُطَهَّرٌ أنت؟ قال : لا، قال: فما منعك من ذلك وبه تمام الإسلام والطهور من النجاسة، قال : أو ليس في دين الإسلام استعمال التقية؟ قال: بلى، قال: خفت أن أقطع ذلك العضو من جسدي فأموت، قال له : أنت تطعن بالرمح وتضرب بالسيوف فلا يمنعك ذلك من أن تكون في الحرب وتجزع من قطع قلفة؟ قال تلك ضرورة ... فأصبر عليها إذا وقعت، وهذا شيء استجلبه فلا آمن معه خروج نفسي، ولم أعلم أن في تركها الخروج عن الإسلام.

---

(١) المصدر السابق، ج٩، ص ١٠٧ - ١٠٨.

(٢) المصدر السابق، ج٩، ص ١٠٩.

عند ذلك قال قاضي القضاة موجهًا حديثه إلى كبار الأتراك : قد بان لكم أمره يا بغا (وهو بغا الكبير أبو موسى أحد كبار الأتراك) عليك به، فأخذه بغا من مجامع ثيابه إلى محبسه، وطلب الأفشين من المعتصم العفو عنه وأرسل إليه قائلاً : «يا مولاي أحسنت إليَّ وشرفتني ثم قبلت فيَّ كلامًا لم يتحقق عندك، كيف يجوز لي أن أفعل ذلك؟ الله الله في أمري، اصطنعتني وشرفتني وأنت سيدي ومولاي، أسأل الله أن يعطف قلبك عليَّ» فلم يقبل المعتصم له عذرًا وحبسه إلى أن مات جوعًا، ثم أحرقت جثته سنة ٢٢٦هـ[1].

وعلى كل حال فإن محاكمة الأفشين كانت الأولى من نوعها من ناحية توجيه الاتهامات إلى المتهم وإعطائه فرصة للدفاع عن نفسه أمام الحاضرين فلم يكن هناك شك في إدانته ولا في نوعية الجرائم التي اتهم بها، وانتهت المحاكمة بإدانته وإثبات أنه مرتد عن الإسلام وثبتت ضده أيضًا تهمة الخيانة العظمى للدولة وهي اتصاله بأعداء الإسلام سرًا وتفكيره في الاستقلال بمنطقته عن الدولة الإسلامية وخيانته لثقة الخليفة فيه الذي عينه كبيرًا لقواده وهي بذلك تختلف عن عملية التخلص من أبي سلمة الخلال وأبي مسلم الخراساني وجعفر البرمكي والفضل بن سهل وغيرهم.

فقتله المعتصم بعد هذه المحاكمة العلنية ليكون هذا زاجرًا لغيره من بني جنسه، كما أوضحت هذه المحاكمة ضرورة أخذ الحذر والحيطة من الأتراك أيضًا، فلديهم طموح مثل الفرس في الانحياز إلى منطقتهم والاستقلال بها عن الدولة الإسلامية.

---

(١) المصدر السابق، ج٩، ص ١١٤.

الوضع في الجزيرة العربية
بعد تغلب الأتراك

سبق أن ذكرنا حدوث ردة فعل بسبب هزيمة العرب في الصراع الذي دار بين الأمين والمأمون من ثورات للعرب بالشام والعراق ومصر، ولكن الدولة العباسية استطاعت أن تخمد هذه الثورات في أيام المأمون والمعتصم بكثير من العنف دون محاولة منها لإرضاء جانب العرب الذين اتضح لهم وخاصة أيام المعتصم أنهم أبعدوا تمامًا عن دائرة الضوء وعن الاشتراك في الجندية، وكانت آخر المحاولات اليائسة هي محاولة قام بها العباس بن المأمون للإطاحة بالمعتصم وكبار الأتراك لإعادة التوازن لصالح العرب، ولكنها كانت محاولة غير محكمة وطائشة، وكانت نهايتها الفشل وقتل العباس والقضاء على كل أنصاره.

لكن الشيء الهام الذي يرصده المؤرخ في عصر الواثق (٢٢٧ - ٢٣٢) أن العرب عندما أبعدوا عن الجيش الإسلامي لم يقبلوا أن يعيشوا في قهر العراق، فعاد بعضهم بل معظمهم إلى جزيرتهم(١) وقاموا بحركات ضد الدولة العباسية ظاهرها الإغارة على من جاورهم للسلب والنهب وقطع الطريق إلى الحج وفرض إرادتهم في المدينة ومكة وما جاورهما من الأماكن الحضارية بالحجاز، لكن المدقق لهذه الأحداث يدرك أن هدفها كان مناوأة الدولة العباسية التي قدمت العجم على العرب.

وكان هذا أمرًا مؤسفًا لأن هذه القوة العربية كانت توجه من قبل إلى

---

(١) لأنهم لم يقبلوا أن يعيشوا في ضيم وظلم ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا﴾ [النساء : آية ٩٧] وقال جل شأنه : ﴿ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾ [النساء : آية ٧٥] ذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل المطيعين، قال الله تعالى : ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ فإذن ليس في شيء من أسباب نقص الدين البتة رضا مطلق إلا من حيث إضافتها إلى فعل الله تعالى، فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بحال [الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٤، ص ٣٢٧].

ساحات الجهاد مع أعداء الإسلام وبفضلهم تمت الفتوح الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي ثم ظهر الموالي في العصر العباسي وزاحموا العرب لأن قيام الدولة العباسية كان بجهود الموالي الأمر الذي جعل لهم شأنًا عظيمًا في أمور الدولة، فكان القواد منهم وكان الوزراء منهم والكتاب منهم فزاحموا العرب وتقدموا عليهم في شتى المجالات، وكان انتصار المأمون بسواعدهم مما دعم مركزهم في الدولة وأنقص من شأن العرب حتى لم يعد من العرب قائد معروف كما كان في عهد المنصور والمهدي والرشيد، وصار معظم الجند حتى عصر المأمون إنما هم من أهل خراسان والأبناء من الفرس، وصار معظم الاعتماد عليهم وابتداء من عصر المعتصم ظهرت أسماء قواد الأتراك[1] واستعان المعتصم بالأتراك كما رأينا على نطاق واسع.

ولا شك أن هذا الوضع مما أضعف العرب وأضعفت الدولة العباسية تمامًا وجعلها أسيرة في يد الموالي من الفرس أولاً ثم الأتراك بعد ذلك.

وكان هذا الوضع المتدهور لمركز العرب مجال اعتراض من عقلاء العرب في عصر المأمون، فقد روى الطبري وابن الأثير أنه تعرض رجل عربي للمأمون بالشام مرارًا وقال له : «يا أمير المؤمنين انظر إلى عرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان، فقال له المأمون : أكثرت عليَّ يا أخا أهل الشام، والله ما أنزلت (**قيسًا**) عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد، فأما (**اليمن**) فو الله ما أحببتها ولا أحبتني قط وأما (**قضاعة**) فسادتها تنتظر السفياني وخروجه حتى تكون من أشياعه، وأما (**ربيعة**) فساخطة على ربها مذ بعث الله نبيه من مضر، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شاريًا، أعزب فعل الله بك»[2].

(١) الخضري، الدولة العباسية، ص ٢٠٢.

(٢) الطبري، ج٨، ص ٦٥٢، وابن الأثير، ج٥، ص ٢٢٧ – ٢٢٨. وهذا الكلام يعيد إلى الأذهان التعصب القبلي بأوضح صوره يوم أن قال رجل من ربيعة لمسيلمة الكذاب : «أشهد أنك كذاب، وأن محمدًا صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر» الطبري، ج٣، ص ٢٨٦.

وهذا تصريح خطير من المأمون، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على أن هذه القوة العربية التي كان العالم الإسلامي يحس بوجودها ويخشى الخلفاء سطوتها قد ضعفت فاجترأ خليفة المسلمين بالجهر بهذا القول في حقها على ملأ من الناس الأمر الذي يدل على عدم الثقة الكاملة في العرب، ولما كان جيش الدولة هو الذي يدل على حقيقتها كان من الواضح أن الدولة ليس لها من العربية إلا اللغة، أما العصبية العربية للعنصر العربي فقد أشرفت على الانتهاء(١).

ولذلك كانت النتيجة الخطيرة هو عودة كثير من العناصر العربية إلى موطنها الأصلي بالجزيرة العربية بعد أن زاحمتها وعادتها العناصر التركية، ونظر إليها الخلفاء العباسيون هذه النظرة من عدم الثقة، فعادوا إلى الجزيرة العربية وانقطعت عنهم أرزاقهم التي كانت مرتبة لهم في ديوان الجند، ولم يستبق هؤلاء شيئًا للزمن فلم تكن هناك يومئذ مجالات لتنمية أموالهم التي سبق أن حصلوا عليها من الفتوح الإسلامية، ولم يعد لهم سوى حياتهم التي ألفوها قبل الإسلام في الجزيرة العربية، فعادوا إلى عاداتهم السيئة فيما يتعلق بالسلب والنهب والإغارة على بعضهم البعض، وعلى الأخص الإغارة على الأماكن الحضارية في الحجاز.

والذي يتصفح ما كتبه الطبري وابن الأثير وغيرهما من الكتاب عن عصر الواثق يجد كثيرًا من حوادث الإغارة من قبائل (**بني سليم**) و(**بني هلال**) و(**بني نمير**) و(**فزارة**)(٢) و(**مُرّة**) و(**غطفان**) و(**طيئ**) و(**بني ثعلبة**) على بعضهم، وعلى الأخص ما قامت به قبائل بني سليم وبني هلال من الإغارة على المدينة وعلى القرى والمناهل(٣) ما بين مكة والمدينة مما سبب انقطاع الطريق ونشر الخوف في هذه الأماكن بعد أن أنعم الناس فيه

(١) الخضري، الدولة العباسية، ص ٢٠٣.

(٢) الذي ينتمي إليهم (يزيد بن عمر بن هبيرة) الذي قتله المنصور غدرًا بعد أن أمنه.

(٣) المناهل جمع منهل، والمنهل هو المشرَبُ والموضع الذي فيه المشرب والمنزل يكون في المفازة وعلى ذلك فالمناهل أماكن الشرب وموارد المياه بالصحراء. والناهلة المختلفة إلى المنهل (القاموس المحيط).

زمنًا طويلاً بالأمن والأمان منذ صدر الإسلام حتى عصر الواثق، ولم تكن تقع هذه الحوادث من قبل إلا في القليل النادر.

حوادث بني سليم وبني هلال :

فيذكر الطبري وابن الأثير في حوادث سنة ٢٣٠هـ أن بني سُليم[(١)] تطاولت على الناس حول المدينة بالفساد والشر، وكانوا يدخلون الأسواق بالحجاز ويأخذون ما أرادوا بأي سعر أرادوا، ثم زاد شرهم عندما أوقعوا بناس من كنانة[(٢)] وباهلة[(٣)] فأصابوهم وقتلوا بعضهم في جمادى الآخرة سنة ٢٣٠هـ، وكان يتزعمهم في هذه الإغارات قائد منهم يسمى **(عُزيرة بن قطّاب السلمي)** وكان عامل المدينة يومئذ هو : «محمد بن صالح بن العباس الهاشمي» الذي طلب المعونة من الخليفة الواثق فأرسل إليه **(حماد بن جرير الطبري)** في جماعة من الجند حوالي ٢٠٠ فارس لكي يحافظوا على المدينة من هجمات الأعراب وخرج حماد بمن معه من الرجال ومن تطوع للخروج من القرشيين والأنصار وبعض مواليهم وغيرهم من أهل المدينة، وسارت هذه القوات إلى الرويثة[(٤)] وتقابلت بطلائع بني سليم عندها

(١) بنو سُليم ينتسبون إلى سُلَيْم بن منصور بن عكرمة من قيس عيلان من مضر من العدنانية وديارهم من وادي القرى إلى عالية نجد بالقرب من خيبر إلى شرقي المدينة وحرة بني سليم وحرة ليلى، ونفاهم عبد الملك بن مروان مع بني هلال إلى غربي سيناء وبرزخ السويس حيث عملوا خفراء للقوافل، وكان يلجأون للسلب في فترات الفوضى. ويفخر بنو سليم أنهم كانوا مع الرسول يوم (فتح مكة)، وأنه قدم لواهم الأحمر على الألوية ويفخرون أن عمر كتب إلى الكوفة والبصرة والشامو مصر أن ابعثوا لي من كل بلد بأفضله رجلاً فبعث أهل البصرة بـ (مجاشع بن مسعود السلمي) وبعث أهل الكوفة بـ (بعتبة بن فرقد السلمي) [انظر : الفائق للزمخشري، ج٢، ص ٥٧، وتاج العروس للزبيدي، ج٧، ص ١٥٩، وعمر رضا كحالة قبائل العرب وياقوت في معجم البلدان، وموريس لومبارْد في الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي، ص ٣٠].

(٢) كنانة منهم قحطانية قريبًا من مكة، ومنهم كنانة بطن من كنانة بن خزيمة من قريش.

(٣) باهلة من قيس عيلان عدنانية (نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب، القلقشندي).

(٤) الرويثة : ماء لبني عجل بين طريق الكوفة والبصرة إلى مكة (ياقوت وبني عجل من بكر بن وائل عدنانية (من ربيعة) (كحالة، معجم قبائل العرب).

وهي على ثلاثة مراحل من المدينة على الطريق بينها وبين مكة[١].

ومن بني سليم الخنساء الشاعرة، وأخوها صخر بن عمرو بن الحرث. ومنهم نصر بن حجاج الذي نفاه الفاروق عمر بن الخطاب عن المدينة لجماله خوفًا عليه من فتنة أهل المدينة به، وخاصة بعد أن قالت فريعة أم الحجاج بن يوسف الثقفي وكانت زوجة للمغيرة بن شعبة، قالت في نصر شعرًا تتمناه لنفسها :

هل من سبيل إلى خمر فأشرب بها * أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

ولذلك كتب عبد الملك بن مروان للحجاج في بعض كتبه الغاضبة يقول له «يا ابن المُتَمَنِّية !»[٢].

وكانت بنو سليم يومئذ جاءوا من البادية في ستمائة وخمسين مع بعض الأعداد التي أتتهم من أعلى الرويثة فاجتاحت بنو سليم هذه القوات وقتل حماد وعامة أصحابه، وانهزم الباقون ورجعوا واستولت بنو سليم على الغنائم التي كانت معهم، واستباحت القرى ما بين مكة والمدينة واشتد خطرهم على طرق مكة والمدينة وأصبح هذا الطريق غير مأمون وانتشر شرهم إلى من يليهم من العرب.

فوجه إليهم الواثق قائده الكبير (**بغا الكبير التركي**) بقوات أكثر عددًا في شعبان واتجه إلى حرة بني سليم وأوقع بهم عند قرية لهم تسمى السوارقية[٣] كانو يأون إليها، وقتل منهم نحوًا من خمسين وأسر مثلهم، ودعاهم بعد هزيمتهم إلى الأمان على حكم أمير المؤمنين الواثق، وأخذ منهم جماعة ممن وصفوا بالشر والفساد وهم زهاء ألف رجل وسار بهم إلى المدينة فحبسهم بها.

---

(١) الطبري، ج٩، ص ١٢٩ ويذكر ياقوت أن الرويثة على ليلة من المدينة، ج٣، ص ١٠٥.

(٢) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٢٦١ - ٢٦٣.

(٣) السوارقية : قرية لبني سليم نجدية بها سوق لبني سليم يأتيه التجار من الأقطار، وفي مائها بعض الملوحة، وأهلها بادية حولها ويميرون طريق الحجاز وجد في طريق الحج وبعضهم ثابتون وهم من ولدوا بها (ياقوت، معجم البلدان).

وكان منهم بنو هلال من مضر، كانوا يقطنون تهامة الحجاز ومناطق من نجد وحول مكة وفي بسائط الطائف، وأجلاهم عبد الملك بن مروان إلى غرب سيناء وكانوا يعملون هم وبنو سليم في حماية القوافل، وعندما غزا القرامطة الشام كانوا معهم واستقرت بعض بطونهم بالشام وأقاموا بالشام إلى أن غزا الفاطميون الشام وقدموا خدماتهم للفاطميين وتعاونوا معهم فانتقل بعضهم إلى مصر، ثم خرجوا من مصر إلى إفريقية للقضاء على المعز بن باديس الصنهاجي مع بني هلال أيام المستنصر الفاطمي (٤٣٣هـ).

وديارهم بالحجاز بين تهامة ونجد.

منهم : أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية.

ومنهم : أم المؤمنين زينب بنت خزيمة بنت الحارث بن عبد الله الهلالية ماتت في حياة الرسول.

ومنهم : لبانة الصغرى أم عبد الله بن العباس، ولبانة الكبرى أم خالد بن الوليد.

توجه بغا التركي إلى **(بني هلال)** بعد عودته من الحج فأخذ من أشقيائهم نحو ٣٠٠ رجل عند مكان يسمى **(ذات عرق)**(١) وحبسهم في المدينة مع من حبس من بني سليم، ثم قتل أهل المدينة المحبوسين من بني سليم وبني هلال لأنهم حاولوا الفرار فوقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة فقتلوهم عن آخرهم وفيهم زعيمهم **(عُزيرة بن قطاب السلمي)**، وكان بغا غائبًا عن المدينة لمحاربة جماعة من فزارة ومُرة كانت قد هجمت بدورها على فدك، لما عاد علم بقتلهم فشق ذلك عليه.

وتابع بغا هجومه على **(فزارة)** و**(مُرة)** فتوجه إليهم فهربوا من وجهه وظفر ببعضهم واستأمن البعض الآخر، وهرب الباقون مع رئيسهم **(الركاض)** إلى البلقان من أعمال دمشق عند أطراف البادية، وظل بغا

---

(١) ذات عرق في طريق العراق بين تهامة ونجد، وعرق جبل مشرف على ذات عرق في طريق العراقيين إلى مكة (ياقوت، معجم البلدان) وذات عرق ميقات أهل العراق والمشرق.

يتابع أعماله في بطون غطفان وفزارة وطيئ وبني ثعلبة وبني نمير وبني كلاب، وأخذ من هؤلاء وهؤلاء كثيراً من الأسرى الذين يشيعون الفساد في الأماكن الحضارية بالحجاز.

وظل بغا يقمع أهل الجزيرة حتى وفاة الواثق سنة ٢٣٢هـ وكانت أشد حروبه مع (**بني نمير**) الذين زاد عبثهم وفسادهم في الأرض وإغارتهم على الناس وخاصة أهل (**اليمامة**) وما قرب منها، حيث توجه إليه بغا فلقى جماعة منهم بموضع يقال له (**الشُرَيْف**)(١) فقتل منهم نيفًا وخمسين رجلاً وأسر منهم أربعين رجلاً، ثم سار إلى قرية لبني تميم من عمل اليمامة تدعى (**مرأة**)(٢) وأقام بها ودعاهم إلى السمع والطاعة وعرض عليهم الأمان، وهم يمتنعون ويشتمون رسله، فتقدم إليهم فحملوا على بغا وجنده وكاد يُهزم لولا مجئ مدد أنقذه فهزموا وولوا هاربين وأسر منهم عدداً كبيراً وقتل البعض الآخر وهرب فرسانهم وتركوا مشاتهم يلاقون حتفهم(٣).

وكان مجموع ما أسره بغا من القبائل العربية وعاد بهم إلى سامرا سوى من قتل وهرب ٢٢٠٠ رجل(٤).

ومع إهمال العرب في شئون الدولة العباسية فإنها أهملت أيضًا الطرق المؤدية إلى الحرمين الشريفين على أيام الأمين والمأمون والمعتصم والواثق لدرجة أن الواثق أراد أن يحج في عام ٢٣١هـ فلم يستطع لأن بعض

---

(١) الشُرَيْف : تصغير شرف، وهو الموضع العالي، والشريف ماء لبني نُمَيْر، وتنسب إليه العقبان، ويقال إنه سرة بنجد وهو أمْرأ نجد موضعاً، وأرض بني نمير الشريف دارها كلها بالشريف إلا بطنًا واحدًا باليمامة يقال لهم بنو ظالم بن ربيعة بن عبد الله، وقال آخر الشريف وادي بنجد فما كان عن يمينه فهو الشرف وما كان عن يساره فهو الشريف، فما كان مشرقًا فهو الشريف وما كان مغربًا فهو الشرف (ياقوت).

(٢) مرأة بالفتح بلفظ المرأة من النساء : قرية بني امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم باليمامة بينها وبين ذات غِسْل مرحلة. (ياقوت).

(٣) الطبري، ج٩، ص ١٤٨.

(٤) المصدر السابق، ج٩، ص ١٤٦ - ١٥٠ وابن الأثير، ج٥، ص ٢٧٦.

عماله (عمر بن فرج) أخبره بقلة الماء في طريق الحج فأعرض عن الحج[١]، وفي سنة ٢٣٢هـ أصاب الحجاج عطش شديد لدى رجوعهم من الحج، فبلغت الشربة الواحدة عدة دنانير، ومات من العطش كثير من العائدين من الحجاج[٢].

وتكررت حوادث العطش هذا في السنوات التالية بعد ذلك ويذكر ابن الأثير أن الأمر بلغ إلى غاية من السوء لدرجة أن الحجاج في حج عام ٢٩٥هـ في عودتهم مات منهم خلق كثير، وحكي أن أحدهم كان يبول في كه ثم يشربه[٣].

وكان يجب على الدولة الاهتمام بالآبار وأحواض المياه التي أنشأها الخلفاء المنصور والمهدي والرشيد لاستمرار نفعها ولكنها أهملت وأهملت الطرق تمامًا مع إهمال الدولة العرب فأصبحت الطرق غير آمنة.

ومن ناحية أخرى فقد كان لهذه الحوادث أثرها السيئ في نفسية العرب حيث أضعفت نفسية العرب أمام الأتراك ذلك لأن أخذ العرب بالآلاف أسرى في يد الأتراك إلى سامرا من المشاهد المؤلمة التي أثرت في نفسية العرب، ويغلب على الظن أن الأتراك كان هدفهم منها قهر شخصية العرب، لأنهم بالغوا في الانتقام منهم في هذه الهجمة التي لم تحدث منذ صدر الإسلام، وعلى الرغم من أن الطبري يذكر أنها كانت بسبب اعتداءات الأعراب على غيرهم في المدينة وعلى الطريق بين المدينة ومكة وعلى غيرهم من القبائل، إلا أن هذه الأخبار ربما بولغ فيها، وخاصة أن الطبري ليس شاهد عيان لها وإنما نقلت إليه وسجلها عن رواية غيره.

ويغلب على الظن أيضًا أن هذه الحركات التي حدثت من بعض القبائل كانت للأعراب عن غضبتهم من هيمنة الأتراك على الخلافة، فلما واجهتهم

---

(١) الطبري، ج٩، ص ١٤٠.

(٢) المصدر السابق، ج٩، ص ١٥٠.

(٣) ابن الأثير، ج٦، ص ١٢٠.

الدولة العباسية بالأتراك زادوا من حركاتهم وغضبوا وأعلنوا عن تمردهم، وسوف نرى أنهم سيضعون أنفسهم في خدمة أي حركة أو قوة معادية للدولة العباسية(١).

المسئولية:

وعلى العرب يقع جانب من المسئولية في إنهاء سلطتهم ومشاركتهم في شئون الدولة العباسية، والمسئولية تشمل الراعي والرعية، وأعني بالراعي الخليفة العباسي الذي فرط في جمع شتات هذه القوة التي سبق أن حققت بتماسكها العزة والمنعة للإسلام على مدى أكثر من قرنين من الزمان، والخليفة العباسي راعي وهو مسئول عن رعيته، وبقدر ما أتاح الفرصة للعناصر الأخرى للمشاركة في أوضاع الدولة لتحقيق المساواة التي كانوا يطلبونها كان عليه أن يحافظ على الكيان العربي والقوة العربية التي هي الأصل ما عداها هي الفرع، وكان عليه أن يوجه هذه القوة إلى ساحات القتال مع أعداء الإسلام.

وأما الرعية فهم العرب جميعًا الذين تنازعوا واختلفوا إلى عرب شمال وعرب جنوب وشامية ومضرية، وعرب الشمال إلى مضرية وربيعية، والمضرية إلى قرشيين وغير قرشيين والقرشيين إلى أمويين وهاشميين، والهاشميون إلى علويين وعباسيين، والعلويون إلى فرق لا تحصى من الشيعة الزيدية والاثنى عشرية والإسماعيلية وهلم جرا، إلى غير ذلك من

---

(١) وعلى سبيل المثال اشتركت بنو سليم وبنو هلال مع القرامطة في غزو الشام واستقرت بعض بطونهم في الشام، وعندما دخل الفاطميون الشام وهزموا القرامطة اتصل بنو هلال وبنو سليم بالفاطميين وتعاونوا معهم وقدموا إليهم خدماتهم فنقلهم الفاطميون إلى مصر، وعندما قطع المعز ابن باديس الصنهاجي الخطبة للفاطميين في إفريقية، قرر الفاطميون توجيه قوة بني سليم وبني هلال إليه في سنة ٤٤٣هـ وكتب الوزير اليازوري وزير المستنصر الفاطمي إلى ابن باديس يقول: «أما بعد فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً وأرسلنا إليكم رجالاً كهولاً ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً» ابن الأثير، ج٩، ص ٥١٦، وابن خلدون، العبر، ج٤، ص ٦٢، والمقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج٢، ص٢١٦.

الخلافات التي قضى عليها الإسلام، ونبه على خطورة العودة إليها والتي تؤدي إلى الفشل ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ....﴾[1] ومن منطلق قوله تعالى : ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[2] وقوله تعالى : ﴿إن الله لا يغيرم ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[3].

(١) الأنفال : آية ٤٦ سورة ٨.
(٢) الأنفال : آية ٥٣ سورة ٨.
(٣) الرعد : آية ١١ سورة ١٣.

الباب الثاني

العصر العباسي الثاني

ظل الأتراك في قبضة المعتصم القوية حتى وافاه الأجل سنة ٢٢٧هـ، ولم يكن أحد منهم يستطيع أن يفعل شيئًا، وقد رأينا قوة ضربه للأفشين عندما ثبت لديه انحرافه، وتولى بعد المعتصم ابنه هارون الملقب بالواثق (٢٢٧ - ٢٣٢هـ) فوصل الأتراك في عهده إلى مكانة عالية وأصبح السلطان في أيديهم، الأمر الذي دفع الواثق إلى أن يغدق على (**أشناس**) قائد الأتراك لقب «سلطان» وفي هذا اعتراف واضح بأن السلطة أصبحت في يد كبير الأتراك وأنه لم يعد للخلافة سوى المظاهر الدينية والأمور الشكلية، وهو اعتراف من الخليفة لزعيم الأتراك بحقوق تعدو نطاق الشئون والمهام العسكرية، ويبدأ بذلك عصر تحكم ضباط القصر.

عصر تحكم ضباط القصر:

وقد رأينا كيف سمح الواثق بما حدث من هجمة للأتراك على الجزيرة العربية وأتوا بالعرب أسرى إلى العراق دون أن يدرك أثر هذا العمل السيئ في ضياع هيبة العرب وبالتالي في ضياع الخلافة، وقد كان في استطاعته أن يأتي إلى الحجاز ويستأمن الناس ويصلح ذات بينهم بالحسنى. ولكنه لم يفعل شيئًا في هذا المجال وعندما وجد الطرق غير آمنة ألغى رحلته إلى الحج في سنة ٢٣١هـ.

وعندما توفي الواثق سنة ٢٣٢هـ كان (**وصيف**) خليفة أشناس قد أضحى من القوة بحيث يستطيع أن يرفع إلى كرسي الخلافة الرجل الذي يرتضيه هو. وساعده على ذلك أن الواثق توفي دون أن يعهد بالخلافة لأحد.

وكان (**أحمد بن أبي دؤاد**) و(**محمد بن عبد الملك الزيات**) قد وقع اختيارهم على محمد بن الواثق، وكان غلامًا، فرفض وصيف هذا الترشيح ورشح هو شخصًا آخر، أو بمعنى أصح عين وصيف الخليفة الجديد وهو (**جعفر بن المعتصم**) الملقب (**بالمتوكل**) على الله.

ويتفق المؤرخون أنه بموت الواثق ينتهي العصر الذهبي للدولة العباسية الذي استمر قرنًا من الزمان من ١٣٢ - ٢٣٢هـ. وبتولي المتوكل يبدأ عصر جديد للخلافة يتسم بسيطرة الأتراك سيطرة كاملة على شئون الخلافة، وفيه تضاءلت سلطة الخلفاء العباسيين إلى أبعد الحدود.

ويمكن أن نقسم العصر العباسي الثاني إلى عدة عصور :

أولاً : عصر سيطرة الأتراك على الخلفاء في بغداد وسامرا ويبدأ من سنة ٢٣٢هـ وينتهي في سنة ٣٣٤هـ وهو عصر تحكم ضباط القصر.

ثانيًا : عصر سيطرة أمراء البويهيين وهم من الديلم من الهضبة الإيرانية ويبدأ من دخولهم بغداد سنة ٣٣٤هـ وينتهي في سنة ٤٤٧هـ.

ثالثًا : العصر السلجوقي : ويبدأ بدخول الأتراك السلاجقة بغداد بعد القضاء على النفوذ البويهي سنة ٤٤٧هـ ويستمر إلى دخول المغول بغداد سنة ٦٥٦هـ.

ومما هو جدير بالذكر أنه بعد هذه العصور الثلاثة انتقلت الخلافة العباسية إلى (**القاهرة**) بعد سقوطها في العراق بثلاث سنوات أي سنة ٦٥٩هـ وكانت في نسل العباسيين وتحت سيطرة أمراء المماليك الأتراك ويمكن أن نطلق عليها الدولة العباسية الثانية تمييزًا لها عن الأولى واستمرت نحو ما يقرب من ثلاثة قرون من (٦٥٩ - ٩٢٣هـ) استغل فيها أمراء المماليك الأتراك الخلافة العباسية كواجهة إسلامية يحكم من ورائها أمراء المماليك الذين هم أصلاً من الأرقاء المجلوبين إلى مصر، ولهم زعامة بفضلها على العالم الإسلامي.

وفي سنة ٩٢٣هـ زحف الأتراك العثمانيون على مصر واستولوا على القاهرة وتنازل آخر الخلفاء العباسيين عن الخلافة للأتراك العثمانيين الذين نقلوها إلى اسلامبول وبعدها أضحت الخلافة الإسلامية في الأعاجم لأول مرة في التاريخ حيث أصبح الخليفة من الأتراك واستمرت فيهم إلى أن ألغاها مصطفى كمال أتاتورك سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) وأعلن الجمهورية في تركيا الحديثة.

وعلى ذلك فاتصال الإسلام بالأتراك وتأثير الأتراك في عالم الإسلام كان طويلاً، وامتد هذا التأثير من سنة ٢٣٢هـ حتى سقوط الخلافة في اسلامبول سنة ١٣٤٢هـ أي أن هذا التأثير امتد أكثر من أحد عشر قرناً.

ومن هنا يجب أن نعرف أن الأتراك أكثر الأمم تأثيراً في العالم الإسلامي بعد العرب، وإن كان هذا التأثير يختلف عن تأثير العرب، فإن العصر العربي يمتاز بالعزة والوحدة والعصر التركي يتصف بالفرقة والعجمة أي أن تأثير الأتراك ترك الفرقة والعجمة والتأخر الحضاري، وتغلب مجتمع البداوة والرعي على المجتمع الحضاري في العراق والشام ومصر والحجاز والمغرب وهو المجتمع الذي تكون في عصور الرسول والراشدين والأمويين والعباسيين.

الخلافة العباسية
في العصر العباسي الثاني

رأينا فيما سبق كيف حاول الفرس استغلال الخلفاء العباسيين ولكن خلفاء العصر العباسي الأول كانوا أقوياء لا يسمحون لأحد أن يستغلهم أو يسلب سلطانهم، وقد وصل الصراع إلى أشده في فترة إلى أن أصبح الفرس في جانب والعرب في جانب أيام الأمين والمأمون، وكانت النتيجة أن ضعف الطرفان وأفسحوا الطريق لطرف ثالث هم الأتراك الذين احتلوا الساحة العسكرية والسياسية وحدهم بلا منافس، وكانت خطيئة الخلفاء العباسيين أنهم أضعفوا الجانب العربي شيئاً فشيئاً، فقد توجسوا منه خيفة نظراً لطموحه فأكثروا من الضغط عليه حتى أصابوه بالإحباط، وفجأة وجدوا أنفسهم مكشوفين وحدهم أسرى في يد غيرهم، ليس لهم من الخلافة إلا المظاهر الشكلية.

وبدأ التفكك في الدولة الإسلامية باستقلال بعض المناطق في عهد الرشيد والمأمون كما ذكرنا، وأدى ذلك في العصر العباسي الثاني إلى مزيد من التفكك وكثير من الثورات والحركات، أما الفرس فقد قنعوا من

الغنيمة باستقلال بلادهم عندما قامت فيهم الدولة الطاهرية (٢٠٥ - ٢٥٩هـ) فأعادت لهم شيئًا من شخصيتهم، ولكن لم يتحقق لهم الحكم الذي راود الفضل بن سهل بحكم العالم الإسلامي بأسره.

أما الخلافة العباسية فقد منيت بخسارة كبرى عندما ضاع النفوذ من يد الخليفة إلى الأتراك، ولكن بقيت الخلافة رمزًا دينيًا وتعاورتها أيادي المتغلبين واستغل الخلافة أولئك الذين آل إليهم السلطان الفعلي في الدولة وفرضوا سلطانهم على العالم الإسلامي باسم الخلافة والخليفة الذي لم يكن له من الأمر شيئًا.

وقد عبر الخليفة المعتمد على الله (**أحمد بن المتوكل**) (٢٥٦ - ٢٧٩هـ) عن هذه الحالة بقوله :

أليس من العجائب أن مثلي * يرى ما قل ممتنعًا عليه
وتُؤخذ باسمه الدنيا جميعًا * وما من ذلك شيء في يديه
إليه تُحمل الأموال طرًا * ويُمنعُ بعض ما يجبى إليه

وطال عصر استغلال الخلافة العباسية، ولم يكن هناك نفوذ يذكر للخلفاء العباسيين خارج العراق، وإنما كان للأتراك والبويهيين والسلاجقة مع بعض المحاولات للخلفاء في استعادة سلطتهم.

وقد عبر عن هذا الوضع أحد أنصار البويهيين عندما دخل معز الدولة ابن بويه بغداد سنة ٣٣٤هـ وكان البويهيون شيعة زيدية ويعتقدون أن العباسيين قد اغتصبوا الخلافة من مستحقيها من العلويين، واستشار معز الدولة أنصاره في إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للخليفة الفاطمي أو لغيره من العلويين وكانت الغلبة لهذا الرأي ما عدا بعض خواصه الذي قال له :

«ليس هذا برأي فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلفة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى أجلست بعض

العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه»(١).

ونظر معز الدولة إلى هذا الكلام فوجده صحيحاً، ودارت في ذهنه مسألة استغلال الخلافة العباسية بدلاً من القضاء عليها، فاستغلها هو وأسرته من بعده على مدى قرن من الزمان.

وخلفاء عصر نفوذ مماليك الأتراك هم :

١٠ - المتوكل (جعفر بن المعتصم)	٢٣٢ - ٢٤٧هـ قتل
١١ - المنتصر (محمد بن المتوكل)	٢٤٧ - ٢٤٨ هـ
١٢ - المستعين (محمد بن المعتصم)	٢٤٨ - ٢٥٢هـ
١٣ - المعتز (أبو عبد الله بن المتوكل)	٢٥٢ - ٢٥٥هـ قتل
١٤ - المهتدي (أبو إسحق محمد بن الواثق)	٢٥٥ - ٢٥٦هـ
١٥ - المعتمد على الله (أحمد بن المتوكل)	٢٥٦ - ٢٧٩هـ
١٦ - المعتضد (أبو العباس أحمد بن الموفق)	٢٧٩ - ٢٨٩هـ
١٧ - المكتفي (أبو محمد بن المعتضد)	٢٨٩ - ٢٩٥هـ
١٨ - المقتدر (أبو الفضل جعفر بن المعتضد)	٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ ذبح
١٩ - القاهر (أبو منصور محمد بن المعتضد)	٣٢٠ ـ ٣٢٢ هـ سمل
٢٠ - الراضي (أبو العباس أحمد بن المقتدر)	٣٢٢ - ٣٢٩هـ
٢١ - المتقي بالله (أبو إسحق إبراهيم بن المقتدر)	٣٢٩ - ٣٣٣هـ سمل
٢٢ - المستكفي (أبو القاسم عبد الله بن المكتفي)	٣٣٣ - ٣٣٤ هـ

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٣١٥.

وكان الأتراك يختارون للخلافة من بني العباس صغار السن وضعاف العقول والشخصية فيجعلونهم خلفاء حتى لا يشاركونهم في سلطانهم، وعندما يخيب ظنهم ويحاول الخليفة مشاركتهم في سلطانهم أو يتمرد عليهم كانوا ينكلون به وينتقمون منه(١).

واستمر هذا الاستغلال بعد ذلك أيام السلاجقة إلى أن سقطت الخلافة العباسية في بغداد على يد المغول سن ٦٥٦هـ، كما استمر بعد ذلك في فترة انتقال الخلافة العباسية إلى القاهرة (٦٥٩ - ٩٢٣هـ) تحت سلطان سلاطين المماليك الأتراك.

ومما هو جدير بالذكر فإنه عندما قامت الدولة الفاطمية في المغرب سنة ٢٩٦هـ أغدق زعماؤها على أنفسهم لقب خليفة فقام عبد الرحمن الناصر الأموي بالأندلس سنة ٣١٦هـ(٢) واتخذ لنفسه لقب خليفة، كما فعل الفاطميون بالمغرب، فأصبح في العالم الإسلامي ثلاثة خلفاء، ثم هان بعد ذلك لقب خليفة وادعاه كثيرون.

ويلاحظ أن الأتراك في المائة سنة التالية (٢٣٢ - ٣٣٤هـ) لم يقتصر نفوذهم على العراق وحده، وإنما عم المناطق الإسلامية الأخرى وأخذ الخلفاء يقطعونهم تلك المناطق مقابل أموال يؤدونها لبيت المال، وجرت العادة أن يبقى هؤلاء الولاة الأتراك إلى جوار الخليفة في العاصمة بغداد أو سامرا، ويرسلون من ينوب عنهم في حكم تلك الولايات(٣) وأدى ضعف الخلافة إلى قيام حركات انفصالية في أطراف الدولة الإسلامية.

ولقد انتشرت هذه الحركات الانفصالية في المشرق والمغرب وكان العنصر السائد في المشرق هو العنصر الفارسي والتركي، مثل الدويلات :

---

(١) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج٢، ص ٣.

(٢) أحمد مختار العبادي، التاريخ العباسي والأندلسي، ص ٣٩٦.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٣.

الطاهرية في خراسان (٢٠٥ - ٢٥٩هـ).

الصـــفارية في فارس (٢٥٤ - ٢٨٩هـ).

السامانية في خراسان وما وراء النهر (٢٦١ - ٣٨٩هـ).

الزيـــارية في جرجـــان وطبرســـتان (٣١٦ - ٣٣٣هـ).

البويهية في فارس والعراق (٣٣٤ - ٤٤٧هـ).

الطـــولونية في مصـــر (٢٥٤ - ٢٩٢هـ).

الأخشـــيدية في مصـــر (٣٢٣ - ٣٥٨هـ).

الغـــزنوية في ثغـــور الهند (٣٥١ - ٥٨٢هـ).

ولكن الدول التي استقلت في المشرق حرصت على إعلان تبعيتها وولائها للخلافة العباسية عن طريق ذكر اسم الخليفة في الخطبة ونقشه على العملة، وإرسال الأموال المقررة في كل عام إلى بغداد أو سامرا.

أما الدول التي استقلت في المغرب فإنها قطعت كل علاقة لها بدولة الخلافة العباسية وأعلنت استقلالها التام.

عصر المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ):

تولى المتوكل الخلافة بقوة النفوذ التركي كما رأينا، وفي عهده عمل الأتراك على توطيد نفوذهم، وتثبيت أقدامهم ونال رؤساؤهم منزلة عظيمة ونفوذًا كبيرًا، ولكن المتوكل توجس منهم خيفة فحاول أن يتخلص من نفوذهم فقتل (إيتاخ)، وفكر في نقل العاصمة من العراق إلى (دمشق) بعيدًا عن الأتراك، ولعله يجد في الشام من العنصر العربي ما يقف به في وجه الأتراك، ولكن العلاقات بين العباسيين وبين أهل الشام لم تكن طيبة منذ قيام الدولة العباسية، وكان خلفاء العباسيين يقولون عنهم بأن هواهم مع بني أمية وينتظرون عودتهم، وازدادت هذه العلاقات سوءًا بقمع العباسيين لثورات أهل الشام بشدة، فلم يستطع المتوكل تحقيق غايته بين أظهرهم،

وشغب عليه جند الشام «واجتمعوا وضجوا يطلبون الأعطية، ثم خرجوا إلى تجريد السلاح والرمي بالنشاب»(١) واضطر المتوكل للعودة إلى سامرا بعد أن قضى بالشام نحو ثلاثة أشهر من عام ٢٤٣هـ.

وزاد العداء بين المتوكل والأتراك، وتربص كل منهما بالآخر، وعقد المتوكل البيعة بولاية العهد لثلاثة من ابنائه من بعده، وهم محمد **(المنتصر)** وأبو عبد الله محمد **(المعتز بالله)** وإبراهيم **(المؤيد بالله)** ولكن الأتراك تربصوا به.

ومن التغييرات الهامة في عصر المتوكل أنه مال إلى أهل السنة وبدأ يضطهد المعتزلة وبدأ ينهي الناس عن الخوض في القول بخلق القرآن الذي شغل الدولة في عهد المأمون والمعتصم والواثق، وألغى سلطان القاضي أحمد سنة ٢٤٠هـ(٢)، وكان لهذا أثره في الناس، فبالغوا في الثناء عليه وقالوا بأنه أحيا السنة وناصر الجماعة وكتب كتابًا إلى الأمصار يأمر بترك الجدال في القرآن، واضطهد رؤساء المعتزلة، وضيق عليهم، أما الجاحظ وكان معتزلاً فقد نجا من النكبة بمرونته، فقدم رسالة إلى صديقه الفتح بن خاقان وزير المتوكل وأعلى فيها شأن الأتراك(٣).

وفي المقابل وضع ابن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ) كتابه «فضل العرب على العجم» في ٤٠ ورقة (الأعلام).

وازداد العداء بين العرب والترك فحاول الوزير الفتح بن خاقان التقريب بين العرب والترك بصفة خاصة وبين العرب والعجم بصفة عامة فكلف الجاحظ بكتابة رسالة في مناقب الترك وعامة جند الخلافة.

(١) المسعودي، ج٤، ١١٥ مروج الذهب.

(٢) كان القاضي أحمد بن دؤاد قد مرض بالفالج سنة ٢٣٣هـ فولى المتوكل مكانه ابنه محمد فلم يرض عنه الناس وذموه إلى أن صادر المتوكل أمواله مع أبيه سنة ٢٣٧هـ عندما غضب عليه، [وفيات الأعيان، ج١، ص ٨١ – ٩١].

(٣) انظرها في رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون أول رسالة من رسائله.

ويذكر الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد أن المتوكل جمع بعض الفقهاء والمحدثين في سنة ٢٣٤هـ وفيهم مصعب الزبيري وإسحاق بن أبي إسرائيل وإبراهيم بن عبد الله الهروي وعبد الله وعثمان ابنا محمد بن أبي شيبة الكوفيان، وأمرهم أن يجلسوا للناس وأن يحدثوا بالأحاديث التي فيها الرد على المعتزلة والجهمية فجلس عثمان بن محمد في مدينة أبي جعفر المنصور وجلس أخوه أبو بكر في مسجد الرصافة[١].

وعادت موجة **(اضطهاد العلويين)** على أيام المتوكل، واشتدت قبضته عليهم، وأمر بهدم قبر الحسين بن علي بكربلاء وهدم ما حوله من المنازل سنة ٢٣٧هـ، وأمر بحرث الأرض وبذرها وغمرها بالمياه، ومنع الناس من اتيانه، وطلب أبو الحسن علي الهادي بن محمد الجواد **(الإمام العاشر لدى الإمامية)** فسُعِي به إليه واستقر في سامرا التي كانت تعرف بمدينة العسكر، فلذلك لقب بالعسكري[٢] وقد أثار المتوكل بهذه السياسة حفيظة الشيعة، وكان **(المنتصر ابنه)** يشايعهم وينقم على أبيه قسوته عليهم. كما كان ينقم على أبيه أنه يريد أن يغير نظام ولاية العهد فيقدم عليه أخاه **(المعتز)** رغم أحقيته وأحقية أخيه **(المؤيد)** عنه، لمحبته لأمه **(محبوبة)** وتقديمه لها على غيرها.

كان المتوكل مدمنًا على شرب الخمر أهداه ابن طاهر هدية فيها مائتا وصيف ووصيفة وفي الهدية جارية يقال لها **(محبوبة)** كانت لرجل من أهل الطائف قد أدبها وثقفها وعلمها مختلف صنوف العلم، فحلت من قلب المتوكل أسمى مكان، ولم يكن أحد يعدلها عنده، وأعجب بها وتزوجها، وأطلق عليها **(قبيحة)** لحسنها وجمالها، كما كان يسمي الأسود كافوراً، ولأجل ذلك أراد تقديم ابنها المعتز على أخويه لمكانة أمه عنده[٣].

---

(١) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١٠، ص ٦٦ - ٦٧.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٣) علي إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي العام، ص ٤٢٦ - ٤٢٧ والمسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص١٢٤ - ١٢٥.

وقد تولى المعتز الخلافة من ٢٥٢ - ٢٥٥هـ ثم قتله الأتراك ومن العجب أن أمه محبوبة تخلت عنه وقت الشدة وهربت ومعها أموال الدولة (١٫٨٠٠٫٠٠٠ دينار) عدا كثير من الجواهر، ورفضت أن تدفع للجند حوالي (١٥٠ ألف دينار) متأخرات رواتبهم، واختفت بعد موت ابنها(١).

ويذكر ابن الأثير في أحداث سنة ٢٥٥ أن صالح بن وصيف اكتشف أمرها وأخذ مالها ونال من شرفها ثم ذهبت إلى مكة وشوهدت هي تدعوا على صالح بن وصيف لأنه قتل ابنها وأخذ مالها وركب الفاحشة منها [ابن الأثير، ج٥، ص ٣٤٤].

ووقف المنتصر مع الأتراك ضد أبيه، فزاد الانقسام في البيت العباسي وأصبح حزب المتوكل أضعف من حزب ابنه ونجح الأتراك في قتل المتوكل وقتلوا معه وزيره (**الفتح بن خاقان**) التركي، ورفعوا ابنه المنتصر إلى كرسي الخلافة، واستعملوا العنف في تفريق الغاضبين لمقتله(٢).

وكان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء من نوعها على الخلفاء العباسيين ولم يكن قتل الخليفة اعتداء على المتوكل وحده بل كان قتلاً لسلطان كل خليفة بعده، وكان في قتله تثبيت لسلطان الأتراك ونفوذهم وإنذار للبيت العباسي كله أنه من أريد أن يلي الخلافة فليذعن إذعانًا لرغبة الأتراك أو بمعنى آخر فليوطن نفسه على القتل، وهكذا كان مصرع المتوكل مصرعًا لسلطان الخلافة وقوة الأتراك فلم يعد للخليفة معهم شيء إلا بعض المظاهر الشكلية اقتصرت على ذكر اسمه في الخطبة وعلى السكة(٣).

وببداية حكم (**المنتصر**) (٢٤٧ - ٢٤٨هـ) بدأت فترة فوضى استمرت تسع سنوات حتى سنة ٢٥٦هـ حكم فيها أربعة خلفاء هم : **المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي** واستضعف الأتراك فيها الخلفاء وكان

(١) علي إبراهيم حسن، نساء لهن في التاريخ نصيب، ص ٩٣ - ٩٥.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ٣٠١ - ٣٠٦.
(٣) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج١، ص ١١.

الخليفة في يدهم كالأسير إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه وإن شاءوا قتلوه، مما شجع أمراء الولايات خارج العراق على الانفصال ولا سيما في مصر وفارس (**خراسان**) ولم يحاول المنتصر الاصطدام بالأتراك إلا أن مدته لم تطل فقد توفي بعد ستة أشهر فقط من حكمه، ومن المحتمل أن تكون وفاته ناجمة عن دس السم له من قبل أعدائه كما يقول المسعودي(١).

وكان قد عزم على تفريق جمع الأتراك فأخرج وصيفًا مع بعض الأتراك لغزو الطائفة بطرسوس، ونظرًا يومًا إلى بغا الصغير - وقد أقبل في القصر وحوله جماعة من الأتراك - فاقبل على الفضل بن المأمون، وقال له : [قتلني الله إن لم أقتلهم وأفرق جمعهم]، فلما أحس الأتراك منه بذلك دسوا له السم فأراد الحجامة فوضعوا له السم في مبضع الطبيب الذي فصده فلما أحس بالموت قال : «عَجِّلْنا فعُوجِلنا» ويقصد بذلك أنه عجل بموت أبيه فعاجله الله.

وكان المنتصر قد خلع أخويه (**المعتز والمؤيد**) من ولاية العهد قبل موته برأي الأتراك، فترك المجال مرة أخرى للأتراك للتدخل في تعيين الخليفة، فاختاروا أحمد بن محمد بن المعتصم ولقبوه (بالمستعين)، وقد أرادوا بذلك إبعاد أولاد المتوكل عن الخلافة خوفًا من أن يثأروا لأبيهم ولما أراد المستعين أن يغير أوضاعهم ويعود إلى بغداد ويستعين بالجند الشاكرية(٢) (المرتزقة) الذين كانوا متذمرين من استبداد الأتراك على إدارة الدولة، فلم تستمر حركته على الرغم من وقوف البغداديين معه وانتهى به الأمر إلى أن حاصره الأتراك في بغداد وقبضوا عليه وقتلوه سنة ٢٥٢هـ وأتوا (بالمعتز) بن المتوكل بعده، ولكنهم قتلوه سنة ٢٥٥هـ واستمر هذا المسلسل إلى أن تولى المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩هـ) وبتولي المعتمد بدأت فترة جديدة انتعشت فيها الخلافة وقوي البيت العباسي، وهذا ما سنتناوله فيما يلي.

---

(١) مروج الذهب، ج٤، ص ١٣٤.

(٢) جمع شاكري وهو الأجير المستخدم معرب «جاكر» فارسي وترد كثيرًا في المصادر (المحيط) ووردت في الطبري، ج٧، ص ٤٦٠.

إنتعاش الخلافة

٢٥٦ - ٢٩٥هـ

المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩هـ) :

كثرت المشاغبات بين الجند الأتراك، وغرقت عاصمة الدولة في هذا الصراع، وكثر التغيير والتبديل في وظائف الدولة، واختلت ميزانية الدولة لقلة ما يرد من الولايات التي استقلت، ولكثرة النفقات واضطراب الأمن، وانتعاش الثورات داخل الدولة مثل ثورة الزنج.

في هذا الجو حاول الخليفة المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩هـ) أن يمسك بزمام الأمور فعين أخاه (**أبو أحمد طلحة**) قائدًا للجيش ويقال أن هذا حدث برضا الأتراك لكثرة الاختلاف بينهم في هذه الفترة وولى عهده ابنه جعفر وسماه (**المفوض**) وولى أخاه طلحة وليًا للعهد من بعد ابنه وسماه (**الموفق**) وأمر بكتاب البيعة فحفظ في الكعبة، على أن هذا العمل لم يرض الموفق لما كان يراه من عدم أهلية أخيه للخلافة، فقد كان منصرفًا إلى اللهو والانغماس في الملذات[١].

وتعتبر فترة حكم المعتمد فترة صحوة للبيت العباسي إلا أن السلطة الحقيقية كانت في يد الموفق وليست في يد الخليفة وأصبح الخليفة كالمحجور عليه تدار الأمور باسمه، والحقيقة أن المعتمد لم يكن في مستوى الأحداث التي تعرضت لها الخلافة، فكان لاهيًا يشرب ويعربد مع الندماء ويؤلف مقاطع من الشعر يغني بها المغنون[٢] ولكن أخاه الموفق جبر نقصه وسد الفراغ.

ولذلك نشأ وضع عجيب فأصبح المعتمد وأخوه طلحة كالشريكين في الخلافة، فكان المعتمد هو الواجهة، ولأخيه طلحة الأمر والنهي وقيادة

---

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٦٣ - ٣٦٨.

(٢) فوات الوفيات، لمحمد بن شاكر الكتبي، ج١، ص ٦٤.

العساكر ومحاربة الأعداء وترتيب الوزراء والأمراء(١) وصار الموفق صاحب الأمر والنهي في الدولة.

وطالت ثورة صاحب الزنج في أيامه، والذي جعل هذه الثورة تطول هو الخلافات الحادة التي وقعت بين المعتمد وأخيه الموفق واستبداد الأخير بأوضاع الدولة حتى وصل الأمر به إلى الحجر على أخيه الخليفة، فحاول الخليفة أن يهرب إلى مصر فقبض عليه أنصار الموفق وأعادوه إلى سامرا محجوراً عليه سنة ٢٦٩هـ. وكان من نتيجة ذلك أن ساءت العلاقات بين الموفق وبين صاحب مصر (**أحمد بن طولون**) ووقعت الحرب بسبب ذلك بين الدولة العباسية والدولة الطولونية.

وصفوة القول أن الموفق طلحة كان ذا شخصية قوية فاستحوذ على القيادة دون الأتراك واكتملت له التجربة في القيادة، وصارت له الكلمة العليا في الدولة وبين الأتراك واستطاع أن يعيد للبيت العباسي هيبته، وعندما توفي الموفق سنة ٢٧٨هـ بعد الأعمال الجليلة التي قام بها بايع الخليفة المعتمد لابنه (**العباس**) بولاية العهد الثانية مكان أبيه وتحولت إليه سلطات أبيه في الجيش فسار على النهج الذي سار عليه أبوه.

ولما كان الخليفة المعتمد قد وصل إلى حد كبير من ضعف الشأن في حياة أخيه الموفق الذي لم يبق له من الخلافة إلا اسمها فقد ضعف أمره وأمر ابنه المفوض الذي ولي العهد الأول والذي لم يبرز في مجال الصراع الذي احتدم بين الخلافة وخصومها طوال عهد المعتمد (٢٣سنة) كثورة الزنج وغيرها، لذلك اضطر المعتمد في نهاية عهده إلى خلع ابنه عن ولاية العهد الأولى وبايع لأبي العباس ابن الموفق الذي كان يفوقه في قوة الشخصية، ثم ما لبث أن مات المعتمد سنة ٢٧٩هـ(٢).

---

(١) ابن طبا طبا، الفخري، ص ٢٢٦.

(٢) حسن أحمد محمود وأحمد الشريف، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٤ - ٢٥٧.

ثورة الزنج:

من الأحداث الخطيرة التي هددت الدولة العباسية على أيام المعتمد ثورة الزنج، قد ظهر في البحرين قبل عصر المعتمد سنة ٢٤٩هـ رجل مغامر يقال له (**علي بن محمد**) واستقر في هجر[١] قاعدة البحرين والبحرين مصطلح تاريخي في العصور الوسطى يشمل الإحساء وساحل البحر أي الخليج العربي إلى العراق ومركزه القطيف، وقاعدته هجر.

وكان هذا الجزء يسمى قديمًا الخَطّ وهو ما بين عمان والبصرة، وكان يسكنه مع العرب جماعات هاجرت من السند منهم الزط والسيابجية خرجت من موطنها أثر مجاعات أصابتها وذكرها الطبري في معرض حديثه عن الردة في عصر أبي بكر، ج٣، ص ٣٠٢، واختلف في أصل صاحب الزنج، فهو يدعي أنه ينتسب إلى علي بن أبي طالب، ويذكر بعض المؤرخين أنه من أصل فارسي[٢]، وأكثر المؤرخين يرون أنه من قبيلة عبد القيس التي تنتمي إلى ربيعة[٣] ومن العجيب أن الطبري وابن الأثير يقولان أن أهل البحرين أحلو هذا الدعي من أنفسهم محل النبي وجمعوا له الخراج ونفذ فيهم حكمه وقاتلوا الدولة بسببه.

ولكن بعد فترة اختلف أهل البحرين بشأنه وتقاتلو، فانتقل عنهم إلى الأحساء، وولى قيادة رجاله رجل من البحرين يقال له (**سليمان بن جامع**) وهو رجل أسود كان مولى لبني حنظلة جعله قائدًا لرجاله، وفي البداية كان

---

(١) هَجَرٌ: تستعمل في خروج البدوي من باديته إلى المدن وهي من الهجران كأنهم يهجرون ديارهم وينتقلون عنها إلى قرى جديدة، وهجر بلغة حمير والعرب العاربة القرية فمنها هجر البحرين وهجر نجران وهجر جازان، وهجر هنا كانت قاعدة البحرين، وربما قيل هجر في البحرين كلها (ياقوت، معجم البلدان) وفي القاموس المحيط اسم لجميع أرض البحرين، وعندما بني الملك عبد العزيز آل سعود قرى القبائل العربية للاستقرار بها أطلق عليها «هجَرٌ».

(٢) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج٣، ص ٢٠٩.

(٣) الطبري، ج٩، ص ٤١٠، وابن الأثير، ج ، ص ٣٤٦.

يجهر بانتمائه إلى البيت العلوي ثم تخلى بعد فترة عن انتمائه إلى العلويين، ويظهر أنه لم يكن على علم بعقائد المذهب الشيعي، وبدأ يجهر بعقائد مذهب الخوارج وتظاهر به لأنه يتلاءم مع ميول أتباعه الديمقراطية أكثر من مذهب الشيعة الذي يقوم على التوريث والحق المقدس.

وعندما ذهب إلى البصرة دارت في ذهنه فكرة خطيرة وهي أن يستغل العبيد السود في منطقة البصرة وواسط فقد كانت هذه المنطقة تعج بآلاف الزنوج الأفارقة الأرقاء والأجراء لدى كبار الملاك، وكانوا يعملون في إصلاح الأراضي التي تحتاج إلى إصلاح وفي نقل السباخ وفي مزارع القصب[1] في خوزستان وبصفة عامة يعملون في الأعمال الشاقة، فلوح لهم بالحرية وأنه سوف يخلصهم من آلامهم ويتولاهم بالرعاية، وادعى أنه رسول العناية الإلهية لتحرير العبيد السود.

واتصل بعبد توسم فيه الذكاء يسمى (**ريحان بن صالح**) وعده بالقيادة ليجمع له كثيراً من الأرقاء ممن يتوسم فيهم القوة والاستجابة لدعوته ونجحت فكرته في تجميع آلاف من الأرقاء الآبقين حوله وصل عددهم ١٥٠٠٠ من الرقيق السود الذين حررهم من أسيادهم وخطب فيهم ووعدهم بالحصول على المال والجاه، وأقسم لهم ألا يغدر بهم أبداً وذكر أن ساعة القضاء على الرق والعبودية قد حانت، وأمر بكتابة الآية الآتية على لوائه :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقًا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوف بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ [التوبة : ١١١].

وأول لهم هذه الآية بأنهم المؤمنون، وأنهم قد اشتروا أنفسهم ولن

(١) كانت خوزستان منتجة لقصب السكر، وقد أتى هؤلاء الزنوج من سكان الساحل الشرقي الأفريقي الذين قدموا إلى خوزستان وجنوب العراق عن طريق جنوب جزيرة العرب وعمان ومكران وكرمان على الساحل الفارسي [موريس ولومبارد، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي، ص ٤٠ - ٤٢].

يعودوا بعد عرضه للرق والعبودية.

وقد استغل الزنوج الثائرون منطقة البطائح أو المستنقعات في العراق الأدنى قرب البصرة، وهي ظاهرة تكثر في العراق في عصور الفوضى وإهمال مشاريع الري وحفر الأنهار الصغيرة فتسيل المياه وتكثر المستنقعات التي تسمى البطائح بلغة أهل العراق، وتنمو فيها غابات صغيرة من نبات البوص والغاب أو ما يسمى أحيانًا بالقصب، ويطلق على هذه الغابات الصغيرة المحاطة بالمياه الكثيرة «الأهوار»[1] وهي عبارة عن بحيرات صغيرة بها ممرات صالحة لملاحة القوارب الصغيرة الخفيفة الحاملة للأفراد.

وقد استغل الزنوج الثائرون هذه الأهوار والتجأوا إليها أثناء ثورتهم وتمردهم، وحاربوا من فوق قواربهم المسطحة ومن أكواخهم المستترة بين دغيلات الغاب وبنى لهم عاصمة بداخلها تسمى «المختارة» على نهر أبي الخصيب[2] ومن العجيب أنهم كانوا إذا أسروا بعض الأشخاص كانوا يسترقونهم ويوزعونهم على بعضهم، ولم يتحرر هؤلاء من أيديهم إلى بعد انتهاء حركتهم، ولم تستطع قوات الدولة أن تنال منهم في البداية بسبب استطاعتهم في المناورة وقدرتهم على المراوغة في هذه المستنقعات.

وقد أرسلت الدولة إليهم بعض قواتها فهزموها واتجهوا نحو **(البصرة)** في سنة ٢٥٥هـ فاقتحموها ونهبوها ثم خربوها واتجهوا إلى **(الأبلة)** المقابلة لها فاحرقوها واستولوا على **(عبّادان)**[3] والأهواز سنة ٢٥٦هـ، ثم أوقعوا بأهل البصرة مرة أخرى سنة ٢٥٨هـ فأرسل إليه الخليفة جيشًا آخر بقيادة موسى بن بغا سنة ٢٥٩هـ فلم يستطع أن يفعل شيئًا أيضًا.

---

(١) الأهوار جمع هور، والهَوْرُ : بحيرة يفيض فيها ماء غياض فتتسع ويكثر ماؤها. (ياقوت، معجم البلدان).

(٢) سمي بذلك نسبة إلى مولى من موالي الخليفة المنصور يسمى أبو الخصيب. انظر بلدان الخلافة، ص ٦٩.

(٣) عبّادان : تنسب إلى رجل أيام الحجاج يسمى عبّاد، وعلى طريقة أهل البصرة يزاد ألف ونون : عند النسب إلى شخص فيقال : زيادان في زياد وبلالان في بلال (ياقوت، معجم البلدان).

ولم تتغلب عليهم الدولة إلا في عام ٢٧٠هـ بعد أن قاد الموفق جيوش الدولة عدة مرات، وذلك بعد أن نشروا الخراب في كثير من النواحي بالبحرين والاحساء وجنوب العراق واستمرت ثورة الزنج ما يقرب من خمسة عشر عامًا (٢٢٥ - ٢٧٠هـ) وسقط فيها من الضحايا مليونان ونصف في رواية ابن طبا طبا في الفخري ومليون ونصف في رواية السيوطي في تاريخ الخلفاء[١].

وصفوة القول أن الدولة تخلصت من شر هذه الجماعة المدمرة التي استغلت سيطرة الأتراك على الدولة وعبثت بالأمن وقطعت الطرق وأحرقت الأخضر واليابس، فنجح الموفق في القضاء عليهم وقتل زعمائهم.

الزط:

وإلى هذه المنطقة (**منطقة البطائح**) نزح الزط مع جواميسيهم من ضفاف نهر الهندوس واستقروا فيها لبعض الوقت قبل أن يقوموا بثورتهم المشهورة التي تعرضوا على أثرها للنفي إلى ثغور الأناضول.

وقد ذكرهم الطبري أثناء حديثه عن حروب الردة في عهد أبي بكر وذكر أنهم كانوا يسكنون في منطقة الخط (**الاحساء**) وعلى ذلك فهجرتهم تمت قبل الإسلام. الطبري، ج٣، ص ٣٠٣ - ٣٠٤ وذكرهم في الجزء الرابع ص ٤٦٨ ويبدو أنهم اشتركوا في معركة الجمل ج٤، ص ٥٠٥ مع علي بن أبي طالب وفي سنة ٢٠٥هـ ولى المأمون عيسى بن يزيد الجلودي محاربة الزط، وفي سنة ٢١٩ هـ ظفر بهم عجيف وأحضرهم أسرى إلى بغداد وكانوا سبعة وعشرين ألفًا من الرجال والنساء والأطفال وأمر الخليفة أن يدفع بهم إلى الحدود مع الروم عند عين زربة بخانقين، فأغارت عليهم الروم وأسروهم فلم يفلت منهم أحد (ج٩، ص ١٠، ١١) وذلك سنة ٢٤١هـ.

(١) انظر أخبار الانتصار عليه في : الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٩، ص ٦٥٤ - ٦٦٧.

جهود المعتضد:

ولقد علت منزلة الموفق بسبب نجاحه في قيادة الجيش للقضاء على هذه الثورة أي ثورة الزنج وعادت الهيبة للبيت العباسي [وعندما توفي المعتمد سنة ٢٧٩هـ تولى الخلافة بعده أبو العباس بن الموفق ولقب **(بالمعتضد)** (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) وسار على نهج أبيه الموفق في الحزم والعزم كما سلك مسلكه في حسن السياسة والعدل، وكان حازماً مع قواده شديد الوطأة عليهم ولكن في يقظة واعية حتى هابوه. وسكنت فتنة الأتراك لم يجرؤ واحد منهم على مناوأة الخليفة أو إحداث شغب كما كان يحدث من قبل. وأما عزمه فإنه كان يخرج بنفسه للحرب ليستعيد السيطرة على الخارجين ليشعرهم بقوة الخلافة[1] وكان يسمى السفاح الثاني لأنه جدد ملك بني العباس[2].

وأدرك **(المعتضد)** أهمية القوة العربية في تدعيم قوة الخلافة العباسية فاتصل ببعض القبائل العربية وحاول ضمها إلى صف الخلافة، وعلى الأخص قبيلة تغلب بن وائل بن ربيعة، وذلك لمقاومة أطماع الأتراك وإيقاف محاولاتهم المستمرة للسيطرة على الخلافة، ونجح الخليفة المعتضد في هذا المجال حيث أن علاقاته الطيبة بهذه القبيلة أنتجت من هذه القبيلة قوة استطاعت أن تسد في منطقة العواصم والثغور، فكان منهم الحمدانيون الذين ينتسبون إلى حمدان بن حمدون **(وابنه الحسين)** أحد رجال قبيلة تغلب الكبيرة وزعيمها، وكان في البداية حليفاً لأحد الخوارج **(هارون الشاري)** ثم عفا عنه الخليفة، واستعمل رجال قبيلته في منطقة الحدود بين الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم فحسن بلاؤهم في ميدان الجهاد في سبيل الله. وناصروا الخلفاء العباسيين في وقت شدتهم في مواجهة الأتراك وغيرهم من المتغلبين.

ورفع المعتضد شأن الخلافة أمام الطامعين في استغلالها من الأتراك والفرس والشيعة وغيرهم، وفي عهده خرج (عمرو بن الليث بن الصفار)

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص ٢٣٣.

(٢) حسن إبراهيم، النظم، ص ٥٤.

الفارسي الطموح واستولى على كثير من بلاد فارس وظهرت الدعوة الفاطمية في اليمن والمغرب، وظهر القراطمة في البحرين والعراق، ولنا حديث مع هذه الحركات عند تناولنا للحركات الانفصالية في العالم الإسلامي.

وكان المعتضد مقتصداً في المال لا ينفقه إلا فيما يلزم وما يعود على الدولة بالخير، وحين مات سنة ٢٨٩هـ كان في بيت ماله من الذهب تسعة آلاف ألف دينار (٩ مليون) ومن الفضة أربعون ألف ألف درهم (٤٠ مليون)[١] وفي عهده انتقلت الخلافة من سامرا إلى بغداد.

وتولى الخلافة بعده ابنه (**أبو محمد علي**) ولقب (بالمكتفي) (٢٨٩ - ٢٩٥هـ) وسار على نهج أبيه، ولكن الحركات التي بدأت في عهد أسلافه استفحل أمرها في عهده كالقراطمة والفاطميون وقد بذل المكتفي جهده لقمع هذه الحركات، وأقر سلطان الخلافة على الشام وأزال دولة بني طولون عن مصر والشام وأعاد مصر ولاية تخضع مباشرة للخلفة، وكانت مدة حكمه قصيرة فلم يمض على خلافته أكثر من ست سنوات وتوفي سنة ٢٩٥هـ وبموته عادت الخلافة إلى ضعفها، وعاد الأتراك إلى قوتهم.

عودة سلطان الأتراك:

أحس الأتراك والطامعون في الاستئثار بالسلطة أن الأمر لا يستقيم لهم مع خلفاء أقوياء أمثال المعتضد والمكتفي، فعملوا على اختيار الخلفاء من الأمراء الضعاف من البيت العباسي ليعود إلى أيديهم السلطان وتتم لهم عملية استغلال الخلافة ولذلك طال اجتماعهم وتفكيرهم بعد موت المكتفي، وكان أول المرشحين للخلافة (**عبد الله بن المعتز**)[٢] وهو كفء للخلافة لأنه عالم وشاعر وأديب قادر، فانصرفوا عنه إلى جعفر بن المعتضد ولقبوه (**بالمقتدر**)، وهو صبي عاجز لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، ولا يعرف أمور الدنيا فولوه الخلافة حتى تتم لهم السيطرة.

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص ٢٣٢.

(٢) هو ابن المعتز الذي تولى الخلافة في الفترة من ٢٥٢ - ٢٥٥هـ.

وقد روى ابن الأثير أن وزير المكتفي وهو **(العباس بن الحسن)** استشار **(أبا الحسن علي بن محمد بن الفرات)**(١) فيمن يلي الخلافة فقال له : «اتق الله ولا تنصب في هذا الأمر من قد عرف دار هذا ونعمة هذا وبستان هذا، وجارية هذا، وفرس هذا، ومن لقى الناس ولقوه، وعرف الأمور، وتحنك وحسب حساب نعم الناس (يشير بهذا إلى ابن المعتز).

قال الوزير فيمن تشير؟ قال ابن الفرات : بجعفر بن المعتضد فقال الوزير: ويحك هو صبي!، قال ابن الفرات : إلا أنه ابن المعتضد، ولم نأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج إلينا، ويأمر وينهي ويعرف ما لنا ويرى أنه مستقل؟ ولم لا تسلم هذا الأمر إلى من يدعك تديره أنت؟»(٢).

ووافقهم على هذا الاختيار كبار القادة الأتراك، ومع هذا كان الكتاب منقسمين إلى كتلتين : جماعة مع آل الفرات، وعلى رأسها علي بن الفرات، وجماعة آل الجراح، وعلى رأسها محمد بن داود الجراح(٣)، وكان جماعة آل الجراح ممن قرروا خلع المقتدر وتعيين بن المعتز.

واختلف الناس سنة ٢٩٦هـ وبايع بعضهم لابن المعتز، والبعض الآخر بايع لجعفر بن المعتضد وهو صبي ومع ذلك لقبوه بالمقتدر، ومما هو جدير بالذكر أن زعيم قبيلة تغلب وهو **(الحسين بن حمدان)** كان من أنصار عبد الله بن المعتز ونادى له بالخلافة والحسين بن حمدان التغلبي هو الذي وقف مع المعتضد في حروبه كما أوضحنا آنفًا.

ومع هذا فقد كانت الغلبة والقوة في جانب الذين مع المقتدر فتم له الأمر ولم يقنع المتغلبون بهذا وإنما قتلوا ابن المعتز.

---

(١) ابن الفرات تولى الوزارة للمقتدر عدة مرات : من ٢٩٦ - ٢٩٩هـ ومن ٣٠٤ - ٣٠٦هـ ومن ٣١١ - ٣١٢هـ.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ١١٩، وأحمد أمين، ظهر الإسلام، ج، ص ٢٧ وحسن أحمد محمود، ص ٣٥٩.

(٣) الدوري، دراسات ص ١٩٥ والسامرائي، المؤسسات الإدارية، ص ٥٣.

وهكذا عمل الأتراك والوزراء على إعطاء الخلافة لمن لا يستحقها حتى يكون لهم الأمر، وله مجرد اللقب، كما رسموا سياستهم بعد ذلك على إفساد تربية الأمراء العباسيين الذين يعدونهم لتولي منصب الخلافة حتى ينشأ الواحد منهم جاهلاً وينصرف إلى اللهو واللذة، ويترك لهم زمام الأمور والتصرف في شئون الدولة.

وروى (**السيوطي وأبو المحاسن بن تغري بردي**) أنه لما اختلف أمر الناس، وبايع بعضهم لابن المعتز، سأل ابن جرير الطبري المؤرخ الكبير [وكان في اخر أيامه] قائلاً : ما الخبر ؟ قالوا له : بُويع ابن المعتز قال فمن رُشح للوزارة؟ قالوا : (**محمد بن داود الجراح**)، قال : من ذكر للقضاء؟ قالوا : (**أبو المثنى**)، فأطرق المؤرخ الكبير ثم قال : هذا الأمر لا يتم، قيل له : كيف؟ قال: كل واحد ممن سميتموهم متقدم في معناه، عالي الرتبة، والزمان مُدْبر والدنيا مولية، وما أرى هذا إلا إلى اضمحلال، وما أرى لمدته طولاً[١] وكان الأمر كما توقع الطبري وقتل ابن المعتز[٢].

وكان (**المقتدر**) مثالاً واضحًا للخلفاء الذين رباهم الأتراك تربية سيئة، فإنه تولى وسنه حوالي ١٣ سنة، فلما بلغ الرجال عكف على اللذات، وتوفر على المغنين والنساء، وترك أمور الدولة لغيره، وعلى رأسهم (**مؤنس التركي**)، وأخيرًا بعد حكم فاسد امتد نحو خمس وعشرون سنة (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) قُتل المقتدر على يد الأتراك، قتله رجل من أصحاب مؤنس أضجعه وذبحه وسلب ثيابه حتى سراويله، وتركه مكشوف العورة، إلى أن مر به رجل فستر عورته ثم حفر له موضعًا فدفنه به.

وتولى بعده أخوه (**أبو جعفر محمد**) ولقب (بالقاهر)، (٣٢٠ -

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص ٢٧٩، وابن الأثير، في هامش ص ١٢١، ج٦ نقلاً عن أبي المحاسن بن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة في حوادث سنة ٢٩٦هـ من تعليقات وإضافات لجنة تحقيق كتاب الكامل.

(٢) ابن الأثير، ج٦ص ١٢٢.

٣٢٢هـ) ولم تكن خلافته خيرًا من خلافة المقتدر وكانت نهايته مثل نهاية أخيه، حيث سمل الأتراك عينيه ولم يحدث لأحد من الخلفاء هذا من قبل، وسمل العينين[١] عادة عند البيزنطيين وقد نقلت بعد ذلك إلى العالم الإسلامي وقد وقف القاهر يومًا، بعد أن سمل وحبس وبويع غيره ثم أطلق، وقف في جامع المنصور بين الصفوف، وقال : تصدقوا عليّ فأنا من قد عرفتم. وكان ذلك أيام المستكفي (٣٣٣ - ٣٣٤هـ) ليشنع عليه[٢].

فترة إمرة الأمراء (٣٢٢- ٣٣٤هـ) :

تولى الخلافة في سنة ٣٢٢هـ أحمد بن المقتدر الذي لقب **(بالراضي)** وظل بها حتى سنة ٣٢٩هـ وفي هذه الفترة أخذ حال الدولة العباسية يزداد إدبارًا وانتكاسًا، وكثرت الاضطرابات والمنازعات السياسية والعسكرية من الأتراك والحمدانيين والديلم كل يود أن تكون له الكلمة في بغداد، في الوقت الذي ازدادت فيه الخلافة ضعفًا بسبب ازدياد **(قوة البويهيين)** في فارس والري وأصفهان واستقل **(الحمدانيون)** بالموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر، واستقل **(الأخشيد)** بمصر والشام. و**(السامانيون)** في خراسان.

وفي أيام الراضي استحدث منصب **(أمير الأمراء)** في بغداد وصار إليه الحل والعقد والخليفة يأتمر بأمره، وهو منصب أعلى من الوزارة ويجمع صاحبه في يده السلطتين العسكرية والسياسية، ويطل في ظله أمر الوزارة، ولم يكن الوزير في ظله إلا كاتبًا، ويخطب باسمه على المنابر، وكان يشترط أن يكون من أصحاب العصبيات له رجال يحتمي بهم لكي يتمكن من فرض نفوذه على أرباب السلطان ويجمع للدولة بعض الأموال في وقت قلت فيه الموارد بسبب كثرة الحركات الانفصالية في العالم الإسلامي وامتناع المتغلبين على الأطراف من تأدية ما عليهم للدولة.

---

(١) سمل العين فقؤها بحديدة محماة وقلعها، وقد نقل الأتراك هذه العادة عن البيزنطيين، أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج١، ص ٣٠.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص ٣٠.

ولم تستفد الدولة العباسية من نظام إمرة الأمراء شيئًا، بل على العكس من ذلك ازدادت أحوالها سوءًا حتى لم يتمكن الخليفة الراضي أن يدفع أرزاق الجند أو يحصل على ما يكفيه، ولم تكن هذه الفترة سوى سلسلة من المنازعات بين رجال الدولة على الاستئثار بالسلطة والنفوذ[1] وظل هذا النظام إلى أن دخل بنو بويه بغداد سنة ٣٣٤هـ فاستبدوا بالأمر دون غيرهم وحل النفوذ البويهي محل النفوذ التركي.

خلفاء العصر البويهي والسلجوقي

رقم الخليفة	الاسم	مدة الخلافة
٢٣	أبو القاسم الفضل بن المقتدر (المطيع)	٣٣٤ - ٣٦٣هـ
٢٤	أبو بكر عبد الكريم بن المطيع (الطائع)	٣٦٣ - ٣٨١هـ
٢٥	أبو العباس أحمد بن المتقي (القادر)	٣٨١ - ٤٢٢هـ
٢٦	أبو جعفر عبد الله بن القادر (القايم)	٤٢٢ - ٤٦٧هـ
٢٧	أبو العباس عبد الله بن محمد زخيرة الله بن القايم	٤٦٧ - ٤٨٧هـ
٢٨	(المقتدي)	٤٨٧ - ٥١٢هـ
٢٩	أبو العباس أحمد بن المقتدي (المستظهر)	٥١٢ - ٥٢٩هـ
٣٠	أبو منصور فضل بن المستظهر (المسترشد)	٥٢٩ - ٥٣٠هـ
٣١	أبو جعفر منصور بن المسترشد (الراشد)	٥٣٠ - ٥٥٥هـ
٣٢	أبو عبد الله محمد بن المستظهر (المقتفي)	٥٥٥ - ٥٦٦هـ
٣٣	أبو المظفر يوسف بن المقتفي (المستنجد)	٥٦٦ - ٥٧٥هـ
٣٤	أبو محمد الحسن بن المستنجد (المستضيئ)	٥٧٥ - ٦٢٢هـ
٣٥	أبو العباس أحمد بن المستضيئ (الناصر)	٦٢٢ - ٦٢٣هـ
٣٦	أبو نصر محمد بن الناصر (الظاهر)	٦٢٣ - ٦٤٠هـ
٣٧	أبو جعفر المنصور بن الظاهر (المستنصر)	٦٤٠ - ٦٥٦هـ

(١) علي إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي العام، ص ٤٤٦.

الباب الثالث

الدولة البويهية (٣٣٤-٤٤٧هـ)

تنسب هذه الدولة إلى أبي شجاع بويه الديلمي، وكان أبو شجاع رئيس قبيلة مقاتلة في جبال الديلم جنوب غربي بحر قزوين، وقد نزحت قبيلته من جبل الديلم واتجهت لخدمة الدولة الطبرية الزيدية في طبرستان، ثم دخلت في خدمة الدولة الزيادية بعد ذلك، وكان لبويه أبناء ثلاثة هم علي والحسن وأحمد، وعندما توفي بويه قاد الجماعة بعده ابنه الأكبر علي.

واستطاع علي أن يكون قائد جماعة مهاجرة من الديلم، وكان الديلم بعد أن انفتحوا على الحدود الطبرية واعتنقوا الإسلام يهاجرون على هيئة أجناد، فكانوا يتخذون لأنفسهم قواداً يتبعونهم، وكان كل قائد ينتقل برجاله من خدمة حاكم إلى خدمة حاكم آخر حسب مصالح جماعته وحسب من يحتاج لخدماته العسكرية.

وكان خروج الديلم من منطقتهم أولاً إلى طبرستان أثناء الحكم الزيدي، ثم خرجوا بأعداد أكبر أيام الدولة الزيارية والمرحلة الثالثة والأخيرة هي المرحلة البويهية بقيادة (**علي**) ابن بويه، وكان علي من قواد (**مرداويج**)، وقد نجح علي بن بويه في تجميع الديلم حوله لعدالته في رجاله، وكانت عادته أن يُطي كل ما يغنمه لجنده، فأحبوه وتجمعوا حوله، وبدأ ينفصل عن مرداويج، ويتجه من طبرستان إلى فارس جنوبياً.

ولم تقف الخلافة مكتوفة اليدين أمام التقدم البويهي فقد حاولت بكل وسيلة أن تمنع الهجرة البويهية وأن تصد تيارها ولكن هذا التيار كان قوياً، فكلفت مرداويج أولاً بإعاقة هذا الزحف ولكنه فشل، وكان كلما أرسل قواتاً من الديلم لهم انضموا إليهم.

وتمكن علي ورجاله من المرور في خط على أطراف المفازة الكبرى من ناحية الغرب، والمفازة تقسم بلاد إيران إلى قسمين : خراسان في الشرق وإقليم فارس والأهواز في الغرب وتبدأ المفازة من جبال طبرستان وتمتد

إلى جبال مكران المجدبة المشرفة على الخليج العربي، وتمكن علي من الانتصار على قوات والي (**أصفهان**) وكان عليها آل ياقوت سنة ٣٢١هـ ويذكر ابن الأثير أن آل ياقوت كانوا يتحكمون في هذه النواحي وغيرها على أيام خلافة الراضي، وكان محمد بن ياقوت حاجب الخليفة وكانت له شرطة بغداد سنة ٣١٩هـ ورياسة الجيش سنة ٣٢٢هـ[١].

واتجه (**علي**) بعد أصفهان إلى (**شيراز**) وهي قصبة بلاد فارس واستولى على كثير من المدن في طريقه وكانت شيراز في يد آل ياقوت وتمكن من الاستيلاء عليها واستقر بها واتخذها قاعدة له، وأحسن إلى من وقع في يده من الرجال فانضموا إليه وكثرت جموعه، وعامل أهل شيراز معاملة طيبة[٢].

ويذكر مسكويه مؤرخ الدولة البويهية أن (**علي بن بويه**) حصل على كنوز وهو في طريقه إلى شيراز تقدر بنحو خمسمائة ألف دينار، فوسع منها على رجاله فقويت شوكته وزاد جمعه ويذكر أيضاً أنه حصل على مثل هذا المبلغ من كنز وجده في شيراز أيضاً، فأصبحت له قدرة مالية شدت من ساعده، وثبت أمره، وساعدته هذه الأموال في تدعيم حكمه في عاصمته الجديدة[٣] وكانت هذه الأموال كما يسير مسكويه مكنوزة وبعضها كانت ودائع لعمرو ابن الليث وأخيه يعقوب وبعضها كانت لآل ياقوت[٤].

ومن ناحية أخرى فقد استراح علي بن بويه من ملاحقة مرداويج له، ففي سنة ٣٢٣هـ قتل الأتراك مرداويج، وتفرق من معه من جند الديلم والأتراك فذهب بعضهم إلى علي بن بويه في شيراز، وكان مرداويج قد تجبر قبل قتله، وعمل له تاجاً مرصعاً على صفة تاج كسرى، وعزم على المسير

(١) ابن الأثير، ج٦، ص٢٣٢ - ٢٤٩، وابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص ١١٤.

(٢) مسكويه، تجارب الامم، ج١، ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٣) المصدر السابق، ج١، ص ٢٩٧.

(٤) المصدر السابق، ج١، ص ٣٠٠. ويذكر ابن الأثير ج٦، ص ٢٣٢ أنه استخرج من أرجان أموالاً.

(٥) ابن الأثير، ج٦، ص ٢٤٦.

إلى العراق وإعادة ملك كسرى بالمدائن(٥).

وأصبح علي بن بويه (طرفدار) سنة ٣٢٢هـ بعد استيلائه علي فارس بالتغلب، وهو وإن كان زيدي المذهب فإنه على استعداد للاعتراف بالخليفة العباسي باعتبار أن المذهب الزيدي يجيز إمامة المفضول مع وجود الأفضل، ولم يكن هو أول من خضع للخليفة العباسي من الزيدية وإنما سبقه إلى ذلك مرداويج ابن زيار.

ولذلك أرسل إلى الخليفة في سنة ٣٢٢هـ يطلب التفويض بحكم فارس، فأرسل له الخليفة تقليدًا بإمارة فارس في نفس السنة[١] ويلاحظ أن إقليم فارس الذي استولى عليه علي بن بويه كان محميًا بالمفازة الكبرى من الشرق وبالخليج العربي من ناحية الجنوب الغربي.

ونظر علي إلى حماية إمارته في فارس بالاستيلاء على كرمان في الجنوب، والأهواز في الشمال الغربي وهو مدخل العراق، وبعد استقراره في شيراز استولى سنة ٣٢٤هـ على كرمان، وفي سنة ٣٢٦ وجه أخاه أحمد إلى الأهواز[٢] فملكها، وبذلك أصبح البويهيون يملكون بوابة العراق الشرقية.

ثم أرسل أخاه (الحسن) إلى أملاك الدولة الزيارية سنة ٣٢٦هـ بإقليم الجبال فاستولى عليه شيئًا فشيئًا، وعقد حلفًا مع الزياريين وضعت بموجبه أملاك الزياريين في طبرستان والديلم تحت سلطان بني بويه، واستقر الحسن (بالري) واتخذها مركزًا له.

ويلاحظ أن البويهيين أصبحوا في سنة ٣٢٦هـ يطلون على العراق غير أنهم تريثوا في الهجوم على العراق على الرغم من معرفتهم بالمشاكل التي كانت تحيط بالخلافة في هذه الفترة بسبب كثرة المتنازعين من الأتراك والعرب وغيرهم، وانتظروا إلى أن تقوم مراكز القوى في العراق بتصفية

(١) ابن الأثير، ج٦، ص ٢٣٩.

(٢) كانت الأهواز في يد البريدي، وكانت خراسان وما وراء النهر في يد السامانيين سنة ٣٢٤هـ، ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٢٥٥ وكانت كرمان تابعة للسامانيين، وكانت (جيرفت) قصبة كرمان.

نفسها بنفسها وكان علي بن بويه متأنياً بطبعه لا يحب التهور والعجلة، فأخذ يرسي قواعد ملكه في فارس والأهواز والجبل وغيرها من المناطق التي تقع شرق العراق ريثما تتاح له فرصة الوثوب على السلطة في بغداد.

وكانت الأحوال السياسية والاقتصادية قد تدهورت في العراق في ذلك الوقت بسبب تنافس وتنازع الأتراك على منصب أمير الأمراء، وعجزهم عن دفع أرزاق الجند وحفظ الأمن في البلاد، وكان أحمد بن بويه بالأهواز يرصد الموقف فاتصل به بعض قواد بغداد يطلبون إلى المسير نحوهم للاستيلاء على بغداد، فوعدهم بالمؤازرة والتأييد.

واستأذن (أحمد) أخاه علياً في الزحف على بغداد سنة ٣٣٤هـ فسمح له بذلك فتقدم أحمد إليها، وعندما علم الأتراك بمقدمه خرجوا من المدين، واستقبله الخليفة (المستكفي) واحتفى به، وولاه إمرة الأمراء، وحلف كل منهما لصاحبه وفي هذا اليوم شرف الخليفة بني بويه بالألقاب التي صاروا يعرفون بها، فلقب أحمد بلقب (معز الدولة)، ولقب أخاه الأكبر علياً بلقب (عماد الدولة)، ولقب الحسن صاحب الري والجبل بلقب (ركن الدولة)، وأمر بأن تضرب ألقابهم وكناهم على النقود وعلى الطراز[٢].

وبدخول أحمد بن بويه بغداد وتوليه إمرة الأمراء فيها سنة ٣٣٤هـ ابتدأ العصر البويهي الذي استمر حتى ٤٤٧هـ وفيه سقط السلطان الحقيقي من أيدي الخلفاء، ولم يعد للخليفة من السلطان شيء يذكر وأضحى رئيساً دينياً ليس له من الأمر شيء ولا وزير، وإنما له كاتب يدير إقطاعاته، وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يشاء.

وكان أحمد بن بويه شاباً متهوراً يختلف عن أخيه علي الذي يتصف بالتأني والحكمة، وبسبب تهور أحمد أوقع به لصوص المفازة الكبرى سنة ٣٢٤هـ (وهم البلوص) عندما دخل المفازة وغدر بهم فسقط في كمين

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٣١٤.

(٢) الطراز: هو أطراف ثوب الخليفة والخلع التي يقدمها إلى الأمراء فكانت هذه الألقاب تطرز عليها بجانب ألقاب الخلفاء.

نصبوه له وقتلوا معظم رجاله، وأصيب هو بضربة قطعت يده اليسرى من الساعد، وأصيبت يده اليمنى بضربة أخرى قطعت بعض أصابعها[١] وعندما اكتشف زعيم البلوص شخصيته أوصله إلى أخيه علي بفارس واعتذروا له، من هذا يتبين لنا أن أحمد هذا فارس معتد بقوته أحمق يتعجل في الالتجاء إلى القوة غير بصير بفضل السياسة لمن يملك في نفس الوقت القوة[٢].

ولم يكد هذا القائد المتهور يدخل العراق ويستقر في بغداد حتى تغيرت أوضاع كثيرة على يديه من سيئ إلى أسوأ، فالخليفة (**المستكفي**) لم يمكث في الخلافة بعد استيلاء معز الدولة على العراق إلا أربعين يومًا وخُلع لأن معز الدولة اتهمه بالتدبير ضده، وحضر اثنان من الديلم يصيحان فتناولا يد الخليفة فظن أنهما يريدان تقبيلها فمدها إليهما، فجذباه عن سريره، وكان ذلك في حضور معز الدولة، وسيق الخليفة ماشيًا إلى دار معز الدولة فحبس بها حتى مات، ونهب الديلم دار الخلافة حتى لم يبق شيء وعين معز الدولة بدله الفضل بن المقتدر (٣٣٤ - ٣٦٣هـ) فلم يكن له من الأمر شيء.

فالخليفة في العصر البويهي لم يكن مسئولاً عن بيت مال الدولة، وليس له شأن بالإدارة المالية، وليس له شأن بالجند، وليس مسئولاً عن سياسة الدولة، وإنما على الخليفة أن يعطي تصرفات البويهيين في النهاية صفتها الشرعية.

أما فيما يختص بنفقات الخليفة فإنهم جعلوا له راتبًا يسمى «مياومة» كل يوم ألفي درهم، وهو أقل من نصف ما كان يحتاج إليه [مسكويه، ج٦، ص ١٢٥] وكانت نفقات الحضرة أيام المعتضد سبعة آلاف دينار كل يوم [كتاب الوزراء، ص ١٠] وفي سنة ٣٣٠هـ قدر لسائر نفقات دار الخلافة مائة وخمسون ألف درهم في السنة [آدم متز - الحضارة الإسلامية، ج١، ص ٢٥٩] ولما وجدوا أن ذلك غير عملي أضافوا إليه ضياعًا، وكان الخليفة

---

(١) المصدر السابق، ج٦، ص ٢٥٥.

(٢) حسن محمود وأحمد الشريف، العالم الإسلامي، ص ٥١١ - ٥١٢.

في بعض الأحيان يصادر، فتسلب داره، ويُؤْخذ ما فيها من نفائس وقد حدث هذا عدة مرات طوال العصر البويهي، وكان يحدث هذا كذلك قبل العصر البويهي[١].

وكان سلطان معز الدولة بالعراق مبدأ خرابه بعد أن كانت أرجاؤه وارفة الظلال، وكان يوصف بأنه جنة الله في أرضه، فما كاد أحمد بن بويه يستقر به حتى بدأ يصادر الناس ويأخذ الأموال من غير حق، وأقطع قواده وأصحابه النواحي، وكانت البلاد قد خُرِّبت بسبب الصراع وزاد الغلاء وانتشر النهب، وزاد الخراب لترك القواد الاهتمام بشئون الزراعة، فلم تمضي سنة على بغداد حتى اشتد الغلاء بها فأكل الناس الميتة والقطط والكلاب وبعض الأعشاب فأصيبوا ببعض الأمراض وكثر فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن الموتى، فكانت الكلاب تأكل لحومهم، وخرج أهل بغداد منها إلى البصرة فمات أكثرهم بالطريق وبيعت الدور والعقارات بالخبز[٢] ولهذا فإن العصر البويهي شهد تحولات اجتماعية كبيرة وتغييرات اقتصادية بعيدة المدى فازداد الفقر وانعدم الأمن، فنتج عن هذا قيام بعض الحركات الاجتماعية كان أبرزها في العراق (**حركة العيارين**) وحركة (**قراصنة البطيحة**).

أما (**حركة العيارين**) فكانت مجموعات عبارة عن تكتلات شعبية لا تلتزم بنظام أخلاقي ولا بعرف اجتماعي تقوم بالسطو على المنازل وتعيث في الأرض فساداً وتقطع طريق الناس، وهناك من يدافع عنها ويقول بأنها وليدة الفوضى السياسية والظلم الاجتماعي والاستغلال الاقتصادي في العصر البويهي، وأنها ابتغت العدالة والمساواة وعدم الاستغلال ويربط بينها وبين حركة الفتوة التي ازدهرت في عصر الناصر العباسي (٥٧٥ - ٦٢٢هـ) عندما خطى الناصر لدين الله وسعى لتنظيمها، وكان يريد بذلك امتصاص الطاقة التي كانت مبعث شر وفساد وتحويلها لصالح المجتمع

(١) نُهب الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩هـ) واضطر أن يدفع لأمير الأمراء مبالغ من المال، ودفع آنية الذهب والفضة لكي تضرب نقوداً، وكذلك نهب المتقي (٣٢٩ - ٣٣٣هـ) وسمل.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٣٢١.

والدولة فكانت «الفتوة» امتداداً لحركة العيارين ولكن ضمن إطار أخلاقي متين(١).

أما حركة (**قراصنة البطيحة**)، فكان على رأسها (**عمران بن شاهين**) وكان في بداية أمره جابياً فجبا جبايات وهرب بها إلى البطيحة وهي أرض واسة بين واسط والبصرة غمرتها مياه دجلة لإهمال شئون الزراعة فتحولت إلى مستنقعات وغابات ودخل إليها اللصوص فوجدوا بها مواضع عالية لم يصل إليها الماء فبنوا بها القرى فجاء عمران بن شاهين إليها وصار يقطع الطريق عن من يسلكه واجتمع إليه جماعة من اللصوص فقوي بهم وحارب البويهيين وهزمهم فاضطر معز الدولة إلى مصالحته، وأصبحت له أسرة حاكمة بها حكمت واستمرت إلى ٣٦٩هـ وانتقل الحكم فيها إلى مواليه حتى سنة ٤٠٨هـ(٢).

وبدأت (مظاهر الاختلاف المذهبي) تحدث انشقاقاً في كيان العراق، فقد كان أهل بغداد قبل الدولة البويهية على مذهب أهل السنة والجماعة يحترمون جميع الصحابة ولا يقدحون في معاوية ولا غيره من سلف المسلمين فلما جاء البويهيون ازداد نشاط الشيعة ببغداد ووجدوا لهم من قوة الدولة سنداً.

ففي سنة ٣٥١هـ كتب الشيعة على مساجد بغداد في شهر ربيع الآخر بأمر معز الدولة المنشور التالي :

«لعن الله معاوية بن أبي سفيان، ولعن من غصب فاطمة رضي الله عنها فدكا(٣)، ومن منع من أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام، ومن

(١) أكرم العمري، دراسات تاريخية، ص ٢٧٢.

(٢) الخضري، المحاضرات العباسية، ص ٣٨٥ - ٣٨٦.

(٣) قرية أفاء الله بها على رسوله فدخلت في ملكه وكان يتصدق بدخلها ومات عنها وكان رسول الله يضع ما يأتيه منها في أبناء السبيل، وكذلك فعل أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فلما ولي معاوية أقطعها مروان بن الحكم، وصارت لعمر بن عبد العزيز فكان يخرج مالها في أبناء السبيل وظلت بعده مع بني أمية حتى ردها السفاح إلى أبناء علي فلما كانت ثورتهم على المنصور أخذها وأعادها المهدي ثم قبضها موسى الهادي، وفي أيام المأمون ردها على العلويين سنة ٢١٠هـ وأعادها المتوكل إلى أبناء السبيل (ياقوت، معجم البلدان).

نفى أبا ذر الغفاري[١]، ومن أخرج العباس من الشورى»[٢].

وفي سنة ٣٥٢هـ أمر معز الدولة بالاحتفال بيوم عاشوراء فأمر الناس بإغلاق محلاتهم وإبطال الأسواق والبيع والشراء وإظهار النياحة وإخراج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه، قد شققن ثيابهن يدرن في بغداد بالنيائح ويلطمن وجوههن على الحسن بن علي، ولم يكن لأهل السنة قدرة على منعهم لكثرة الشيعة ولأن السلطان معهم كما يقول ابن الأثير[٣].

وفي ثامن عشر من ذي الحجة من سنة ٣٥٢هـ أمر معز الدولة بالاحتفال بعيد (غدير خُم)[٤] وإظهار الزينة في البلد وإظهار الفرح وفتح الأسواق بالليل كما يفعل الناس في ليالي الأعياد، وهو الموضع الذي يروي الشيعة أنه حدثت فيه وصية الرسول لعلي، وأن الرسول قال في علي :

«من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والي من والاه وعاد من عاداه» وذلك في ١٨ من ذي الحجة في السنة العاشرة وهو عائد من حجة الوداع[٥].

وبهذا صارت بغداد وبلاد فارس والري ميدانًا للاضطرابات المتكررة بين السنة والشيعة وجرت فتن ومعارك بين الطائفتين سقطت فيها ضحايا كثيرة من الفريقين، وسلطان البويهيين يقف مع الشيعة، والخليفة ضعله مع أهل السنة، مما أثر في الأحوال العامة أسوأ تأثير.

ولا شك أن هذا وضع جديد لم يحدث مثله من قبل فلم يكن الخليفة يجيز للشيعة أن يجهروا بمذهبهم ولا أن يدعوا له، أما بعد دخول البويهيين فقد

(١) اسم أبي ذر (جندب بن جنادة)، وكان قد نفاه عثمان إلى (الربذة) ويقال إنه خرج من المدينة مغاضبًا عثمان إليها إلى أن مات بها سنة ٣٢هـ وهي من قرى المدينة على ثلاثة أيام قريبة من ذات عرق إلى مكة (ياقوت).

(٢) المصدر السابق، ج٧، ص ٤، والعماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٣، ص ٧.

(٣) المصدر السابق، ج٧، ص ٧، والعماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٣، ص ٩.

(٤) هو موضع بين مكة والمدينة بالجحفة وقيل هو على ثلاثة أميال منها، والجحفة من مكة على أربع مراحل (حوالي ١٥٠ كم) وهي ميقات أهل مصر والشام إن لم يمروا على المدينة، فإن مروا فميقاتهم ذو الحليفة.

(٥) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص ١١٢.

أصبح الشيعة يتمتعون بحماية البويهيين.

ولقد ترتب على هذا انشقاق العراق وزيادة العداء بين السنة والشيعة وكثرت الاشتباكات، الأمر الذي دعا بعضهم رجال الدولة وهو الوزير **(الصاحب بن عباد)** هو إسماعيل بن عباد (ت٣٨٥هـ) وسمي الصاحب لأنه كان يصحب الوزير البويهي **(أبو الفضل بن العميد)** (ت ٣٦٠هـ) والذي كان وزيراً لركن الدولة صاحب الري وكان لابن العميد شأن في تنشئة عضد الدولة بن بويه وتعليمه، وكان عضد الدولة يذكر له دائماً هذا الفضل ويدعوه بالأستاذ الرئيس[١]، وهو الذي قيل فيه :

«بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد»[٢] وكان ابن العميد عربي اللسان فارسي الأعياد مدحه المتنبي فقال :

عربي لسـانه فلسفي * رأيه فارسـية أعياده

وكان الصاحب بن عباد من أتباع ابن العميد ولذا لقب بالصاحب لأنه كان يصحبه، ثم أطلق عليه هذا اللقب وبقي علماً عليه دعا إلى المناداة بالتعايش السلمي بين الشيعة والسنة في رسائل كتبها، يقول فيها :

«وقد كتبت في ذلك كتاباً أرجوه يجمع على الألفة، ويحرس من الفرقة، وينظم على ترك المنازعة، والجنوح إلى الموادعة فإن المهادنة تجمل بينا الملتين، فكيف بين النحلتين، والله نسأل توفيقاً لأنفسنا ولهم»[٣].

ملوك بني بويه :

لعل من المفيد أن نلقي الضوء على ملوك بني بويه، فنذكرهم أهم من ذكر الخلفاء في هذه الفترة لأنه لم يكن للخلفاء شأن يذكر في تصريف أمور الدولة البويهية، ولذلك حق للمؤرخين أن ينعتوا عصرهم بالعصر البويهي،

(١) مسكويه، تجارب الأمم، ج٢، ص ٢٨١ - ٢٨٢ وأحمد مختار العبادي، ص ١٧٢.

(٢) عبد الحميد الكاتب كان كاتباً لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية.

(٣) رسائل الصاحب بن عباد، تحقيق عبد الوهاب عزام، وشوقي حنيف، ص ٩١، وأحمد مختار العبادي، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٥.

[ولكن كان نفوذ الخلفاء الروحي ظل محترمًا في المشرق كله] ويدل على ذلك أن ابن الأثير لم يجد للطائع (٣٦٣ - ٣٨١هـ) معلومات لكتابة ترجمته عند وفاته فقال: «ولم يكن له من الحكم في ولايته ما يعرف به حال يستدل له على سيرته»(١).

كان مركز البويهيين أولاً في (شيراز) طوال حياة عماد الدولة علي مؤسس الأسرة البويهية، وكان علي هو الرئيس وأخوه معز الدولة ممثلاً له في بغداد، وكان يتقلب هو وصاحب الجبل المقيم بالري بلقب أمير، بينما يحمل علي لقب ملك، وزاد عضد الدولة بن ركن الدولة لقب **«شاهنشاه»** سنة ٣٦٧هـ وهو لقب لم يستعمله السامانيون سنيين تابعين للخليفة يباعدون بين أنفسهم وبين شبهة الميل إلى إحياء التقاليد والنظم الإيرانية قبل الإسلام(٢).

ولم يستعل لقب شاهنشاه إلا البويهيين، أما السلاجقة فإنهم عندما وصلوا إلى خراسان وكانت الإدارة إيرانية فإنهم أغدقوا عليهم لقب شاهنشاه وعندما تقدموا نحو الغرب تركوا لقب شاهنشاه، واتخذ بدله لقب «سلطان» وكان يخطب لعضد الدولة على المنابر(٣) بلقب شاهنشاه ومعناه ملك الملوك وهو اللقب الوثني القديم لآل ساسان، فثار الناس على هذا ورموا الخطباء بالآجر، فأفتى الفقهاء أن هذه الأسماء إنما يعتبر فيها القصد والنية، وأن ملك الملوك معناه ملك ملوك الأرض، وليس فيه مماثلة بين الخالق والمخلوق(٤).

وفي أواخر حكم البويهيين في سنة ٤٢٩هـ كان أمر البويهيين قد ضعف، وثارت مشكلة هذا اللقب بين الخليفة وجلالة الدولة البويهي والعلماء بسبب رغبة جلال الدولة في حمل لقب شاهنشاه، فقد سأل الخليفة القائم (٤٢٢ - ٤٦٧هـ) بأن يمنحه هذا اللقب فامتنع الخليفة وعرض هذه المسألة

---

(١) الكامل، ج٧، ص ١٤٨.

(٢) بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد وإبراهيم صبري، ص ١٠٥.

(٣) أبن العميد، تاريخ المسلمين، ص ٢٣٦-٢٣٩، وحسن إبراهيم، مرجع سبق ذكره، ج٢، ص٤٧-٤٨.

(٤) حسن إبراهيم، الإسلام في آسيا الوسطى، ص ١٠٧.

على الفقهاء، فأفتى بعض من لا يستحق الذكر بجوازه[١] وامتنع عن الإفتاء بجواز إطلاق هذا اللقب قاضي القضاة أبو الحسن الماوردي، وجرى بينه وبين من أفتى بجوازه مراجعات وكان الماوردي من أخص الناس بجلال الدولة وكان يتردد على داره كل يوم، فلما أفتى بهذه الفتيا انقطع ولزم داره خائفًا من بطش جلال الدولة، فاستدعاه جلال الدولة فحضر خائفًا، فأدخله وحده، وقال له : «قد علم كل واحد أنك من أكثر الفقهاء مالاً وجاهًا وقُربًا منا، وقد خالفتهم فيما خالف هواي، ولم تفعل ذلك إلا لعدم المحاباة منك، واتباع الحق، وقد بان لي موضعك من الدين ومكانك من العلم، وجعلتُ جزاء ذلك إكرامك بأن أدخلتك إليَّ وحدك، وجعلت إذن الحاضرين إليك لتحققوا عودي إلى ما تحب»[٢].

فشكره الماوردي ودعا له وانصرف مرفوع الرأس ورمزًا بارزًا للعلماء الذين لا يخافون صولة الحكام، ولا يخافون في الحق لومة لائم، وكان الماوردي من فقهاء الشافعية أخذ الفقه عن أبي القاسم الصيمري بالبصرة وأبي حامد الاسفراييني ببغداد، وكان شيخه الاسفراييني ممن يتصدى للشيعة في بغداد[٣].

وبعد وفاة عماد الدولة علي سنة ٣٣٨هـ انتقلت رياسة البيت البويهي إلى ركن الدولة الحسن، وانتقل معها مركز الدولة من (شيراز) إلى الري حيث كان ركن الدولة الأخ الذي يلي عماد الدولة في السن، ثم إن ركن الدولة لم يكن في قوة عماد الدولة ولا في سطوته، وبدأت مشاغبات الأبناء، وأولها مشاغبات (**عضد الدولة**) ابن ركن الدولة الذي تولى بعد عماد الدولة أمر فارس لأن عمه لم يعقب ولدًا، وكان من واجب عضد الدولة أن يستشير أباه

---

(١) كالقاضي أبو الطيب الطبري، والقاضي أبو عبد الله الصيمري، والقاضي بن البيضاوي وأبي القاسم الكرخي.

(٢) ابن الأثير، ج٨، ص ١٦.

(٣) حوادث سنة ٣٩٨هـ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ٢٣٩. والماوردي كتب في سياسة الملك كتابات منها : ١- الأحكام السلطانية. ٢ - وكتاب تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملِك وسياسة الملْك.

في كل شيء وأن تكون سياستها واحدة إلا أن الذي حدث غير ذلك، فإن عضد الدولة اتجه بأطماعه إلى بغداد بعد وفاة عمه معز الدولة سنة ٣٥٦هـ وخلفه ابنه عز الدولة بختيار، فهدده والده بالسير إليه لحربه إذا لم يكف عن مناوأة ابن عمه في بغداد.

ولما مات ركن الدولة سنة ٣٣٦هـ آلت رئاسة البيت البويهي إلى عضد الدولة، وفي السنة التالية لوفاة أبيه سار بجيوشه إلى بغداد، وحارب ابن عمه بختيار وقتله سنة ٣٦٧هـ وتربع على عرش البويهيين بالعراق[1]، وأصبح الوارث الوحيد لممالك بني بويه في شيراز والري وبغداد واستقر في بغداد، وكان ذلك وضعًا جديدًا، فإن بغداد من قبل كانت تتلقى دائمًا نائبًا عن البيت البويهي أما في هذه المرة فهي تستقبل ملك بني بويه، ولهذا استحدثت بعض مراسيم لم تكن من قبل، فذكر امس عضد الدولة في الخطبة ولم يخطب لغير الخليفة في بغداد من قبل، وضربت الطبول ثلاث مرات يوميًا على بابه، ولم تجر بذلك عادة من تقدمه[2].

وكان طبيعيًا أن يحيط عضد الدولة نفسه بهذه المراسيم لأنها نفس المراسيم التي كان يتبعها في شيراز وكان من عادة الداخل عليه حتى ولو كان من أمراء البيت البويهي أن يقبل الأرض بين يديه.

ومع ذلك يُرْوى عن عضد الدولة أنه كان يظهر الاحترام للخليفة العباسي، وهناك وصف ذكره صاحب تجارب الأمم لدخول عضد الدولة على الخليفة الطائع وتقبيله الأرض بين يديه عدة مرات، مما يدل على أنه حرص على إظهار الطاعة والولاء له[3] وكان ذلك في مراسيم حفل عقد العهد إلى عضد الدولة سنة ٣٦٩هـ.

---

(١) مسكويه، مصدر سبق ذكره، ج٢، ص ٣٨٠ – ٣٨٦.
(٢) ابن الأثير، ج٧، ص ٩٠ – ٩١.
(٣) مسكويه، ج٢، ص ٤١٧ – ٤١٨.

نهاية البويهيين:

وكانت الدولة قوية في عصر (عضد الدولة)، فقد بلغت الدولة البويهية في عهده أوج عظمتها وتدعم مركز الشيعة في عصره، فقد شيد مشهداً فخماً لعلي بن أبي طالب بالنجف، ومشهداً آخر للحسين بكربلاء، فهوت أفئدة الشيعة إليهما من كل مكان(١)، وتوفي سنة ٣٧٢هـ وبعده زادت المنازعات بين أبناء البيت البويهي فأضعفت دولتهم. ولم تلبث هذه الخلافات أن انتقلت عدواها إلى السنة والشيعة والترك والديلم، فقامت الحرب بينهما في شوارع بغداد ولا سيما في حي الكرخ الذي أضحى موطناً للشيعة ويقع في غربي دجلة وهو حي شعبي يحتوي على المدينة القديمة وعلى الأسواق، ونتج عن ضعف البويهيين أن قوي في المقابل وضع الخلفاء العباسيين وأصبحوا قادرين على التدخل في السياسة ومناوأة النفوذ الشيعي البويهي والفاطمي ومن مظاهر هذه المناوأة أن الخليفة القادر بالله أمر في سنة ٣٨٢هـ بوقف النواح والبكاء في بغداد يوم عاشوراء كما رفض تعيين رجل شيعي اختاره البويهيون لشغل منصب قاضي بغداد، واضطر البويهيون إلى الرضوخ واكتفوا بتعيين قاض خاص للشيعة سمي بالنقيب أو نقيب الطالبيين أو الهاشميين.

وقبيل الزحف السلجوقي على العراق كانت الخلافات قد وصلت إلى مداها بين أفراد البيت البويهي فمزقت الدولة وبددت قوتها في صراعات أسرية، ولم يتكتلوا لمواجهة السلاجقة عندما اجتاحوا مناطقهم في فارس والجبل وطبرستان، وكانت آفة البويهيين الأخرى إلى جانب خلافاتهم هي استكثارهم من الأتراك المرتزقة في جيوشهم وهؤلاء يخدمون الدولة في حالة قوتها وحزم ملوكها، ولكنهم يكونون من أشد الأعداء على كيانها إذا دب الضعف فيها، وزادت المشاحنات بين جند الديلم والأتراك وساعد الأتراك البويهيين على زيادة العداء بينهما عندما اعطوا فرصة أفضل للأتراك، وفي النهاية أصبح الأتراك يهيمنون على البيت المالك البويهي ويسيطرون على

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ١٠٠ – ١٠١.

الدولة حتى أخذوا يتدخلون في تولية ملوك بني بويه وعزلهم(١).

وغدا للأتراك زعيم قوي قبيل زحف السلاجقة على بغداد وهو : أبو الحارث أرسلان البساسيري نسبة إلى بلدة بفارس يقال لها بسا، [وبالعربية فسا]، وأهل فارس يقولون في النسبة إليها البساسيري وهي نسبة شاذة على خلاف الأصل، وكان سيده من بسا فنسب إليها(٢) فأصبحت له قيادة الجيش وكان في الأصل مملوكًا حصل عليه بهاء الدولة البويهي وهو صغير، وأخذ يتنقل في الوظائف إلى أن عينه الخليفة القائم قائدًا لحرسه وقربه إليه حتى أصبح يستشيره، وأصبح يسيطر بمن معه من الأتراك على بغداد سيطرة كاملة، وهو متشيع يوالي الفاطميين، ولم يكن الخليفة أو الملك الرحيم آخر البويهيين يملكان شيئًا أمام قوة هذا القائد وجنوده، وكان البساسيري يرى في وصول السلاجقة إلى العراق ضياعًا لملكه المرتقب، لذلك اتصل بالفاطميين واستعان بهم عليهم كما سنرى ذلك فيما يلي من أحداث(٣).

ازدهار الحياة العلمية في العصر البويهي :

ازدهرت الحياة العلمية والأدبية في العصر البويهي، وعلى الأخص في عصر عضد الدولة، فيؤثر عنه أنه قرب العلماء وجالسهم وأجرى المرتبات على الأئمة والمؤذنين والعلماء والقراء والغرباء والضعفاء الذين يأوون إلى المساجد، ويذكر ابن الأثير عنه أنه «أجرى الجرايات على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والنحاة والشعراء والنسابين والأطباء والحساب والمهندسين»(٤).

وجمع عضد الدولة حوله صفوة من العلماء منهم أبو علي الفارسي(٥) النحوي، وكان من المعتزلة، ومنهم : أبو إسحق إبراهيم الصابي، الذي ألف

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٢١، ٦٦، ٦٧.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص ١٩٢ - ١٩٣.

(٣) النجوم الزاهرة، ٥/٢، ٦٤ ووفيات الأعيان، ج١، ص ١٩٢ - ١٩٣ الأعلام للزركلي، مادة أرسلان البساسيري، ج١.

(٤) الكامل، ج٧، ص ١٠١.

كتاب : «التاجي في أخبار بني بويه» ومنهم العالم الفلكي أبو الحسن بن عمر الرازي الذي عمل كرة تمثل السماء وما فيها من أجرام، وكان عضد الدولة يقول مفتخراً : «أنا غلام أبي الحسن الرازي في النجوم، وغلام أبي علي النحوي في النحو»[1].

ومن أهم الشخصيات السياسية والعلمية في هذا العصر شخصية أبو الفضل بن العميد (٣٦٠هـ) وهو فارسي من قم وزر لركن الدولة في الري، وكان له أثر كبير في تربية ولده عضد الدولة، وتعليمه أحسن الطرق لتدبيرم مملكته في العراق وفارس، وكان عضد الدولة يذكر له هذا الفضل ويدعوه بالأستاذ الرئيس[2]، وهو الذي قيل فيه : «بدئت الكتابة بعبد الحميد[3] وختمت بابن العميد» ومنهم الصاحب بن عباد (٣٨٥هـ) الذي خلف ابن العميد في الوزارة بعد ذلك وهو فارسي أيضاً، ولقب بالصاحب لأنه كان يصاحب ابن العميد ثم أطلق عليه هذا اللقب وبقي علماً عليه.

ومن علماء العصر البويهي : الفارابي ٣٣٩[4] والخوارزمي محمد بن العباس ابن أخت الطبري شاعر أديب له اتصال بالصاحب ابن عباد ٣٨٣هـ و(**جماعة اخوان الصفا**) الذين ازدهرت أفكارهم ووضعوا رسائلهم في العصر البويهي، وكانت جمعية إخوان الصفا جمعية سياسية شيعية زيدية مقرها البصرة، ومن أقطابها أبو سليمان محمد المقدسي وأبو حسن الزنجاني وزيد بن رفاعة ولهم رسائل[5] في شتى الفنون.

---

(١) ذيل تجارب الأمم، ج٣، ص ٦٨.

(٢) مسكويه، تجارب الأمم، ج٣، ص ٢٨١ - ٢٨٢.

(٣) عبد الحميد كان كاتباً لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية (ابن خلكان، وفيات، ج٢، ص ١٥٥).

(٤) أبو نصر محمد بن محمد الفارابي ٣٣٩هـ.

(٥) نشر الزركلي رسائل إخوان الصفا في أربعة مجلدات (القاهرة سنة ١٩٢٨). وقد تتلمذ (زيد بن علي زين العابدين) على واصل بن عطاء زعيم المعتزلة وأخذ عنه الأصول، ولذلك صارت الزيدية كلهم معتزلة. ومنهم جماعة إخوان الصفا. [الملل والنحل للشهرستاني، ج١، ص ٣٠].

ويقول عنهم (**أبو حيان التوحيدي**)[1] في كتابه الامتاع والمؤانسة : «كانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة وتصافت بالصداقة واجتمعت على القُدْس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهبًا زَعَمُوا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنته وذلك أنهما قالوا : الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات، ولا سبيل في غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية.

وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال، وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة : عِلْميِّها وعَمَلِّيها، وأفردوا لها فهرسًا، وسموها : رسائل (**إخوان الصفا وخلان الوفا**)، وكتموا أسماءهم وبثوها في الوراقين ولقنوها للناس، وادعوا أنهم ما فعلوا ذلك إلا ابتغاء وجه الله عز وجل وطلب رضوانه ليخلصوا الناس من الآراء الفاسدة التي تضر النفوس والعقائد الخبيثة التي تضر أصحابها، والأفعال المذمومة التي يشقى بها أهلها وحشوا هذه الرسائل بالكلم الدينية والأمثال الشرعية والحروف المحتملة والطرق الوهية».

ثم لخص رأيه فيهم قائلاً : «ورسائلهم فيها خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات، وقد غَرِقَ الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها»[2].

ثم انتهى إلى أن وراء (**جمعية إخوان الصفا**) جماعة تدفعهم لهم مآخذ من هذه الأغراض، ولهم أهداف خفية ومن أقوالهم[3] الساقطة : الفلسفة خاصة والشريعة عامة وهو يعني أن الشريعة يعتقدها العامة والفلسفة يعتقدها الخاصة.

---

(١) ولأبي حيان التوحيدي أيضًا : رسالة السقيفة، وهي تمثل جانب النضال بين السنة والشيعة في عصر بني بويه أنظر : ثلاث رسائل لأبي حيان التوحيدي، نشر المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، تحقيق د. إبراهيم الكيلاني، دمشق سنة ١٩٥١.

(٢) الامتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين، ج٢، ص ٥ - ١٣.

(٣) وهو قول أبي سليمان المقدسي، المصدر السابق، نفس المكان.

وكانت جماعة إخوان الصفا ترى في الحاكم ضرورة شرط العلم، وترى عضد الدولة نموذجًا لذلك وهذا الرأي تأثر به إخوان الصفا من أقوال أفلاطون الذي عرضها في كتابه «المدينة الفاضلة» الذي يقول فيه بأن الدولة يجب أن يحكمها الحكماء وعلى رأسهم يكون حكيم الحكماء أو فيلسوف الفلاسفة.

ولما كانت الدولة البويهية دولة شيعية وكان قسم كبير من (المعتزلة) شيعيًا أيضًا، فقد أفسحت الدولة صدرها للمعتزلة، فأتيح بذلك لأفكار المعتزلة أن تترعرع من جديد فابن العميد سالف الذكر كان من أقطاب المعتزلة وابن عباد أيضًا وابن عباد كان يقرب إليه علماء المعتزلة، وقد عين شيخ المعتزلة في عصره وهو (القاضي عبد الجبار بن أحمد) قاضي قضاة الري وقزوين وسُهْرورد وقم، وأمره باتباع الكتاب والسنة والإجماع والأخذ من آراء الفقهاء وعدم الاستبداد وأن يمضي من الحكم ما يأمن فيه مصارع الظلم، ويأخذ من الظالم للمظلوم(١).

ورسائل الصاحب بن عباد التي سبقت الإشارة إليها تدل على تشيع واعتزال عرفا عن البويهيين، وقد ألف القاضي عبد الجبار كتابًا شرح فيه أصول الاعتزال سماه : «شرح الأصول الخمسة عند المعتزلة» بين فيه أصول المعتزلة بإسهاب، وتوجد منه نسخة مصورة في الإدارة الثقافية في الجامعة العربية بالقاهرة(٢) وقد حققه وقدم له الدكتور عبد الكريم عثمان ونشرته مكتبة وهبة سنة ١٩٦٥م (١٣٨٤هـ) بالقاهرة، وكتب الدكتور أحمد فؤاد الأهواني تصديرًا له وهو أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة.

ومحقق كتاب الأصول الخمسة وهو عبد الكريم عثمان له صلة قوية بالفلسفة الإسلامية والاعتزال لأن الرسالة التي أعدها للحصول على إجازة الدكتوراه تبحث في القاضي عبد الجبار وآرائه الكلامية ومنزلته عند المعتزلة.

---

(١) انظر رسائل الصاحب بن عباد نشر عبد الوهاب عزام وشوقي ضيف.

(٢) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج٢، ص ٤٣ - ٤٥.

والأصول الخمسة عند المعتزلة هي التوحيد والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد جرت بين القاضي عبد الجبار بن أحمد وبين الشريف المرتضى نقيب الطالبيين ببغداد مناقشات أشار إليها ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة الذي وضعه الشريف المرتضى، ابن أبي الحديد من المعتزلة توفي سنة ٦٥٥هـ واسمه عز الدين عبد الحميد بن أبي الحديد، وكتاب : شرح نهج البلاغة صنفه ابن أبي الحديد في عشرين مجلداً وقدمه للوزير العباسي (**مؤيد الدين أبي طالب محمد بن أحمد بن العلقمي**)، وكان يحب العلماء ويقربهم ويجازيهم على أعمالهم، ويذكر ابن طباطبا في الفخري أن الوزير العلقمي أثابه بجائزة على هذا الكتاب[١] وكان العلقمي وزيراً للخليفة المستعصم آخر خلفاء بني العباس وكانت لديه مكتبة اشتملت على عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب، وكان العلماء يصنفون له الكتب ويجازيهم عليها[٢]، وكان الشريف المرتضى شيعياً إمامياً، وكان المعتزلة ومنهم عبد الجبار شيعة زيدية.

وفي هذا العصر كانت هناك جهود كبيرة من علماء أهل السنة لمواجهة آراء الشيعة بشتى طوائفهم وكانت هذه الجهود في مجالين :

المجال الأول : تأصيل علوم أهل السنة والجماعة بالتأليف في المذاهب الأربعة الفقهية لأهل السنة وهي الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي والتوسع في مجال جمع هذا الفقه ومن العلماء الذين برزوا في هذا المجال : الماوردي : وله الحاوي الكبير في فروع الفقه الشافعي يقع في نحو أربعة آلاف ورقة والدبوسي[٣] الحنفي الذي جمع أصول المذهب الحنفي وخدمه في كتاب الأسرار والاسفرايني والباقلاني والخطيب

---

(١) راجع مقدمة شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار، تقديم أحمد فؤاد الأهواني أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة.

(٢) ابن طبا طبا، الفخري، ص ٣٣٧.

(٣) وهو عبيد الله بن عمر بن عيسى الدبوسي (ت ٤٣٠هـ) كان أكبر الفقهاء الحنفية في عصره، وله :
١- كتاب الأسرار. ٢- تأسيس النظر. ٣- التعليقة.

البغدادي : ٤٦٣هـ وإمام الحرمين وأبو القاسم القشيري والقاضي محمد بن الحسين أبو يعلي : (ت٤٥٨هـ) عالم عصره في الفقه الحنبلي من أهل بغداد ارتفعت مكانته عند القادر والقائم، وولاه القائم قضاء دار الخلافة والحريم وحران وحلوان وكان قد امتنع واشترط على الخليفة ألا يحضر أيام المواكب الرسمية ولا يخرج في الاستقبالات ولا يقصد دار السلطان، فقبل القائم شرطه وله تصانيف كثيرة منها :

– الإيمان – مخطوط.

– الأحكام السلطانية – مطبوع.

– الكفاية في أصول الفقه – مخطوط.

– أحكام القرآن.

– عيون المسائل.

– أربع مقدمات في أصول الديانات.

– تبرئة معاوية.

– العدة في أصول الفقه – مخطوط.

– كتاب المجرد فقه على مذهب ابن حنبل.

– وردود على «الأشعرية» و«الكرامية» والسالمية والمجسمة وابن اللبان وغير ذلك، وكان شيخ الحنابلة في عصره(١).

– وله التعليق في مسائل الخلاف لابن حنبل – حققه طالب دكتوراه أخيرًا في قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية نوقشت سنة ١٩٨٨م (١٤٠٨هـ).

---

(١) البغدادي، تاريخ بغداد، ٢٥٦/٢ وشذرات الذهب ٣٠٦/٣ وطبقات الحنابلة ١٩٣/٢ – ٢٣٠ لابن أبي يعلى محمد بن محمد بن الحسين وهو ابن القاضي أبي يعلى. والزركلي، الأعلام.

المجال الثاني : الرد على مفتريات الشيعة وتفنيد أباطيلهم في كتب شتى ومن الذين برزوا في هذا المجال :

١ - الحافظ أبو نعيم الأصفهاني (٤٣٠هـ) وله كتاب الإمامة والرد على الرافضة[١].

٢ - وأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت٤٥٠هـ) وله كتاب قتال أهل البغي. وتسهيل النظر وتعجيل الظفر في سياسة الملك وقواعده.

٣ - عبد القاهر البغدادي (ت٤٢٩هـ) في كتابه الفرق بين الفرق.

والبغدادي تتلمذ على أبي إسحق إبراهيم بن محد الاسفرابيني في الفقه الشافعي، وجلس بعد أستاذه أبي إسحق للإملاء في مسجد عقيل فأملى سنين عدداء، واختلف إليه الأئمة فقرأوا عليه مثل ناصر المروزي وزين الإسلام القشيري[٢].

٤ - وأبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الظاهري (ت٤٥٦هـ) الأندلسي : في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» في خمسة أجزاء وهو أكبر الكتب وأوسعها في هذا المجال ولم يكتف بالرد على طوائف الشيعة وإنما رد على أهل الكتاب والمجوس وغيرهم.

٥ - أبو المظفر الاسفرابيني : وله كتاب التبصير في الدين، وقد حذا فيه حذو عبد القاهر البغدادي صاحب الفرق بين الفرق في تبويبه وتقسيمه فلا يكاد يخالفه. والله أعلم

الدولة السلجوقية (٤٤٧ - ٦٥٦هـ) :

كان العالم الإسلامي قبل ظهور السلاجقة يحتاج إلى حركة إنقاذ مما ألم به من شيوع الفرق الشيعية المتطرفة التي هيمنت في المغرب ومصر والشام والجزيرة العربية في ظل نفوذ الدولة الفاطمية وهيمنت في المشرق

---

(١) حققه د. علي بن ناصر فقيهي رئيس قسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وأمين عام الجامعة الإسلامية (سنة ١٩٨٧).

(٢) وفيات الأعيان، والفوات.

بما فيه العراق في ظل نفوذ البويهيين، فأصبح العالم الإسلامي في النصف الأول من القرن الخامس الهجري بمثابة صرح تقويض بناؤه شرقًا وغربًا، وزادت المنافسة بين الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية في القاهرة، مما أضعف جبهة الدفاع عن العالم الإسلامي على الحدود البيزنطية فتوغل الروم في الحدود الإسلامية، ولم يفعل البويهيون شيئًا في هذا المجال لأنهم انشغلوا بالنزاعات المذهبية في الداخل وكانت الدولة الفاطمية مشغولة بالمؤامرت التي أحدثت في العراق والشام اضطرابات مذهبية عنيفة بين السنة والشيعة، وبالجملة أحدثت انشقاقًا في الجدار الإسلامي فأمكن اختراقه من طرف الصليبيين.

وجاءت حركة الإنقاذ له من وراء حدوده، فمن أقصى المشرق جاءت موجات الأتراك السلاجقة السنيين الذين دحروا البويهيين، وتغلبوا على البيزنطيين في آسيا الصغرى واستوطنوها فحولوها بذلك إلى تركستان جديدة اتخذوها موطنًا ومهجرًا للأتراك بشتى فرقهم ولقد كان للاتحاد المذهبي بين السلاجقة والخلافة العباسية أثره في انتعاش الخلافة العباسية بعض الشيء، مما أتاح للخلفاء أن يكون لهم سلطان أكبر وأتاح للسلاجقة أن يخدموا الخلافة العباسية السنية خدمات تذكر لهم فيشكرون عليها، وذلك في مجال تدعيم نفوذ المذهب السني والوقوف أمام الدولة الفاطمية وأطماعها، وإيقاف دعايتها الباطنية الخطيرة بإنشاء المدارس السنية التي لعبت دورًا هامًا في هذا المجال، مما أنعش الخلافة العباسية، وقوى نفوذ المذهب السني.

ومما هو جدير بالذكر أن أول من أنشأ مدرسة سنية حنفية في بغداد كان هو ألب أرسلان فما كاد يستقر في بغداد حتى أمر ببناء صريح الإمام أبي حنيفة النعمان في بغداد وبناء مدرسة ملحقة به لتدريس الفقه الحنفي، وفتحت هذه المدرسة أبوابها بمحضر كثير من الأكابر في احتفال كبير.

وكان الذي قام بالإشراف على هذه المدرسة العميد شرف الملك أبو

سعد محمد بن منصور الخوارزمي صاحب ديوان الزمام والاستيفاء أيام ألب آرسلان وملكشاه وتوفي سنة ٤٩٤هـ[١].

والسلاجقة مجموعة من القبائل التركية التي عرفت باسم **(الغز)**[٢] كانت تسكن مناطق في أقصى بلاد التركستان، وتجمعت في أعداد غفيرة وبدأت تنزل بالهضاب القريبة من بحر خوارزم والسواحل الشرقية لبحر قزوين والمناطق المحيطة بنهري سيجون وجيجون وقد أطلق على هذه القبائل التركية اسم السلاجقة نسبة إلى رجل منهم تزعم حركتهم هو **(سلجوق بن دقاق)**[٣] وذلك لأنه هو الذي جمع شملها ووحدها تحت زعامته ثم قادها ونزل بها أرض الإسلام في سنة ٣٧٥هـ في بلاد ما وراء نهر سيحون[٤].

وتعاون السلاجقة منذ وصولهم مع الدولة السامانية فاعتنقوا الإسلام على يدها على المذهب السني، وكانوا يجاهدون من وراءهم من الترك الكفار ويساعدون السامانيين في حروبهم مع خانات الترك، وأعطاهم السامانيون منطقة حول مدينة (جند) على نهر سيجون فاتخذوها قاعدة لهم وفيها تأصلت معرفتهم بالإسلام على مذهب أبي حنيفة، ولذلك يقول ياقوت إن أهل جند كلهم أحناف.

حتى إذا ما انهارت الدولة السامانية سنة ٣٨٩هـ ساعدهم ذلك على أن يرثوا أملاكها في تلك المناطق، ولكنهم ورثوا عنها شيئًا هامًا نفعهم في تاريخهم وهو النظام والضبط والربط في مجال الجندية الذي وضع السامانيون له قواعد وأسس سنشير إليها عند الحديث عن الدولة السامانية، وأخذت جموع الأتراك تزداد وتنتشر حول سيحون وجيجون بحيث لم يبدأ القرن الخامس إلا وكانوا على استعداد للهجرة غربًا نحو خراسان .

ويعبور السلاجقة إلى خراسان تبدأ الخطوة الثانية من خطوات الهجرة

---

(١) نظام الملك، سياسة نامة، ص ٣٠.

(٢) كانت هذه القبائل تسمى (الأوغوز) ثم خففت هذه التسمية فصارت «الغز».

(٣) دقاق أو تقاق كلمة تركية معناها «القوس الحديد» ابن الأثير، الكامل، حوادث سنة ٤٣٢هـ.

(٤) عبد النعيم حسنين، سلاجقة إيران والعراق، ص ١٧.

السلجوقية وفي هذه المرحلة اصطدم السلاجقة بالغزنويين الذين سيطروا على خراسان بعد زوال الدولة السامانية وكان (**سلجوق**) قد توفي بمدينة جند وخلفه في قيادة الجند ابنه إسرائيل الذي غدر به محمود الغزنوي سنة ٤١٥هـ قبض عليه وسجنه ومات في السجن سنة ٤٢٢هـ.

وبعد وفاة محمود الغزنوي (٤٢١هـ) استطاعوا التغلب على مسعود بن محمود الغزنوي فاستولوا على كل إقليم خراسان ودخلوا (نيسابور سنة ٤٢٩هـ) وأعلنوا قيام دولتهم فيها بقيادة طغرلبك[١] حفيد سلجوق، ثم وقعت معركة أخرى حاسمة بينهم وبني الغزنويين سنة ٤٣١هـ وهي «معركة داندانقان» انتصر فيها طغرلبك، وعلى أثرها طالبوا الخلافة بالاعتراف بدولتهم واضطر الخليفة إلى إرسال التقليد لهم في عام ٤٣٢هـ وبذلك أخذت الدولة السلجوقية صفتها الشرعية، وفي هذه المرحلة مدوا سلطانهم إلى كل أقاليم إيران فأزالوا عنها الحكم البويهي كما أزالوا عنها سلطان الغزنويين وأخضعوا الزياريين لسلطانهم واستعدوا لدخول العراق.

وعندما فرغ طغرلبك من أعماله في ضم كل أقاليم إيران وأصبحت قواته تعسكر في الجبال والأهواز، والوضع الاستراتيجي في العراق يجعله دائمًا تحت رحمة من يملك الجبال والأهواز وكان الوضع في العراق قد آل إلى ضعف كل من الخلافة والبويهيين كما سلف أن أوضحنا، فتقدم طغرلبك بقواته إلى العراق عن طريق حلوان[٢]، ولم يجد (الملك الرحيم) وهو آخر حكام البويهيين سبيلاً إلى المقاومة بعد أن فارقه قائد جنده البساسيري وراسل الفاطميين.

وأرسل (**طغرلبك**) رسولاً إلى الخليفة يبالغ في إظهار الطاعة له[٣]،

---

(١) طغرل: لفظ تركي وهو اسم علم لطائر معروف عندهم، وبك معناها أمير «ابن خلكان، ج٥، ص٦٨».

(٢) حلوان في شرق دجلة إلى الشمال الشرقي من بغداد، وهناك طريق يصلها بالري يمر عبر الجبل (عراق العجم) على كرمنشاه وهمذان.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٧١.

فأمر الخليفة أن يذكر اسم طغرلبك في الخطبة ثم دخل طغرلبك بغداد، واستقبل أروع استقبال من الخليفة، واعترف به الخليفة سلطانًا على جميع المناطق التي تحت يده، ومع أن الملك الرحيم البويهي قبل أن يكون تابعًا لطغرلبك إلا أن الأخير رفض أن يكون بجانبه أحد ينافسه فقبض عليه وسجنه في الري حتى مات سنة ٤٥٠هـ.

وبدخول طغرلبك بغداد وقبضه على الملك الرحيم[1] أسدل الستار على الدولة البويهية التي سيطرت على الخلافة العباسية وحكمت باسمها ١١٣ سنة، وحلت محلها الدولة السلجوقية التي كانت أكثر عددًا وأعز نفرًا وأبعد مدى وأقوى أهدافًا وهذا ما سنوضحه فيما يلي .

ومن العراق امتد السلاجقة بنفوذهم إلى كثير من بلاد الشام وأصبحوا يعسكرون في منطقة العواصم والثغور في شمال غربي العراق وفي شمال الشام، وامتد نفوذ السلاجقة من بلاد ما وراء النهر إلى سواحل البحر المتوسط وشرقي بلاد الروم فوحدوا بذلك مشرق العالم الإسلامي تحت سلطانهم، وتحفزوا لمنازلة الروم.

موقف البساسيري :

أما القائد التركي الذي كان يهيمن على الأوضاع في العراق وهو (**أبو الحارث أرسلان البساسيري**)، فإنه عندما رأى السلاجقة دخلوا بغداد توجه إلى الموصل وبادر بالاتصال بالخليفة الفاطمي المستنصر بالله وطلب منه أن يمده بالمساعدات لفتح بغداد وطرد السلاجقة منها، فأمده المستنصر بخمسمائة ألف دينار ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك وخمسمائة فرس وعشرة آلاف قوس ومن السيوف ألف ومن الرماح والنشاب شيء كثير، كما يقول أبو المحاسن بن تغري بردي[2].

---

(١) الملك الرحيم واسمه أبو النصر خسرو فيروز، تولى الحكم من سنة ٤٤٠هـ واستمر حتى سنة ٤٤٧هـ، وسجنه السلاجقة بالري حتى مات سنة ٤٥٠ هـ.

(٢) النجوم الزاهرة، ج٥، ص ١١ - ١٢.

وأخذ البساسيري بعد استلام هذا المدد ينتظر الفرصة المناسبة للهجوم على بغداد، وأخيرًا ظفر بها في سنة ٤٥٠هـ عندما خرج طغرلبك لمحاربة أخيه (اينال) إبراهيم اينال في شمال العراق، فدخل البساسيري بغداد واستولى عليها بمعاونة أهل الكرخ وقبض البساسيري[1] على الخليفة القائم وأرغمه على كتابة عهد اعترف فيه بأنه لا حق لبني العباس في الخلافة مع وجود أبناء فاطمة الزهراء، ورفع البساسيري الألوية الفاطمية في بغداد وفي غيرها من المناطق التي سيطر عليها مثل البصرة وواسط وخطب فيها للخليفة الفاطمي.

ولم تدم ثورة البساسيري طويلاً فبعد انتصار طغرلبك على أخيه رجع إلى بغداد وأعاد الخليفة القائم إلى عرشه ثم قاتل البساسيري حتى هزمه وقتله وصلبه وتخلصت الدولة من شروره، وأعاد السلاجقة الوحدة إلى العراق.

ويبدو أن الخلافة الفاطمية لم تكن تملك القدرة الكافية لإمداد البساسيري، ولذلك لم تتحرك لعمل شيء جدي وتركته يلاقي مصيره على يد السلاجقة، وذلك بعد أن استمر يحكم باسم الفاطميين ويخطب باسمهم أكثر من عام، وزادت سلطة السلاجقة وقوى نفوذهم، وأضاف الخليفة إلى ألقاب طغرلبك لقب «ركن الدولة»[2].

---

(١) سجن البساسيري الخليفة في قلعة عانه على الفرات قريبًا من الرقة، وهي بليدة عبارة عن شبه جزيرة بالفرات بها كثير من الكروم وتنسب العرب إليها الخمر، وأهل بغداد إذا نزل بهم ظلم قالوا الخليفة في عانه يعني يشرب الخمر ويعربد بها. انظر : القزويني، ص ٤١٨.

(٢) كان طغرلبك قبل ذلك يضيف إلى اسمه لقب السلطان المعظم، وكان السلاجقة عندما وصلوا إلى خراسان وكانت إدارتهم إيرانية فإنهم أغدقوا عليهم لقب شاهنشاه، وعندما تقدموا نحو الغرب تركوا لقب شاهنشاه، واتخذوا بدله لقب سلطان للبعد عن شبهة الميل إلى إحياء التقاليد الإيرانية قبل الإسلام [أنظر بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد وإبراهيم صبري، ص ١٠٥].

العلاقة بين الخلافة والسلاجقة:

توطدت العلاقات بين (**طغرلبك**) والخليفة العباسي القائم (٤٢٢ - ٤٦٧هـ) ففي سنة ٤٤٨هـ تزوج القائم بابنة أخي طغرلبك (داود بن أمير خراسان وما وراء النهر) وساعدت هذه المصاهرة على التقرب بين العباسيين والسلاجقة.

ومن ناحية أخرى تزوج (**طغرلبك**) ابنة الخليفة القائم سنة ٤٥٤هـ وفي البداية فزع الخليفة من فكرة مصاهرة السلاجقة ولكنه هُدد وخُوف فأرغمته ظروف الضعف والخوف على القبول، وهذه سابقة لم تحدث من قبل، وزفت ابنة الخليفة إلى السلطان العجوز الذي كان قد بلغ السبعين من عمره، ولم ينعم بهذا الزواج طويلاً، فإنه ما لبث أن مرض ومات في رمضان سنة ٤٥٥هـ.

وانتهى بموته دور التأسيس للدولة السلجوقية وعند وفاة طغرلبك لم يكن له ولد يرث ملكه، وكان أخوه داود أمير خراسان وما وراء النهر قد توفي قبله سنة ٤٥١هـ، تاركًا عددًا من الأبناء، وكان طغرلبك قد تزوج بأرملة أخيه ومعها ابن صغير من أخيه يسمى (**سليمان**) فاستطاعت أن تؤثر عليه وتجعل ابنها وليًا للعهد، وبعد وفاة طغرلبك سلمه رجال الدولة السلطة في الري.

لكن كان لداود ابن أكبر منه يسمى (**محمد ألب أرسلان**)[1] وكان قد خلف أباه في حكم خراسان وما وراء النهر، وكانت له همة عالية فلم يقبل أن يكون أخوه الصغير هو السلطان، وكان له وزير قدير هو (**نظام الملك**) فساعده وساعده الجند على تولي السلطة، وبتولي (**ألب أرسلان**) سلطة السلاجقة تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ السلاجقة، ولم يكن للخليفة شيء يذكر في هذا النزاع، وكان عليه في النهاية أن يعطي المتغلب الوضع الشرعي بتعيينه سلطانًا ويذكر اسمه في الخطبة ويكتب اسمه على الطراز

---

(١) ألب أرسلان: مكونة من لفظتين تركيتين: (ألب) معناها شجاع، و(أرسلان) معناها الأسد، فيكون معناها الأسد الشجاع. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص ٧١.

والعملة وما كاد ألب أرسلان يستقر في بغداد حتى أمر ببناء ضريح للإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان في بغداد وبناء مدرسة ملحقة به لتدريس الفقه الحنفي وفتحت هذه المدرسة أبوابها بمحضر كثير من الأكابر في احتفال كبير.

وكان الذي قام بالإشراف على هذه المدرسة العميد شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمي صاحب ديوان الزمام والاستيفاء أيام ألب أرسلان وملكشاه (ت٤٩٤هـ)(١).

وعلى الرغم من أن سلاطين الدولة السلجوقية أتراك فإن دولتهم من ناحية (الإدارة والنظم والثقافة) كانت فارسية، ويرجع السبب في فارسيتها أن قيادتها الفكرية كانت فارسية، وتتمثل في الجهاز الإداري كله، فكان حكامها الفعليون من وزراء الفرس يتقدمهم (**الوزير الكندري**) وزير طغرلبك أول سلاطين السلاجقة، ثم (**نظام الملك**) الحسين بن علي الطوسي وزير كل من **ألب أرسلان** ثم ابنه **ملكشاه**، ولذلك استمر الصراع الخفي بين العربية والفارسية، وباتت العربية مقتصرة على العلوم الدينية وفروعها، وصار غالبية العلماء في هذا العصر يكتبون بالعربية والفارسية حتى أبو حامد الغزالي نفسه (٥٠٥هـ).

وظهر إلى الوجود عدد من المؤلفات في السياسة كتبت كلها بالفارسية، نذكر منها : «چهار مقاله» للنظامي العروض و«التبر المسبوك في نصيحة الملوك» للغزالي و«سياسة نامة» المنسوب لنظام الملك(٢) والله أعلم.

الدور الذي أداه السلاجقة في التاريخ الإسلامي :

والذي يهمنا في فترة تاريخ السلاجقة بصرف النظر عن الإطالة في سرد الأحداث هو أن نلقي الضوء على الدور الذي لعبه السلاجقة لخدمة

---

(١) نظام الملك، سياسة نامة، ص ٣٠.

(٢) سهيل ذكار، تقديم لكتاب : العالم الإسلامي في العصر المغولي تأليف بارتولد، ترجمة خالد أسعد عيسى.

الأول : دورهم في مجال إحياء الجهاد الإسلامي في الجبهة الرومية، وانتصارهم على الروم انتصارًا حاسمًا في «موقعة منزكرت سنة ٤٦٣هـ»، وإزاحتهم للحدود الرومية وتحويلهم منطقة آسيا الصغرى إلى تركستان جديدة وتمهيدهم بذلك السبيل للأتراك العثمانيين فيما بعد.

الثاني : دورهم في مجال محاصرة الأفكار والدعاية الشيعية في المشرق وإنشائهم للمدارس السنية النظامية التي كانت عبارة عن مراكز ثقافية لنشر مذاهب أهل السنة والجماعة وإشاعتها بين الناس لمقاومة النشاط الشيعي الذي كان قد انتشر بشكل ساحق في المشرق والعراق قبل قدومهم حتى وصل إلى السيطرة على عاصمة الدولة العباسية في بغداد.

أما فيما يتعلق بدورهم في مجال الجهاد الإسلامي في الجبهة الرومية، فإن هذه الجبهة ظلت جامدة ثابتة ولم يحقق المسلمون فيها تقدمًا منذ العصر الأموي، وعلى العكس من ذلك فإن الروم قد حققوا بعض الانتصارات في أواخر العصر البويهي، وعندما أتى السلاجقة وجهوا همهم إلى الجهاد في هذه الجبهة، وقام ألب أرسلان بعد أن انتهى من بعض المشاكل الداخلية التي أعقبت وفاة عمه طغرلبك، وكان **(ألب أرسلان)** قائدًا ماهرًا فأحيا الروح الجهادية الإسلامية من جديد، وكانت قد اختفت بسبب الصراعات الداخلية في العالم الإسلامي بين السنة والشيعة، فحمل لواء الجهاد ضد الروم والشيعة على السواء.

وكان لألب أرسلان وزير نابه هو **(نظام الملك)** الطوسي أبو علي **(الحسن بن علي بن إسحق الطوسي)** كان سياسيًا محنكًا بعيد النظر، فرسم خطة العمل على الأساس العسكري والسياسي معًا، وذلك بتدعيم سيطرة السلاجقة على العالم الإسلامي بالاتجاه إلى التوسع في البلاد المعادية للإسلام المتربصة بأهله والذين أغراهم ضعف الدولة بالتوغل في الديار الإسلامية وكانت هذه البلاد المعادية هي الأقاليم المسيحية الخاضعة للروم والمجاورة لإيران والعراق والشام كبلاد الأرمن وبلاد آسيا الصغرى، ورأى

نظام الملك أن هذا النشاط القتالي في هذه الجبهة مما يطبع أعمال السلاجقة بطابع الجهاد، فيكسبهم هذا عطف العالم الإسلامي ورضاه، وبهذا يستقر حكم السلاجقة.

ومن أجل التفرغ لهذا العمل النبيل عمل نظام الملك على إقامة علاقات طيبة مع الغزنويين والأتراك الخانيين فيما وراء النهر، حتى لا يترك ظهر السلاجقة معرضًا لطعنة تأتي من الخلف في أثناء تحركه غربًا، ورأى الوزير نظام الملك أن السياسة أنفع في معاملة هاتين الدولتين، وخير وسيلة لذلك هو ربطهما برباط المصاهرة مع البيت السلجوقي، فزوج السلطان ابنه ملكشاه بابنة خاقان ملك ما وراء النهر، وزوج إبنةُ أرسلان شاه بابنة صاحب غُزنة، وبذلك ارتبطت الدول الثلاث برباط المصاهرة(١).

وتفرغ ألب أرسلان إلى تحقيق هدفه الأكبر، فبدأ يفتح البلاد المسيحية الواقعة بين بحيرتي **(وان)** و**(أرمية)** كما فتح بلاد چورچيا وبلاد الأرمن، وعندما سقطت عاصمة الأرمن **(آن أو آني)** وبها أهم حصن للدولة البيزنطية انفتح المجال أمام القوات السلجوقية لتكيل الضربات السريعة للروم في الولايات الأناضولية، وتتوسع في آسيا الصغرى(٢).

موقعة ملاذ كرد سنة ٤٦٣ هـ :

في الكتب الأجنبية منزكرت Mansikert وتقع على الحدود الأرمنية بالقرب من مدينة خلاط على الفرات الأعلى الشرقي على مقربة من بحيرة وان وقعت فيها موقعة حاسمة بين المسلمين والروم سنة ٤٦٣هـ في جنوب النهر، و**(ملازكرد)** هي بلد أبي علي القالي صاحب الأمالي الذي دخل بغداد مع أهالي قالي قلا فنسب إليهم ومات بقرطبة بعد أن أملى بها أماليه (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ترجمة : إسماعيل بن القاسم القالي).

ومن ناحية أخرى أراد ألب أرسلان قبل أن يبدأ معركة ملازكرد أن

(١) ابن الأثير، جـ٨، ص ٩٨ وحسن محمود وزميله، ص ٥٨٦.

(٢) ابن الأثير، جـ٨، ص ٩٨، ٩٩ حوادث ٤٥٦هـ وحسن محمود، ص ٥٨٦.

يؤمن حدود دولته في الشام ضد الفاطميين، فأرسل جيشًا بقيادة ابنه ملكشاه لفتح بلاد الشام، فاستولى ملكشاه على حلب سنة ٤٦٣هـ وبيت المقدس وما جاورها وحاصر دمشق، وكانت هذه التحركات تهدف إلى ضرب القوى الشيعية في تلك البلاد قبل التوجه إلى الشمال الغربي في آسيا الصغرى.

فأغضبت هذه الفتوحات امبراطور الروم (**رومانوس**) فقام بحركة مضادة، وجمع جيشًا جرارًا يضم أخلاطًا من الشعوب المسيحية من الروم والفرنسيين والبلغار واليونان والروس بلغوا نحو ١٥٠ ألف وقيل ٢٠٠ ألف[١] وتقدم بهم شرقًا حتى (**ملازكرد**)، من أعمال أرمينية على الفرات الأعلى الشرقي، ويبدو أنه كان يريد اختراق ثغور المسلمين من ناحية الجزيرة والتوغل في الأراضي الإيرانية، ففطن ألب أرسلان إلى ذلك وكان في مدينة خُوى من أعمال أذربيجان فتقدم في ١٥ ألف فارس فقط لوقف زحف العدو، وانتصر على بعض القوات من الروس في مقدمة جيش الروم لكنه لما أطل على جموع الروم من مكان عال انزعج من كثرة هذه الجموع وطلب من امبراطور الروم هدنة فرفض وقال له : لا هدنة إلا (**بالري**)، معنى ذلك أنه مصمم على اجتياح منطقة الجبال الإيرانية ولا تفاهم ولا هدنة إلا في الري عاصمة الجبال أو العراق العجمي وعاصمة السلاجقة.

فاستشار ألب أرسلان وزيره (**نظام الملك**)[٢] في هذا الأمر الخطير وقال له : ماذا ترى؟ فقال نظام الملك : ليس النصر من الكثرة إنما النصر من عند الله، نحن نتوكل على الله ونلاقيه يوم الجمعة وقت تقول الخطباء على المنابر اللهم انصر جيوش المسلمين».

كما استشار إمامه وفقيهه (**أبو النصر محمد بن عبد الملك البخاري**) الحنفي، فقال له الفقيه :

«إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره، وإظهاره على سائر الأديان،

(١) ابن الأثير، ج٨، ص ١٠٩، وابن خلدون، ج٣، ص ٥٨٢.

(٢) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٤١٢.

وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي يكون الخطباء على المنابر فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر والدعاء مقرون بالإجابة»(١).

فالهبت هذه الكلمات حماسه الديني، فأعلن في جنوده أن الإسلام في خطر، فلما كان وقت الزوال صلى بجنوده كما كان يفعل الفاتحون الأوائل ودعا ودعوا معه، ولبس البياض وقال إن قتلت فهذا كفني، وزحف إلى الروم فلما قاربهم ترجل وعفر وجهه بالتراب خضوعًا لله واستمطارًا لنصره وبذلك صبغ عمله بصبغة الجهاد وبكى وأكثر الدعاء ثم ركب، واندفع نحو العدو، وحملت العساكر معه حملة رجل واحد، وحجز الغبار بينهم وبين العدو، فقتل المسلمون فيهم كيف شاءوا، وأنزل الله نصره عليهم فغلبت الروم، وقتل منهم ما لا يحصى حى امتلأت الأرض بجثث القتلى، ووقع امبراطور الروم في الأسر وحمل إلى السلطان في ذلة، ولكن ألب أرسلان عامله بكرم، وقبل منه أن يفتدي نفسه(٢) بعد أن عقد معه معاهدة مدتها خمسون عامًا، وتعهد بدفع الجزية للمسلمين، وأن يطلق له كل أسير من المسلمين في بلاد الشام.

وإذا قارنا بين هذه المعركة وغيرها من المعارك في الحروب الحديثة، فإننا نقول : إنه يُفضَّل في الحروب عادة أن تبدأ عند أول ضوء من الصباح ويحاول المحاربون أن يستدبروا الشمس أو يكون الهجوم في آخر ضوء لكي تكون المداهمة ليلاً لإرباك العدو.

لكن هذا الهجوم لم يرتبط بهذا التكتيك وإنما ارتبط بمعنىً إسلامي كبير وهو الهجوم على العدو ساعة إجابة وقت الزوال بصرف النظر عن الوضع الأمثل للجنود وقت الزوال، وهذا الموقف يذكرنا بما كان يحدث في الفتوح الإسلامية في اعتماد المجاهدين على المدد من الله لا من البشر ، ومقاتلة الأعداد الكثيرة بالعدد القليل المؤمن ، فإن القلة المؤمنة خير وأقوى من

---

(١) ابن الأثير، ج٨، ص ١٠٩.

(٢) اتفق على أن يكون الفدية «ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار» غير أنه حدث انقلاب على أرمانوس، فلم يقدر على إرسال المبلغ وأرسل مائتي ألف دينار وطبقًا من الذهب عليه جواهر بتسعين ألف دينار، وحلف للسلطان أن لا يقدر على غير ذلك، فقبل منه، ابن الأثير، ج٨ ص ١١٠.

الكثرة غير المؤمنة.

وهكذا تبرز أهمية العامل الإيماني في الدفاع عن الإسلام، فقد ظهرت أهميته في تعبئة الجنود وإعلان الجهاد، والاعتماد على الله الذي ينصر المؤمنين، وبهذا نرى أنه لم يحدث في تاريخ الأمة الإسلامية من عصر الفتوح إلى الآن أن انخذلت أمتنا في معركة كانت العقيدة لواءها والإيمان ذخيرتها وإرادة الجهاد سلاحها، وهذا هو التفسير الحقيقي لتاريخنا، سواء قاد مسيرتنا العرب أو الأتراك أو الفرس أو المغاربة أو السودان أو غيرهم، فإن الله وعد من يقاتل في سبيل الله النصر، كما أدرك هذه الحقيقة فقيه ألب أرسلان.

وكانت (**موقعة ملازكرد**) نقطة تحول في التاريخ الإسلامي بصفة عامة وتاريخ آسيا الصغرى بصفة خاصة، فأما في التاريخ الإسلامي فإن السلاجقة قد واصلوا كفاح العرب ضد الروم واستطاعوا بهذا النصر إحياء الجهاد الإسلامي في هذه المنطقة، وأن يزيلوا الروم كعدو ظل يصارعهم منذ صدر الإسلام في هذه الأماكن الهامة، كما كان هذا الانتصار من أهم الأسباب التي أدت إلى قيام الحروب الصليبية سنة ٤٩٠هـ لأنه أثار المخاوف الأوربية من اجتياح المسلمين المرتقب لأوربا، فأرادوا الهجوم على المشرق الإسلامي لأن الهجوم خير وسيلة للدفاع.

وأما من ناحية تاريخ آسيا الصغرى فإن هذا النصر ساعد ويسر في عملية القضاء على النفوذ الرومي في أكثر أجزاء آسيا الصغرى مما ساعد في القضاء على الدولة البيزنطية نفسها بعد ذلك على أيدي الأتراك العثمانيين، وبذلك شمل الإسلام كل منطقة غربي آسيا بل قفز منها على التقدم العثماني إلى شرق أوربا.

وهكذا نجحت العناصر التركية المهاجرة المجاهدة في إيجاد مجال حيوي لها في آسيا الصغرى بعد أن تغلبت على الروم تماماً إلا في القليل وكونوا من أراضيها ما يمكن أن تطلق عليه تركستان جديدة، وظلت هذه الأرض تستقبل جموع الأتراك الزاحفة أمام الزحف المغولي المدمر بعد ذلك

إلى أن نجحت بعض العناصر التركية المهاجرة من تكوين دولة تركية فتية جديدة في أواخر القرن السابع الهجري سنة ٦٩٩هـ، وهم الأتراك العثمانيون الذين ورثوا كلا من السلاجقة والبيزنطيين، وكان لهم دور بارز في التاريخ الإسلامي، هو بلا شك أعلى الأدوار التي لعبها الأترك في التاريخ الإسلامي ليس هنا مجال الحديث عنه.

دور السلاجقة في محاصرة الأفكار الشيعية:

نجحت العناصر الشيعية في تمزيق دولة الخلافة العباسية حتى وصلت إلى أقصى درجة من الضعف في العصر البويهي وأصبح للشيعة نفوذ كبير في كل مكان، ففرقة القراطمة الإسماعيلية استطاعت أن تؤسس إمارة في البحرين (٢٨٧هـ) وتمكنوا من بسط سلطانهم على كثير من مدن الشام والعراق والبحرين وعمان، كما استولوا على مكة وعاثوا في الأرض فساداً، وتمكنوا من إقناع بعض القبائل العربية من الوقوف معهم.

كما استطاعت طائفة أخرى من الإسماعيلية أن تصل إلى شمال أفريقيا، وأن تنجح في سنة ٢٩٦هـ في إقامة الدولة الفاطمية التي امتد سلطانها إلى شمال أفريقيا كله وأخذت مصر ٣٥٨هـ والشام، وبلغ نفوذها بغداد نفسها وأصبح لها نفوذ بالحجاز واليمن.

أما في المشرق فقد كانت الدولة الطبرية الزيدية التي امتد تأثيرها حتى نهاية الدولة البويهية التي كانت ثمرة من ثمارها، وامتد نفوذ الإسماعيلية إلى منطقة طبرستان وجبال الديلم وبنوا لهم حصونًا منيعة في أعالي الجبال أهمها (قلعة الموت)، وكانت هذه القلعة مقرًا لزعيم الإسماعيلية في هذ المنطقة والذين عرفوا بالحشاشين وهو الحسن الصباح(١) الذي ربى أتباعه على الفدائية واستطاع تكوين معاقل لهم في الجبال، واتخذوا طريقة اغتيال

---

(١) نشأ الحسن الصباح في بلاط ملكشاه مع نظام الملك فلما اعتنق تعاليم الإسماعيلية أقصاه نظام الملك من البلاط السلجوقي فذهب إلى الفاطميين بالقاهرة سنة ٤٧١هـ وعاد ٤٧٣هـ إلى إيران وبدأ يتخذ لنفسه مذهبًا هو المذهب النزاري واعتصم بقلعة الموت واستولى على قلاع الزيدية بمنطقة طبرستان والديلم، وبدأ في اغتيال معارضيه.

أعدائهم من القواد والأمراء والسلاطين والوزراء وسيلة لإزالة كل معترضيهم، الأمر الذي أثار قلقًا شديدًا في كل أنحاء الدولة السلجوقية فعاش الناس في خوف واضطراب يتوجسون خيفة من هؤلاء القتلة السفاحين.

ولم يستطع أهل السنة الوقوف أمام هذه الحركات الشيعية إلا عندما أدرك الوزير النابه نظام الملك (ت٤٨٥هـ) أن محاربة الشيعة لا ينبغي أن تكون في قهرهم عسكريًا وسياسيًا فحسب، بل وفي قهرهم ثقافيًا وفكريًا، ولم تكن هذه المعركة الثقافية والفكرية سهلة، فقد بذل فيها نظام الملك كل غالٍ وكل جهد حتى استطاع أن يتوصل إلى أغراضه.

رأى نظام الملك أن النشاط العلمي لهؤلاء القوم يجب أن يواجه بنشاط علمي مماثل، وأن الدعاية الشيعية يجب أن تقاوم بدعاية مثلها، ولذلك أخذ يفكر جديًا في إنشاء مراكز ثقافية تقف أمام ذلك النشاط، ورأى ضرورة إيجاد معاهد علمية منظمة تخرج علماء يستطيعون الوقوف أمام الدعوة الشيعية، وكانت تلك المعاهد تحمل اسم نظام الملك، وكانت تعني بدراسة الفقه على مذاهب أهل السنة والجماعة وخاصة الحنفي والشافعي.

وأول مدرسة بناها نظام الملك من هذا النوع كانت في نيسابور، لأنه كان وزيرًا لألب أرسلان في نيسابور قبل أن يتولى أرسلان السلطنة بعد طغرلبك سنة ٤٥٥هـ.

وقد اختار نظام الملك للتدريس في هذه المدرسة عند افتتاحها عالمًا كبيرًا من علماء الشافعية وهو **(أبو المعالي عبد الملك بن محمد الجويني)** المشهور (بإمام الحرمين)، الذي كان على جانب كبير من غزارة العلم وفصاحة اللسان وجودة الذهن، ويذكر المؤرخون أنه كان بحلقته في هذه المدرسة ثلاثمائة فقيه من الفحول بلغوا مبلغ التدريس[1] كأبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ) الذي تولى فيما بعد التدريس في نظامية بغداد سنة ٤٨٤هـ وهو **(محمد بن محمد بن محمد الغزالي)**.

---

(١) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٣٥٢ – ٣٥٣.

وما كاد ألب أرسلان يدخل بغداد سنة ٤٥٥هـ ويستقر بها بعد توليه السلطنة حتى أمر ببناء ضريح للإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان في بغداد وبناء مدرسة ملحقة به لتدرس الفقه الحنفي، وفتحت هذه المدرسة أبوابها بمحضر كثير من الأكابر في احتفال كبير، وكان الذي قام بالإشراف على هذه المدرسة العميد شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمي صاحب ديوان الزمام والاستيفاء أيام ألب أرسلان وملكشاه (ت٤٩٤هـ)[(١)].

وتعد (المدارس النظامية) أول نوع ظهر في الإسلام من المؤسسات العلمية السنية بمعناها الصحيح، فقد هيأت الدولة لطلابها أسباب العيش، وكان طلابها يتناولون الطعام فيها وتجري عليهم رواتب سنوية، وأصبحت المدارس النظامية مثالاً لما قام بعدها من نور العلم ومراكز الثقافة العالمية.

وقد نجحت هذه المدارس في التصدي للتيارات الشيعية وخرجت أفواجًا من الأساتذة كانت لهم السيادة في مجال الدراسات الفقهية السنية، ولا يتسع بنا المقام للإشارة إلى جهودهم، وكان (لأبي حامد الغزالي) منهج خاصة به لتربية النشئ في هذه المدارس ويتعلق هذا المنهج بتحريك أو بضرورة تحريك الشعور الأخلاقي في طلبة العلم أوضحه في كتابه إحياء علوم الدين عند حديثه عن ضرورة تربية وتصفية القلوب والضمير العلمي مع تربية العقل وضرورة تهذب النفس.

وقد ورث الأتابكة عن السلاجقة العناية بتأسيس (**المدارس السنية**) فانتشرت في عهدهم إلى غرب العالم الإسلامي وتولى (**نور الدين محمود**) ابن عماد الدين زنكي أمير الموصل وحلب حركة تشييد المدارس السنية، ففي عهده انتشرت في الشام والجزيرة ومصر، ويلاحظ أن عماد الدين زنكي والد نور الدين محمود هو مؤسس دولة الأتابكة بالموصل وحلب وكان ابن مملوك من مماليك ملكشاه السلجوقي بخراسان يسمى (أقسنقر) وحكم عماد الدين من٥٢١ - ٥٦٩هـ في حين كان والده بالموصل.

---
(١) نظام الملك، سياسة نامة، ص ٣٠ هامش (١).

وورث (**صلاح الدين الأيوبي**) عن (**نور الدين محمود**) نظام تأسيس المدارس لنشر المذهب السني، فعندما قدم إلى مصر من طرف (**نور الدين**) وتقلد الوزارة(١) على عهد العاضد آخر خلفاء الفاطميين وجه اهتمامه إلى القضاء على المذهب الشيعي الإسماعيلي في مصر بنفس الطريقة التي اتخذها نظام الملك السلجوقي في المشرق، وهي إنشاء المدارس التي تعنى بتدريس فقه أهل السنة والجماعة فأنشأ في عهد العاضد (**المدرسة الناصرية**) سنة ٥٦٦هـ بجوار جامع عمرو بن العاص بالفسطاط لتدريس قواعد المذهب الشافعي الذي كان صلاح الدين يدين بقواعده، كما أنشأ على مقربة من هذه المدرسة في نفس السنة مدرسة أخرى لتدريس الفقه المالكي عرفت باسم (**المدرسة القمحية**)(٢).

ثم عزل صلاح الدين قضاة الشيعة وأسند وظيفة قاضي القضاة في مصر إلى صدر الدين (**عبد الملك بن درباس**) الشافعي، وعند وفاة العاضد سنة ٥٦٧هـ وانتقال السلطنة إلى صلاح الدين توسع في تشييد المدارس فبنى مدرسة لفقهاء الحنفية أطلق عليها اسم (**المدرسة السيوفية**).

وامتد نشاط (**المدارس السنية**) بعد صلاح الدين إلى أبنائه وأمرائه من بعده حتى بلغ عددها حوالي سنة ٦٠٠هـ في القاهرة وحدها ١٣مدرسة، وقد تحدث عن هذه المدارس (**ابن جبير**) الذي زار القاهرة في عهد صلاح الدين(٣).

---

(١) صلاح الدين يوسف بن أيوب من أصل كردي من مدينة دبيل بجنوب روان التحق والده أيوب وعمه شيركوه بخدمة (نور الدين محمود) وكان شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يبعثان من قبل نور الدين إلى مصر لقمع الثورات بها ثم عين العاضد شيركوه وزيراً له مكافأة له على خدماته فتوفي فجأة سنة ٥٦٤هـ فتولى صلاح الدين الوزارة بدله، وكان وضعه مع خليفة القاهرة مثل سلطان السلاجقة مع خليفة بغداد، وعقب وفاة (العاضد) أمر صلاح الدين بالخطبة للخليفة العباسي في هدوء تام.

(٢) عبد الرحمن زكي، القاهرة، ص ٧١ وانظر : المقريزي، الخطط.

(٣) توفي صلاح الدين في دمشق سنة ٥٨٩ هـ .

وهكذا تم توحيد المشرق كله مذهبيًا، وكان هذا بفضل التخطيط الذي وضعه نظام الملك في مجال بناء المدارس في عهد السلطان ألب أرسلان السلجوقي.

ضعف الدولة السلجوقية:

بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ واغتيال نظام الملك على أيدي الباطنية قبله بقليل في نفس السنة بدأت حرب أهلية بين أفراد البيت السلجوقي، وأعطت هذه الحرب الفرصة لتنفس الإسماعيلية في إيران والشام وللصليبيين في الشام وكانت بلاد الشام محل نزاع بين الفاطميين والسلاجقة فكانت منطقة ضعيفة فاستولى (الغزو الصليبي) على مواقع مهمة من بلاد الشام في أنطاكية سنة ٤٩١هـ والرها سنة ٤٩٢هـ وبيت المقدس ٤٩٢هـ وكونوا بها إمارات صليبية استمرت نحو قرنين من الزمان.

كل هذا والسلاجقة مشغولون بحروبهم مع بعضهم فتحولوا من التمسك إلى الفرقة ومن الجهاد إلى الصراع الداخلي الذي شاهدناه في العصر البويهي، وبهذا خرجت الدولة السلجوقية من دور القوة إلى دور الضعف ودخلت في عصر الانقسام الذي تجرأ فيه أعداء الإسلام على ثغور الشام، وبذلك يعلمنا التاريخ أن الحروب الداخلية الأهلية في داخل العالم الإسلامي كانت وبالاً على العالم الإسلامي وهو مؤشر لأعداء الإسلام للهجوم عليه.

خلفاء السلاجقة في المشرق:

الأتابكة :

عندما تفرق شمل السلاجقة قامت على أثرهم دول تركية أخرى تعرف **(بدول الأتابكة)** وهي بيوت تنسب إلى السلاجقة، فقد كان رؤساؤها من قواد السلاجقة الذين يربون أبناء سلاطين السلاجقة لذلك كان الواحد منهم يعرف بالأتابك أي مربي الأمير وانتشرت دول الأتابكة في المشرق والمغرب وعلى يد أحد أعقابهم وهو **(نور الدين محمود)** سقطت الدولة الفاطمية في مصر، وعادت مصر إلى أحضان أهل السنة والجماعة، وقامت على أثر

ذلك دولة صلاح الدين يوسف بن أيوب أحد قواد نور الدين محمود، وهو الذي تولى الانقلاب السني في مصر والشام كما سبق أن ذكرنا وهزم الصليبيين في الشام.

خوارزم شاه : أما في أقصى المشرق فقد قامت (**دولة خوارزم شاه**) وعظمت حتى كادت تصل إلى بغداد وذلك في أواخر القرن السادس[(١)]، وعلى الرغم من قيام هذه الدولة وقوتها إلا أنها لم تستطع أن تسد مسد السلاجقة في صد العناصر الشرقية التركية والمغولية، ولم يلبث ذلك السد العظيم أن انفتح مغلقه وتحركت الأمم التركية والمغولية، كأنها السيل الآتي لا يرده عن مقصده شيء يقودهم (**چنكيز خان**) موحد التتار والمغول وأزاحوا من أمامهم كل من يعارضهم أو يقف في سبيلهم، وذلك في أوائل القرن السابع الهجري، ولم يلبث چنكيز خان حتى قسم المعمورة بين أبنائه الأربعة (**جوجي وجغطاي وتولى وأوكداي**)من سواحل الصين في أقصى المشرق إلى سواحل بحر الروم في أقصى المغرب.

والمغول شعب كبير من الأمة الطورانية ومنه تتفرق معظم بطونها وأفخاذها واسم التتر مرادف للترك عند الأوربيين حتى أنهم يعدون قبائل الترك كافة تترا، ومنهم العثمانيون والتركمان وغيرهم[(٢)] ومؤرخو الترك ونسابوهم يقولون إن (**تتار خان**) و(**مغل خان**)مثل ربيعة ومضر في الأمة العربية العدنانية وعلى ذلك فإن مغل وتتار من أصل الأتراك ولا فرق بين مغل وتتار لأن الكل أتراك[(٣)].

ويذكر (**ابن خلدون**) في كتابه العبر في أول ذكر له للمغول في الجزء الثالث من كتابه، ما ملخصه :

«ظهرت هذه الأمة من أجناس الترك سنة ست عشرة وستمائة، وكان

(١)محمد الخضري، تاريخ التشريع الإسلامي، ص ٢٣٤.

(١)محمد الخضري، الدولة العباسية، ص ٤٦٧.

(٢) ألنجه خان أحد ملوك الترك في الأزمنة القديمة ولد له ولدان توأمان (مغل خان و(تتار خان) وقد كان بين أبنائهما حروب طويلة انتصر فيها المغول في النهاية ووحدوا الشعبين على يد چنكيز خان المغولي.

ملكهم يسمى (**چنكيز خان**) سار إلى بلاد تركستان وما وراء النهر وملكها من أيدي ملوك الأتراك الخطا، ثم حارب خوارزمشاه إلى أن غلبه على ما في يده من خراسان وبلاد الجبل وبلاد غزنة وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان فملكوا ذلك كله في سنة أو نحوها، وفعلوا من العبث والقتل والنهب ما لم يسمع بمثله في غابر الزمان، وهزموا خوارزم شاها علاء الدين محمد فلحق بجزيرة في بحر قزوين فامتنع بها إلى أن مات سنة ٦١٧هـ بعد حكم دام ٢١ سنة في مملكته، ثم هزموا ابنه جلال الدين بغزنة[١].

أما بالنسبة للخلافة العباسية فإنه قد اعتلى سدة الخلافة في هذه الفترة خليفة طموح هو الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ) وقطعت الخلافة شوطًا لا بأس به بعد قضائها على مناوأة الفاطميين في الاستقلال بالعراق وخوزستان، وحاولوا الارتكاز في حركتهم إلى سلطتهم الدينية، وقامت في المشرق دولة خوارزم شاه كما ذكرنا وهم من الأتراك ولكن مما يؤسف له قام صراع رهيب بينهم وبين الخلافة مما أضعف الطرفين، ويذكر بعض المؤرخين أن الخليفة الناصر هو الذي اتصل بالمغول وحرضهم على الهجوم على دولة خوارزمشاه من المؤخرة[٢] وإذا صح هذا فيكون الخليفة هو الذي جلب على المسلمين أعظم كارثة حلت بالمسلمين في التاريخ.

وهناك رواية أخرى معاكسة تقول إن سوء معاملة خوارزم شاه للتجار المغول الذين أرسلهم چنكيز خان للتجسس والذين قتلهم خوارزم شاه كان السبب في اجتياح دولته من المغول بالإضافة إلى الغدر بسفراء المغول، وبعد ذلك توجه المغول في عهد هولاكو إلى العراق.

اقتحام المغول بغداد :

واقتحم المغول بغداد بقيادة هولاكو في وحشية مدمرة متعطشة للدم واسقطوا الخلافة العباسية وداسوا التراث الإسلامي بأقدامهم وقتلوا آخر خليفة

---

(١) العبر، ج٣، ص ٦٥٩ - ٦٦٠.

(٢) بارتولد، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد أسعد عيسى، ص ٣٠.

عباسي في بغداد وهو (**المستعصم**) أبو أحمد عبد الله بن المستنصر (٦٤٠ - ٦٥٦هـ).

واحتل المغول سوريا وزحفوا على مصر لكن الأمة الإسلامية بقدرتها الخلافة على الحياة أوقفت المد المغولي عام ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) على يد المماليك في مصر بقيادة سيف الدين قطز في معركة (عين جالوت) قرب الناصرة بفلسطين، وتمكن المماليك بذلك من إيقاف الزحف المغولي وأنقذوا ما تبقى من الحضارة الإسلامية في مصر والمغرب من عبث المغول.

صمود الإسلام:

كانت غارات المغول أفظع كارثة حلت بالعالم الإسلامي بل بالإنسانية كما قرر تلك الحقيقة المؤرخ عز الدين بن الأثير في لهجة باكية مؤثرة في معرض كتابته عن تلك الأحداث ٦١٧هـ (١٢٣٠م) فيقول :

«لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فياليت أمي لم تلدني وياليتني مت قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً، إلا أنني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً، فنقول : إن هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل : إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها وما يدانيها»[1]. مع أنه لم يشاهد سقوط بغداد ومات قبلها.

ثم يستشهد بقول المولى عز وجل حين يقول : ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من واق﴾.

ولكن لم يكن بد من أن ينهض المسلمون من كبوتهم معتمدين على تعاليم دينهم الراقي، فاستطاع دعاتهم أن يجذبوا هؤلاء الفاتحين

(١) عز الدين بن الأثير، ج٩، ص ٣٢٩ حوادث سنة ٦١٧هـ.

المتبربرين إلى اعتناق الإسلام، ويرجع الفضل في ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين الذين لاقوا من الصعاب والعنت الشيء الكثير، وتوماس أرنولد صاحب كتاب «**الدعوة إلى الإسلام**» يقول :

«ليس هناك في تاريخ العالم نظير لذلك المشهد القريب وتلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام كل ديانة تنافس الأخرى لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين في جميع الأقطار والأقاليم»[1].

وكانت لدى المغول ديانة وثنية قديمة هي الشامانية، كانوا يعبدون طائفة من الآلهة المنحطة وبخاصة تلك الآلهة الشريرة التي كانوا على رغم اعترافهم بإله عظيم قادر لا يؤدون له الصلوات. وإنما يتقدمون إلى آلهتهم الشريرة بالقرابين والضحايا لما كانوا يعتقدون فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التي كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم، ولكي يوفق المغول بين هذه القوى السماوية والعالم السفلي كانوا يلجأون إلى رجال الدين الشامان والسحرة أو إلى رجال الطب الذين كانوا يعتبرونهم ذوي نفوذ خفي وسلطان غريب على عناصر الموتى وأرواحهم، ولم يكن دينهم يستطيع مقاومة الإسلام الذي يملك قوة الإقناع على يد دعاته.

ومن ثم تأثر المغول بالإسلام وإذا كان المغول قد غلبوا العالم الإسامي عسكريًا فإن المسلمين غلبوهم عقائديًا وثقافيًا وتلقف المغول الإسلام وخدموه بعدما أذلوه لكن هذا أخذ وقتًا، وجهدًا من دعاة المسلمين.

وتنافس أتباع الديانات السالفة لتحويل المغول إلى دينهم ولما هدأت ثائرة المغول الذين كانوا يدينون بالشامانية وتركوا التخريب والتدمير اللذين امتازت بهما غزواتهم ظهروا بمظهر التسامح مع أهالي الديانات الأخرى

(١) الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٥٠.

فأعفوا قسيسيها ودعاتها من الضرائب كما منحوهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية.

وكان السبق في البداية للمسيحية بسبب أن (**جنكيز خان**) تزوج من إحدى بنات رئيس قبيلة مسيحية كانت تعيش جنوبي بحيرة بيكال، على حين تزوج ابنه «أقطاي» من نفس هذه الأسرة وكانت القوى المسيحية في الشرق والغرب تتطلع إلى المغول لمساعدتهما في حروبهما الصليبية مع المسلمين وكان ملك أرمينيا (**هيتون** Hayton) المسيحي هو العامل الرئيسي في إقناع المغول بإرسال الحملة التي دمرت بغداد بقيادة هولاكو (٦٥٦هـ - ١٢٦٥م) ومن ثم اعتنق كثير من المغول الذين احتلوا بلاد أرمينية وجورجيا الدين المسيحي. وتبادل الخان الأعظم والبابا الرسائل الدينية وكان البابا يحث زعماء المغول على التحالف من أجل القضاء على الإسلام[١].

ولكن ظهور الاختلافات الدينية المسيحية بين اللاتين والأغريق والنسطوريين والأرمن، وامتدادها إلى معسكر المغول ذاته قد جعل الأمل ضئيلاً في إحراز نجاح أكبر من ذلك النجاح، وبينما كانت الطوائف المسيحية تتناحر فيما بينها كان الإسلام يوطد قدمه بين المغول، وكانت البوذية قد أحرزت تقدماً في مجال المغول الذين دخلوا بلاد الصين، وبذلك أخفقت حركة التبشير التي قامت بها الإرساليات المسيحية بين المغول، هذا بالإضافة إلى سلوك دعاة المسيحية الأخلاقي الذين كانوا يشربون الخمر ويتصفون بالجشع والفسق وكان القساوسة يتاجرون بالمناصب الدينية ويجمعون الثروات من وراء تعليم طقوس الكنيسة، ويؤثرون جمع المال على نشر تعاليم الدين.

وسرعان ما أبرم المماليك في مصر أيام قطز تحالفًا مع (**بركة خان**) زعيم القبيلة الذهبية في الفولجا والقوقاز ونتج عنه تعاون عسكري في معركة (**عين جالوت**) التي انتصر فيها المماليك على المغول سنة ٦٥٨هـ واستمر

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٥٤ وانظر أيضاً : بارتولد، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص ٥٨ - ٥٩.

على أيام الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) وغيره من المماليك البحرية هذا على الرغم من أن المسلمين كانوا قد قاسوا أكثر من غيرهم من تلك الاضطرابات التي صحبت غارات المغول وأن معظم هذه المدن التي كانت حتى ذلك الحين مجمع السلطة الدينية وكعبة العلم الإسلامي في القارة الأسيوية، قد أصبح معظمها أطلالا دارسة، حتى أن الفقهاء وأئمة الدين الأتقياء كان نصيبهم القتل أو الأسر، وكان نصيب كل من يضبط وهو يذبح ما أحله الله من الحيوانات على الطريقة الإسلامية أن يقتل وعينوا مكافآت لكل من دل على من يذبح الحيوانات بهذه الطريقة.

وكان بركة خان قد تحول إلى الإسلام منذ طفولته حيث عهد والده (جوجي بن جنكيز خان) بتربيته إلى أحد مشايخ خوقند فقرأ القرآن وهو صغير، ونشأ منذ طفولته على تعاليم الإسلام وقد قيل في سبب إسلامه روايةتذكرها توماس أرنولد :

«إنه تلاقى يومًا مع عير للتجارة آتية من بخارى ولما خلا بتاجرين منهم سألهما عن عقائد الإسلام فشرحاها له شرحًا مقنعًا انتهى به إلى اعتناق الإسلام والإخلاص له»(١).

وكان جيش بركة خان كله مسلمًا وكانوا يؤدون الصلاة في أوقاتها، ولم يكن في جيشه شخص واحد يتعاطى مسكرًا وكانت الطبقة الراقية في بلاده تضم مشاهير العلماء من المفسرين والمحدثين والفقهاء وعلماء الكلام، واستمر حكم بركة خان من سنة ٦٥٦ - ٦٦٧هـ وتحول في أثنائها معظم أفراد القبائل الذهبية إلى الإسلام.

وكان سلطان هذه القبائل المغولية يمتد من التركستان حتى روسيا وسيبريا وحكموا موسكو ذاتها، وكانت دولتهم تشمل التركستان الشرقية والغربية وعاصمتها «قازان» في شمال نهر الفولجا وكانت مدينة «السرا» أو «السراي» عاصمة لهم بعد ذلك، وكانت تسمى دولة التتار الشمالية.

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٥٩.

وفي عهد بركة خان حدث تعاون بين المغول المسلمين من قوفيف بركة خان وبين قوات المماليك في مصر أيام السلطان سيف الدين قطز في حربهم ضد ابن عمه هولاكو في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ التي كانت نقطة تحول فاصلة بالنسبة لنظام المماليك الذي لم يمض وقت طويل على تأسيسه، وبعدها توطدت سلطة المماليك وزاد نفوذهم منذ تلك المعركة[(١)].

وقد زاد التقارب بين بركة خان والدولة المملوكية بإقامة تحالف رسمي سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م) وقبل بركة خان أن يكون تابعًا للخليفة العباسي في القاهرة، وعندما اتخذ بركة هذا القرار تخلى عن انتمائه للمجتمع المغولي الدولي، هذا المجتمع الذي كان لا يزال يؤلف امبراطورية مترامية الأطراف على رأسها (الخان الأعظم) ونظرًا لذلك فإن اسم الخان الأعظم اختفى من على قطع العملة المسكوكة لدى القبائل الذهبية منذ عام ١٢٦٠[(٢)].

وكان من سلاطين هذه الأسرة السلطان (**محمد أوزبك**) الذي آلي إليه الحكم سنة ٧١٢هـ (١٣١٢م) وقد زار (**ابن بطوطة**) مملكتهم في عهد هذا السلطان (**محمد أوزبك**) ووصفها في رحلته ووصف مدينة (**السرا**) الواقعة على نهر الفولجا بقوله :

«ومدينة السرا من أحسن المدن متناهية في الكبر في بسيط من الأرض تغص بأهلها كثرة، حسنة الأسواق متسعة الشوارع وركبنا يومًا مع بعض كبرائها وغرضنا التطواف عليها، ومعرفة مقدارها، وكان منزلنا في طرف منها، فركبنا منه غدوة ما وصلنا لآخرها إلا بعد الزوال، فصلينا الظهر وأكلنا طعامًا، فلما وصلنا المنزل إلا عند المغرب، ومشينا يومًا في عرضها ذاهبين وراجعين في نصف يوم، وذلك في عمارة متصلة الدور لا خراب فيها ولا بساتين، وفيها ثلاثة عشر مسجدًا لإقامة الجمعة أحدها للشافعية، وأما سوى ذلك فكثير جدًا ....»[(٣)].

---

(١) بيرتولد، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد أسعد عيسى، ص ٥١ – ٥٢ الطبعة الأولى، نشر دار حسان، دمشق في ١٩٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٣.

(٣) محمد علي البار، المسلمون في الاتحاد السوفيتي، ج١، ص ٨٢ – ٨٤.

«وقاضي هذه الحضرة (**العاصمة**) بدر الدين الأعرج من خير القضاة وبها من مدرسي الشافعية الفقيه الإمام الفاضل صدر الدين سليمان اللزكي (**من الداغستان**) وبها من المالكية شمس الدين المصري، وبها زاوية الصالح الحاج نظام الدين، أضافنا بها وأكرمنا، وبها زاوية الفقيه الإمام العالم نعمان الدين الخوارزمي، رأيته بها وهو من فضلاء المشايخ حسن الأخلاق كريم النفس شديد التواضع، شديد السطوة على أهل الدنيا. يأتي إليه السلطان «محمد أوزبك» زائرًا في كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم إليه، ويقعد السلطان بين يديه ويكلمه ألطف كلام ويتواضع له والشيخ بضد ذلك، وفعله مع الفقراء والمساكين والواردين خلاف فعله مع السلطان، فإنه يتواضع لهم ويكمهم بألطف كلام ويكرمهم، وأكرمني جزاه الله خيرًا وبعث إلى بغلام تركي وشاهدت له بركة»[١].

وهذا الوصف الذي ذكره ابن بطوطة في رحلته لهذه البلاد يدل على أنها بلاد إسلامية مثل أي بلد إسلامي في العالم أيام ابن بطوطة في مطلع القرن الثامن الهجري (٧١٣هـ).

أما بلاد فارس فكان فيها هولاكو الذي حكم دولة التتار الشرقية وأسس أسرة (**إيلخانات المغول**) بها وتحالف مع المسيحية في المشرق في أرمينيا وجورجيا، وكانت زوجته المحببة إليه مسيحية، وعملت على استمالة زوجها نحو اخوانها في الدين، كما تزوج ابنه (**أباقاخان**) (١٢٦٥ - ١٢٨١، ٦٦٣ - ٦٨٠هـ) من ابنة امبراطور القسطنطينية، ومع أنه لم يتخذ المسيحية دينًا له امتلأ بلاطه بالقساوسة من المسيحيين وكان يراسل لويس ملك فرنسا وشارل ملك صقلية وغيرهم من المسيحيين يطلب إليهم التحالف معه على المسلمين[٢] لكن أخوه «**تكودار أحمد**» (١٢٨٢ - ١٢٨٤م) (٦٨٠ - ٦٨٣هـ)[٣] الذي اعتلى العرش من بعده اعتنق الإسلام،

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص ٨٤.

(٢) توماس أرنولد، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦٠.

(٣) لين بول، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، به زيادات لبارتولد وخليل أدهم وأحمد السعيد، ج٢، ص ٤٨٣، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٩.

وبعث بنبأ إسلامه إلى سلطان مصر المملوكي المنصور قلاوون ونصه ملخصاً :

«إلى سلطان مصر. أما بعد، فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ونور هدايته، قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوته ... فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين، إلى أن أفضى إلينا بعد أبينا الجليل وأخينا الكبير نوبة الملك ... ففكرنا فيما تمخضت زبد عزائمهم عنه واجتمعت أهواؤهم عليه، فوجدناه مخالفًا لما كان في ضميرنا من اقتفاء الخير العام، الذي هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام، وأن لا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدهماء، وتجرى له في الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان، ويستريح به المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقة والإحسان تعظيمًا له وشفقة على خلق الله فألهمنا الله تعالى إطفاء تلك الثائرة، وتسكين الفتن الثائرة وإعلام من أشار بذلك الرأي بما أرشدنا إليه .... وقوى عزمنا على ما رأينا من دواعي الصلاح وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجا إذا كان الشيخ قدوة العارفين «كمال الدين عبد الرحمن» الذي كان نعم العون لنا في أمور الدين، فأرسلناه رحمة الله لمن لبى دعاه، ونقمه على من أعرض عنه وعصاه، وأنفذ أقضى القضاة قطب الملة والدين، والأتابك بهاء الدين، اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة ليعرفوهم طريقته ويتحقق عندهم ما تنطوي عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا، وبينا لهم أنا من الله تعالى على بصيرة، وأن الإسلام يجب ما قبله وأنه تعالى ألقى في قلوبنا أن نتبع الحق وأهله، ونشاهد أن عظيم نعمة الله للكافة بما دعانا إليه من تقديم أسباب الإحسان، ... وعفونا عن كل من اجترح سيئة واقترف، وقابلنا بالصفح وقلنا عفا الله عما سلف، وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس ... وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى مستحقيها بشروط واقفيها ... وأمرنا بتعظيم أمر الحجاج وتجهيز وفدها، وتأمين سبلها، وتسيير قوافلها .... فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور المبين ... فمن يتحرى الآن طريق الصواب، فإن

له عندنا لزلفى وحسن مآب، وقد رفع الحجاب، وأتينا بفضل الخطاب، وعرفناهم طريقتنا وما عز منا بنية خالصة لله تعالى على استئنافها، وحرمنا على جميع العساكر العمل بخلافها، لنرضي الله والرسول ... فإن وفق الله سلطان مصر إلى ما فيه صلاح العالم، وانتظام أمور بني آدم، فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى، وسلوك الطريقة المثلى، بفتح أبواب الطاعة والاتحاد وبذل الإخلاص بحيث تعمر تلك الممالك وتلك البلاد، وتسكن الفتنة الثائرة وتغمد السيوف الباترة (يلتمس محالفة سلطان مصر) وتحل العافية أرض الهويني، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهوان .. والله تعالى الموفق للرشاد والسداد، وهو المهيمن على البلاد والعباد إن شاء الله تعالى»[1].

تحريرًا في أوسط جمادى الأولى سنة ٦٨١هـ

وقد قامت ثورة في وجه تكودار أحمد على رأسها ابن أخيه أرغون الذي دبَّر قتله، ثم خلفه على عرش فارس وما حولها وفي أثناء حكم أغون (١٢٨٤ – ١٢٩١م) (٦٨٣ – ٦٩٠هـ) استرد المسيحيون مكانتهم، ولقى المسلمون الاضطهاد ومنعوا من شغل الوظائف الهامة التي كانوا يشغلونها، وظل خلفاءه على وثنيتهم حتى دخل غازان (١٢٩٥ – ١٣٠٤م) (٦٩٤ – ٧٠٣هـ) في الدين الإسلامي في سنة (١٢٩٥م – ٦٩٤هـ) وجعله دين الدولة الرسمي في فارس، فتشجع رجاله واعتنقوا الدين الإسلامي ووزع المنح عليهم وزاد في عدد المساجد، وظهر في كل أطواره بمظهر الحاكم المسلم المثالي، ويذكر ابن بطوطة أن سيرة ذلك الملك كان لها تأثيركبير في نفوس المغول، ومن ذلك العهد غدا الإسلام الدين السائد في دولة إيلخانات فارس[2].

النهضة الإسلامية في عهد أوزبك :

كان لإسلام **(بركة خان)** أثر كبير في انتشار الإسلام بين أهالي

(١) القلقشندي، صبح الأعشى .. طبعة دار الكتب المصرية، ١٣٣٤هـ – ١٩١٥م، ج٨، ص ٦٥ – ٦٨.
(٢) ابن بطوطة، ج١، ص ٥٧ وتوماس أرنولد، ص ٢٦٥.

القبيلة الذهبية، ووصل الإسلام إلى أوجه في عصر «**أوزبك خان**» الذي كان زعيمًا لهذه القبيلة في سنة ١٣١٣ - ١٣٤٠م (٧١٢ - ٧٤١هـ) والذي اشتهر بإخلاصه للإسلام ونشر تعاليمه. ونجح في جذب كثيرين وتحويلهم إلى هذا الدين الذي كان من أشد أتباعه حماسة وصلابة، وإليه يرجع الفضل في توطيد دعائمه وتثبيت أركانه في البلاد التي كانت تحت سلطانه، ومما يدل على إخلاص هذا الرجل للإسلام ما نجده في القبائل الأوزبكية في أواسط آسيا، التي اشتقت اسمها من اسمه، وتنتسب إليه الآن ١٩٩٥م دولة تعدادها حوالي عشرين مليون مسلم وهي أوزبكستان وعندما انفرط عقد الاتحاد السوفيتي مؤخرًا، واستقلت هذه الدولة اختفت تماثيل لينين من ميادين أوزبكستان ووضع الشعب مكانها تماثيل «أوزبك».

ويقال إن أوزبك وضع خطة لنشر الإسلام في روسيا ولكنها لم تصادف نجاحًا، ومع ذلك فقد كانوا أصحاب السيادة المطلقة على روسيا مدة قرنين من الزمان، وكان أوزبك كثير التسامح نحو رعاياه من المسيحيين، فقد منحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية من غير أن يتعرض لهم أحد بسوء، ويذكر توماس أرنولد، وهو خير شاهد على سماحة الإسلام، أنه ذهب في تسامحه إلى أبعد من هذا، فسمح لهم بجولات التبشير لدينهم ونشره في بلاده، ومن أهم الوثائق التي تسترعي الانتباه عن التسامح الإسلامي، ذلك العهد الذي منحه «أوزبك» للمطران بطرس في سنة ١٣١٣م والذي جاء فيه:

«بمشيئة العلي القدير وعظمته ورحمته من أوزبك إلى أمرائنا كبيرهم وصغيرهم، إن كنيسة بطرس مقدسة فلا يحل لأحد أن يتعرض لها أو لأحد من خدمها أو قسيسيها بسوء، ولا أن يستولى على شيء من ممتلكاتها أو متاعها أو رجالها، ولا أن يتدخل في أمورها، لأنها مقدسة كلها، من خالف أمرنا هذا بالتعدي عليها فهو أثيم أمام الله وجزاؤه منا القتل، ولندع المطران ينعم بالأمان والبهجة، ولندعه (أو وكيله) يقرر وينظم كل المسائل

الكنسية بقلب سليم وفؤاد عادل قويم. وإننا نعلن في حزم أننا نحن وأولادنا وأمراء دولتنا وولاة أقاليمنا لن نتدخل بأي حال في شئون الكنيسة ولا في شئون المطران، ولا في شئون المدن والمراكز والقرى الداخلة في أملاكها الخاصة .... إلخ»(١).

وهذا التسامح هو الذي دفع البابا يوحنا الثاني والعشرين إلى إرسال رسالة إلى الخان يشكر فيها للأمير المسلم ما أظهره من عطف على رعاياه المسيحيين ويثني على هذه المعاملة الطيبة التي كان أوزبك يعاملهم بها(٢).

التعصب الروسي في مواجهة التسامح الإسلامي :

في مقابل هذا التسامح الإسلامي الذي قام به حكام التتار المسلمين نجد أن روسيا عندما فتحت قازان عاصمة التتار في القرن السادس عشر تلا هذا الفتح حركة رسمية للتبشير بالمسيحية، ونشط رجال الشرطة ورجال السلطات المدنية في تأييد أعمال رجال الكنيسة، وحولوا كثيرًا من التتار الوثنيين إلى المسيحية بالقوة وكانوا يستعملون معهم الحبس ويكبلونهم بالحديد، وفي عهد الامبراطورة كاترين الثانية أمرت في سنة ١٧٧٨م بأن يوقع هؤلاء الذين اعتنقوا ظاهريًا المسيحية على إقرار كتابي يتعهدون فيه بترك خطاياهم الوثنية والتمسك بالدين المسيحي وعقائده والثبات عليها، على الرغم من ذلك ظل هؤلاء مسيحيون بالاسم، وسرعان ما أخذوا يحاولون التخلص مما بذلت الكنيسة الأورثوذكسية، وتركوا المسيحية واعتنقوا الإسلام(٣).

واتجهت جهود روسيا في هذا المجال إلى المسلمين التتار لتحولهم بالقوة إلى المسيحية وتسجلهم في سجلاتها على أنهم مسيحيون، والقانون الجنائي الروسي كان يتضمن دائمًا عقوبات صارمة لهؤلاء الذين يتركون المسيحية الأورثوذكسية بتجريدهم من كافة الحقوق المدنية وبحبسهم مع الأشغال الشاقة مدة تتراوح بين ثماني سنين وعشر، وعلى الرغم من هذه القسوة

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٧٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٣.

(٣) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

نجح رجال الدعوة الإسلامية في جذب قرى بأسرها إلى عقيدة الإسلام بعد تعميدهم بالقوة.

وقد أثار هذا فزع رجال الكنيسة الأورثوذكسية وأخفقت جهودهم، عندما دخل التتار في دين الله أفواجا ولا سيما عند صدور مرسوم حرية التدين في سنة ١٩٠٥ مثال ذلك ما قيل من أن احدى وتسعين أسرة اعتنقت الإسلام في قرية «أتومقا» في سنة ١٩٠٩م، وأن عدداً بلغ من الكثرة حوالي ٥٣٫٠٠٠ نسمة أسلم بين ١٩٠٦، ١٩١٠م ويعلق توماس أرنولد على هذا المشهد بقوله: «وقد قيل أن أكبر الفضل في نجاح هذه الدعوة يرجع إلى مستوى الحياة الأخلاقية في المجتمع الإسلامي، الذي كان أكثر رقيًا، كما يرجع أيضًا إلى شعور التآخي الذي كان يشيع في هذا المجتمع، والذي كان أكثر تماسكًا وقوة، أضف إلى ذلك أن الأساليب التي لجأ إليها رجال الكنيسة الروسية وأيدتها الحكومة، قد جعلت العقيدة المسيحية أمراً غير مألوف لديهم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى سارت الدعوة الإسلامية قدمًا في حماسة بالغة، فقد كان كل مسلم ساذج أمي داعية إلى دينه»(١).

وقد تجلى هذا المشهد عن تحول كثير من القبائل والقرى التتارية (التي اعتنقت المسيحية بالقوة) إلى الإسلام، ولا يزال تأثير الإسلام آخذاً في النمو بين هؤلاء الذين يدينون بالمسيحية وبين البقية القليلة التي لا تزال على وثنيتها، على الرغم من العقوبات الصارمة التي تحاصرهم بها الحكومة الروسية ونجحت الدعوة الإسلامية حتى بين القبائل الروسية التي تقيم في الشمال الشرقي من روسيا(٢).

وقد لعبت مدينة «قازان» عاصمة تتارستان دوراً كبيراً في مجال الدعوة إلى الإسلام، فقد كانت المركز الرئيسي لنشاط هذه الدعوة، وكان يُطبع في كل سنة عدد من المنشورات الإسلامية التي توزع في حوض نهر الفولجا وفي جميع أنحاء روسيا.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٨١/١٨٠.

(٢) المرجع السابق نفس المكان.

العلاقات بين النيل والفولجا :

ومناطق حوض الفولجا، وهو النهر الذي يسميه العرب نهر الإتل، وهو تعبير عن إحدى الدول التي قسم إليها جنكيز خان ملكه بين أولاده، وكان من بلادها تلك المنطقة من جنوب شرق روسيا الحالية بين جبال الأورال ومجرى نهر الفولجا وتحد تلك المنطقة أو الدولة التي نشير إليها، بنهر الطونة والبحر الأسود وبحر قزوين جنوبًا، وببلاد ما وراء النهر وما وراء تركستان شرقًا والمنطقة المتجمدة شمالاً وروسيا الأوربية غربًا[1].

وسميت هذه الدولة التترية في التاريخ ولا سيما عند كتاب العرب في مصر (**بدولة القبيلة الذهبية**) أو (**دولة القفجق**) أو (**دولة بركة خان**) أو (**مملكة أوزبك**) وقد ينسبونها إلى عاصمتها فيقولون (**مملكة السراي**) أو (**دولة تتار الشمال**) نسبة إلى موقعها الشمالي.

والقفجاق أو القبجاق قبائل قديمة تجمعها بالتتر وحدة الجنس وقد خالطوا التتر حين جاءوهم، وامتزجوا بهم وصاروا جنسًا واحدًا واشتركوا في الملك حتى قيل لدولة التتر الشمالية دولة القفجاق.

وقد كانت هناك قرابة جنسية بين سلاطين المماليك البحرية الذين حكموا مصر من ٦٤٨ - ٧٨٤هـ وبين (**تتار الفولجا**)، لدرجة أن أحد سلاطين المماليك البحرية قال : «نحن والتتر من جنس واحد لا يتخلى بعضه عن بعض»[3] ومن هذا الجنس كانت كثرة تمثل جيش مصر، وتحكم فيها ويتيسر لبعضهم أن يقيم أسرة حاكمة يظل الحكم يتوارث فيها بين نسله أكثر من مائة عام، وهكذا نرى (**الظاهر بيبرس**) الذي حكم هو واثنين من أبنائه، إنما هو تفجاقي[4] و (**قوصون**) الأمير العظيم الشأن الذي كان يركب في خدمته ثلث عسكر مصر إنما هو تفچاقي[5].

---

(١) أمين الخولي، «صلات بين النيل والفولجا» نشر دار المعرفة القاهرة سنة ١٩٦٤، ص ١٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥. (٣) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ٤٤.

(٤) المقريزي، السلوك في معرفة دول الملوك، ج١، ص ٦٣٧.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٤٦/١٠ طبعة دار الكتب.

ومن أسباب كثرتهم أن من ظفر منهم بالسلطة يستقدم أهله وأقاربه أو يقدمون على صيته فيؤمّرون، فيذكر ابن حجر في كتابه الدرر الكامنة أن المملوك (**طهر بغا المغلي**) أحد الأمراء بالديار المصرية حضر إلى القاهرة سنة ٧٢٦هـ فقدمه السلطان الناصر وكان يقرأ عليه كتب بو سعيد التي ترد بالمغلي (**أي اللغة المغولية**) ويكتب الأجوبة (**أي يكتب ردود هذه الرسائل**) وكان يفد عليه من أقاربه على مدي الأيام من عشرة إلى مائة فيبرهم ويصلهم فمنهم من يقيم بالقاهرة ومنهم من يرجع»[١].

ولما سمع والد يلبغا بمكانة ولده عند الناصر محمد بن قلاوون قدم إلى مصر ومعه إبناه (استدمر، وقراكز) فأمَّره السلطان[٢] وقدم أبو الأمير «طاز» ومعه أخوه چركس من بلاد الترك فتلقاه وأكرمه، وأدخله في دين الإسلام وختنه[٣].

والأستاذ أمين الخولي يُحصي منهم كثيرًا في بحثه بعنوان : «صلات بين النيل والفولجا» فيذكر أنه وصل منهم مئات الجنود الذين كانوا قد أرسلوا من الشمال لمعاونة هولاكو حين اختلف عليه ابن عمه (بركة) فكتب إليهم أن يعودوا أو يتحولوا إلى مصر فوفدت منهم على مصر دفعات، نزل منهم من نزل في جملة البحرية وقد أكرمهم السلطان، وعمل لهم دعوة عظيمة، وحمل إليهم الخلع والخيول والأموال، وأمَّر كبراءهم، وصار كل منهم من سعة الحال كالأمير، في خدمته الأجناد والغلمان، وأفرد لهم عدة جهات، وكثرت نعمهم وتظاهروا بدين الإسلام، فلما بلغ التتار ما فعله السلطان مع هؤلاء وفد عليه منهم جماعة وهو يقابلهم بمزيد من الإحسان، فتكاثروا بديار مصر[٤].

---

(١) الدرر الكامنة، ج٢، ص ٢٣٤ وانظر أمين الخولي، مرجع سبق ذكره، ص ١٩.

(٢) المرجع السابق، ج، ص ٢١٣.

(٣) السلوك ٢/٨٨٧ وأمين الخولي المرجع السابق، ص ١٩.

(٤) خطط المقريزي، ٣/١٩١ وأمين الخولي ص ١٩ - ٢٠.

ولكثرتهم تنقل الأخبار عنهم أنهم تآمروا ليهجموا على السلطان ويغيروا الدولة، ومعاصرو هؤلاء المماليك كانوا ينتبهون إلى أنهم تتار، فيقول شهاب الدين أبو شامة الشاعر :

غلب التتار على البلاد فجاءهم * من مصر تركي يجـود بنفسه

بالشام أهلكهم وبدد شمـلهم * ولكـل شـيء آفة مـن جنسه

البعثات الدبلوماسية :

وبناء على هذه العلاقات بين النيل والفولجا تبودلت البعثات الدبلوماسية بين القاهرة وسراي، فبلغ عددها نحو خمسين بعثة في نحو قرنين من الزمان أو أزيد قليلاً، منها نحو أربعين بعثة في نحو مائة سنة من حكم المماليك البحرية، كان منها ثماني بعثات على عهد الظاهر بيبرس وحده[٢] وقد استمرت هذه المراسلات منذ عهد الملك الظاهر بيبرس وطول عهد المماليك البحرية وفترة من أيام المماليك البحرية قرب منتصف القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي.

ومن هذه البعثات نحو ست وعشرين في عهد الناصر لأنه تسلطن ثلاث فترات، فكان أطول السلاطين البحرية عهداً.

وكان هدف هذه البعثات تكوين حلف عسكري بين النيل والفولجا يكون كماشة أحد فكيها في القاهرة ومجاله الحربي الشام وما وراءه والثاني : من فكيها في ميدان تلاقي تتر الشمال بأبناء عمهم التتر «هولاكو» وذريته يطاردونهم فيما فتحوه من بلاد الإسلام وغيرها ويكون ما يسترد منها لمصر أو قسمة بين الحليفين[٣].

وقد حاول هذا الحلف أن يقوي علاقاته السياسية والعسكرية بالمصاهرة بين التتار والمماليك، فيذكر البعض أن أولى هذه المصاهرات

---

(١) النجوم الزاهرة، ٨٢/٧.

(٢) أمين الخولي، صلات بين النيل والفولجا، ص ٢٧.

(٣) نفس المرجع ص ٢٨.

كانت بين «بركة» و«بيبرس» والزوج هو الظاهر بيبرس والعروس بنت بركة خان القولجا، وإن كان بعض الكتاب المحققين(١) يذكر أن العروس كانت بنت الأمير حسام الدين بركة خان الخوارزمي كما في النجوم الزاهرة وله زوجات ثلاث من التتار وهن ١ - بنت الأمير سيف الدين نوكاي التتاري، ٢- وبنت الأمير سيف الدين كراي التتاري، ٣ - وبنت الأمير سيف نوغاي التتاري والمصاهرة المشهورة هي ما كان بين الناصر محمد بن قلاوون وأوزبك والعروس بنت أخي أوزبك ويقال أخته سنة ٧٢٠هـ.

وقد حققت هذه العلاقات التحالف القوي الذي أفاد الدولتان في مجال مناوأة دولة التتار الشرقية على أيام هولاكو وتيمور لنك وغيرهما.

ووصل تقدير مصر لصداقة (السلطان بركة) أن دعا له الخليفة العباسي على المنبر بعد الدعاء لسلطان المماليك، وأصدر السلطان أمره للخطباء بأن يدعوا على المنابر بمكة والمدينة والقدس والقاهرة لسيد القولجا بعد الملك بيبرس(٢).

وكانوا يرسلون إليه الهدايا العظيمة، ويكتبون إليه بما تكرر في المناسبات المختلفة عند المراسلات يذكرونه بقواعد الحلف العسكري ومبرراته الدينية التي توجب جهاد الكفار ولو كانوا أهله، فإن النبي عليه الصلاة والسلام قاتل قريشاً وهم عشيرته الأقربون ويذكرون له أن هولاكو لأجل زوجته النصرانية أقام دين الصليبيين وما إلى هذا من الإغراء (بهولاكو) وإظهار الميل والمودة إلى بركة خان.

وفي رسائل (بركة) إلى سلطان مصر كان يحرص على ذكر من أسلم من بيوت التتار وتفصيلهم بقبائلهم وعشائرهم وصغيرهم وكبيرهم وقيامهم بالفرائض والسنن والزكاة والغزاة والجهاد في سبيل الله، وإعلان أنهم يحاربون أبناء عمهم (ورثة هولاكو)، الذين هم من لحمهم ودمهم لإعلاء كلمة الله، وتعصباً للإسلام لأنهم بغاة والباغي كافر بالله ورسوله(٣).

(١) أمين الخولي. (٢) المقريزي، السلوك، ج١، ٤٩٨.
(٣) أمين الخولي، ص ٤٣ - ٤٤.

ولا شك أن لوجود الخلافة في مصر وحكم الحرمين الشريفين وما يتصل بذلك من زعامة مصر للعالم الإسلامي ومركزها السياسي القوي كان له أكبر الأثر في ترادف الزيارات والبعثات عليها من جانب كل الدول حتى أن ملك القفجاق يرسل في سنة ٦٨٢هـ إلى السلطان قلاوون : أنه أسلم ويريد أن ينعت نعتًا من نعوت أهل الإسلام ويجهز له علم من أعلام الخليفة وعلم سلطاني يقاتل بهما أعداء الإسلام، فتجهز مصر رسله إلى الحجاز ثم يعودون فيسيرون إلى بلادهم بما يريدون(١).

ومن أخطر النتائج على الصعيد الإسلامي هي أن الحرب الخفية التي كانت مستعرة في إيران وما وراءها بين العربية والفارسية قد انتهت بفعل الاجتياح المغولي لصالح اللغة الفارسية، فقد طمس المغول جميع مراكز الإشعاع العربية التي دعمها نظام الملك وثبتوا مع الأيام الطابع الفارسي ونقلوه معهم إلى مناطق أخرى كالصين والهند وشرقي أوربا، فالمغول شعب بلا خلفية ثقافية أو حضارية متميزة فاستعاروا حضارتهم من التجربة الفارسية الإسلامية(٢).

وتحول معظم المغول إلى الإسلام وصبغت ثقافتهم بالفارسية الإسلامية إلى حد كبير وناصروا الشيعة وعمل الشيعة في ركابهم.

البعث العثماني:

في وسط هذا الضعف الإسلامي نشأت قوة إسلامية مجاهدة هي قوة العثمانيين، بدأت بقبيلة صغيرة من الترك على رأسها مسلم مجاهد هو عثمان بن أرطغرل بن سليمان، وقد فجرت هذه القبيلة طاقات الأمة المبعثرة والمكدسة على الحدود مع الدولة البيزنطية الأرثوذكسية وعملت على تنظيمه وبنائه من خلال رفع راية الجهاد في مواجهة العالم الغربي الصليبي ممثلاً في الامبراطورية البيزنطية.

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٥.

(٢) سهيل زكار، تقديمه لكتاب العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد أسعد عيسى، ص١٥ - ١٦.

محتويات الرسالة

تابع محتويات الرسالة

رقم الإيداع بدار الكتب
٩٨/١٠٧٣١

I.S.B.N
977 - 19 - 6686 - 3